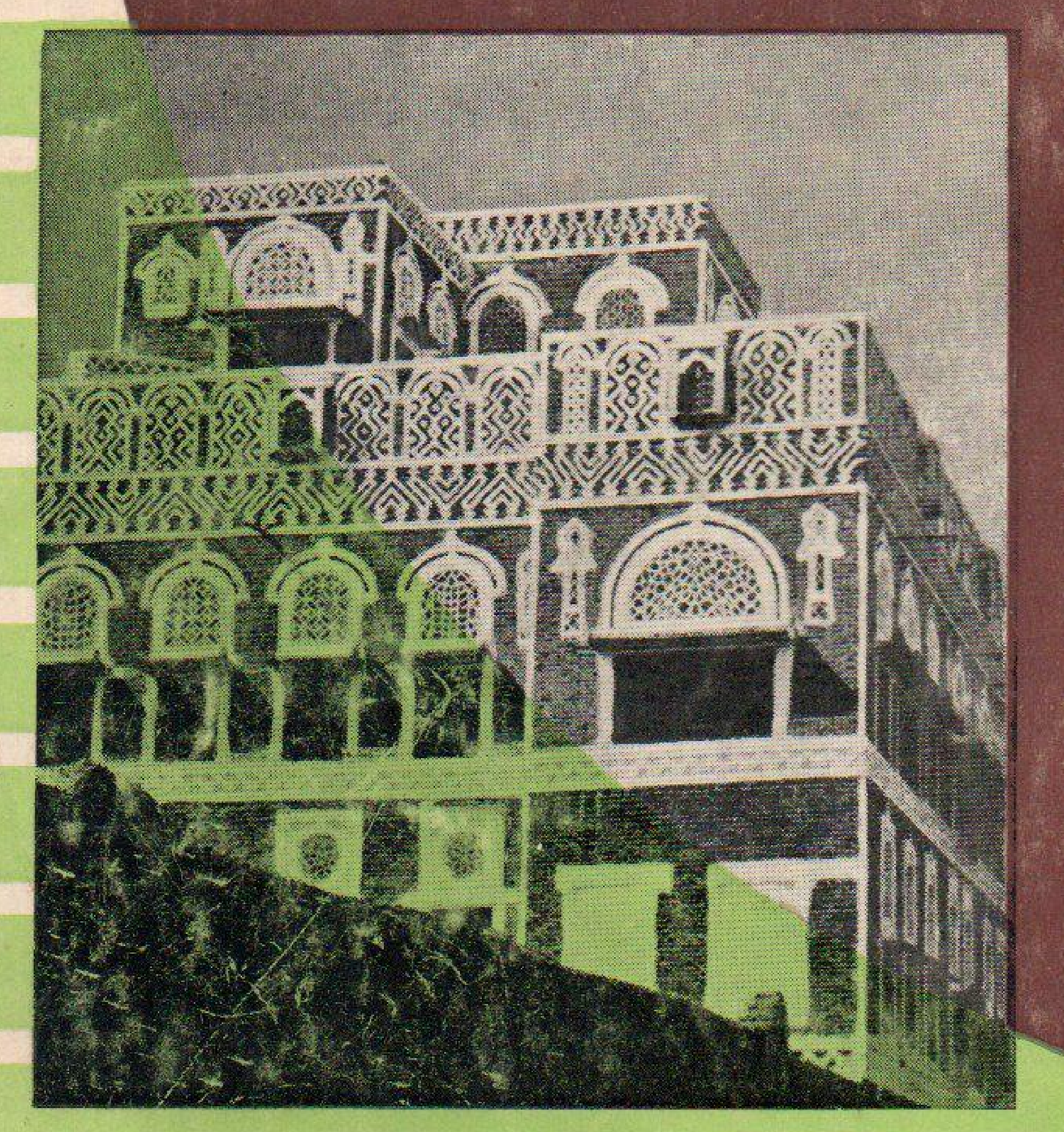
كلودي فايان

كنت طبيبة في اليمن

تعريب
محسن العيني



دار الطليعة - بيروت

كتب طبية في اليمن

كلودي فايان

كنت طبيبة في اليمن

تعريب
محسن العيني

دار الطليعة للطباعة والنشر

الطبعة الاولى
بيروت ، تشرين الاول ١٩٦٠

تقدمة

في صيف عام ١٩٥٦ تعرفت في باريس بالدكتورة كلودي فايان التي كانت تقوم بالقاء سلسلة من المحاضرات عن اليمن مستعينة بالفانـــوس السحري أحياناً . وقد لمست حبها لليمن واعجابها باليمنيين ،ولمست اخلاصها وصدقها وخلو أحاديثها من التشويه والسخرية والتهكم التي تعودناها من الغربيين حينما يكتبون عن بلادنا .

وظهر كتابها « طبيبة فرنسية في اليمن » في مكتبات باريس ولقي اقبالاً ورواجاً لا في فرنسا وحدها بل ونقل الى لغات عديدة منها الانجليزية والالمانية والمجرية وغيرها ، وكان المتوقع ان تهتم دور النشر العربية بهذا الكتاب فتنقله الى اللغة العربية ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

ورغم عدم تمكني من اللغة الفرنسية ، وتهيبي ، فقد أقدمت على نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وسهل مهمتي صلتي بالطبيبة الفرنسية ، ومعرفتي للوقائع منها ، وفهمي للوضع الداخلي في اليمن ،وسير الأحداث . كما شجعني على السير في التجربة حتى النهاية شعوري بأن الكتاب جدير بأن يقرأه العرب ولا سيما اليمنيون .

وانتهيت من ترجمة الكتاب في بداية عام ١٩٥٨ ، ولكن ظروفاً كثيرة حالت دون ظهورها .



من اليمين : الشيخ امين بن حسن ابو راس ، الشيخ سنان بن عبد الله ابو لحوم ، الشيخ الشهيد حميد بن حسين الاحمر ، في زيارة للشيخ سنان بمستشفى صنعاء سنة ١٩٥٩ .

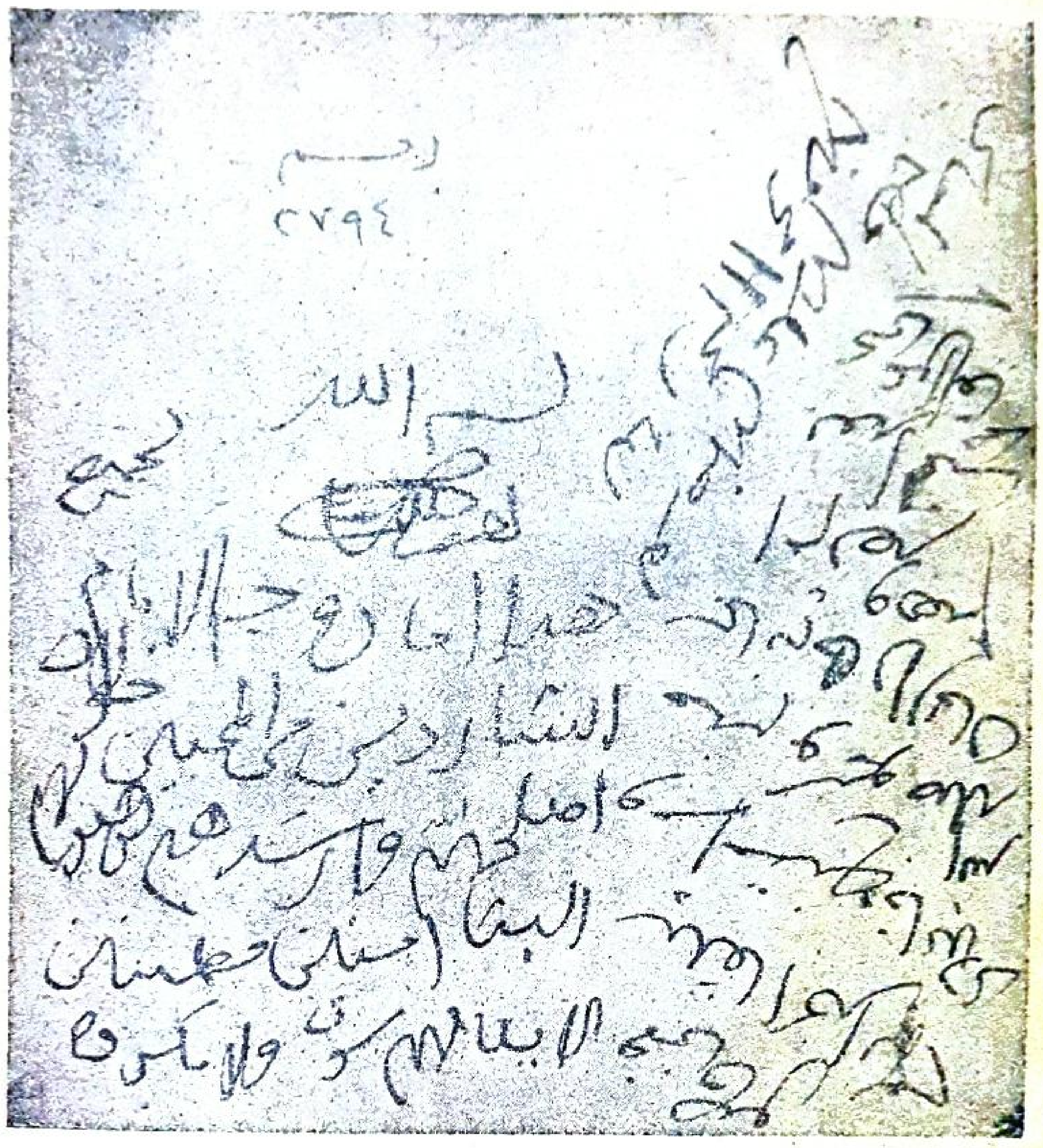
وخلال هذا العام مرت اليمن بأحداث وتطورات هامة لم يحس بها أحد في الخارج بسبب النطاق المضروب حولها فقد انتقل الامام ومعظم أفراد اسرته وحاشيته إلى ايطاليا ، وترامت إلى أسماع الشعب أنباء وأخبار تزكم الأنوف ، وصرف الامام وصحبه في بذخ يحسده عليه أمراء السعودية وشيوخ قطر .

وتوقفت مرتبات موظفي الدولة ثلاثة أشهر وكان الامام يردد في وقاحة « ما معناش فلوس .. اصبروا علينا ! » لقد سحبوا أموال الشعب إلى الخارج ، صرفوا منها على ملذاتهم وشهواتهم واصلاح ما أفسده الدهر والشذوذ من أجسادهم . وأودعوا ما تبقى في البنوك استعداداً لما تأتي به الايام .

وفي طريق عودته مرت باخرته بقناة السويس ، وخرج الرئيس جمال عبد الناصر لاستقباله ، وخفت الزوارق والسفن تحيط بباخرته وهي تدخل مياه الجمهورية العربية المتحدة ، ورغم كل هذا رفض النزول إلى أرض الجمهورية ، بل ولم يخرج حتى إلى ظهر الباخرة لاستقبال الرئيس عبد الناصر بدعوى المرض وتدهور الصحة .

وفي اليوم التالي وصل الحديدة ، وأقبلت جماهير الشعب تتفرج عليه وترقب مقدمه وتنتظر أن ينزل من الباخرة متهالكاً ضعيفاً محمولاً على الاكتاف ، إلا أنه فاجأ الناس ممتلئاً حيوية ونشاطاً فقد نزل شاهراً سيفه وسار على قدميه . ووقف أمام جماهير الشعب التي كانت تنتظر أن تكون رحلته قد غيرت أفكاره وأقنعته بضرورة الخروج من ظلام القرون الوسطى وفتح النوافذ والابواب لنور القرن العشرين ..وقف أمام هذه الجماهير والسيف في يده وراح يتوعد الشعب ويتهدده ويردد في صوت فظ غليظ ولهجة وحشية بشعة عبارته المشهورة :

« أنا أحمد يا جناة ، من يفكر في معارضتي والتمرد علي . والله لأقطعن الايدي والارجل من خلاف ولأقتلن كل من تحدثه نفسه بالخروج



رقم
٢٧٩٤

بسم الله

يصح

هذا امان وجه الامام لجميع
الشاردين من المحبين خولان
اصلحهم الله وارشدهم لوصولهم
الينا آمنين مطمئنين
لجميع الابطال لا ينالهم سوء ولا مكروه

اضطر الإمام احمد ان يعقد الصلح مع قبيلة خولان ، ولكن عدداً من المشائخ الابطال ما زالوا في الخارج يواصلون العمل لتحرير الشعب ، وقد ارسل الإمام وفداً مكوناً من عدد من كبار المشائخ لاسترضاء الشيخ سنان ابو لحوم وصحبه ، واعادتهم . وهذا أمان كتبه الإمام احمد بخطه وامضائه :

« هذا امان وجه الإمام لجميع الشاردين من المحبين خولان ، اصلحهم الله وارشدهم لوصولهم الينا آمنين مطمئنين لا ينالهم سوء ولا مكروه ، فمن وصل سيلقى الخير ومن امتنع فالبادي منه وسيوصله الله طال الحال ام قصر ؛ وهذا بيد المحب يحيى علي القاضي والله المعين » .

وقد رفض المشائخ . وسلم حميد الأحمر نفسه في وجه الإمام فغدر به وقتله في سجنه ، متنكراً للشرف .

عي ، ومن لم يقتنع فليجرب ، وهذا الفرس ... وهذا الميدان ! »

وحش مفترس ، جزار غليظ ، يواجه شعبه الذي خرج لاستقباله بمثل هذه العبارات الشرسة .

وبدأ فعلاً في تنفيذ أفكاره السوداء ، فأخرج ضابطاً شاباً إلى الميدان ليقطع يده ورجله ، وقطعت يده فعلاً ، وسلمت رجله بفضل غلطة مباركة موفقة .

لم يتقدم أحد لمبارزة الامام في الميدان ، فبدأ هو التحدي .

استدعى كبير القبائل ، شيخ قبيلة حاشد ، للمثول بين يديه مبطناً له الشر والاذى ، ولقبيلته الاذلال والهوان . فرفض الحضور هو وابنه الشاب ... أرسل الجيش فوقفت حاشد وقفة باسلة ، وانتظر الشعب أن يصفي الحساب مع هذا الوحش وتنتهي المأساة . ولكن آل الاحمر ، مشائخ حاشد اخطأوا التدبير ففضلوا حقن الدماء ، وسلموا أنفسهم وثوقاً بكلمة الشرف لطاغية يشرب الدماء ولا يقيم وزناً لعهد أو لشرف .

فذبح الابن الشاب والحقه بأبيه الشيخ الكبير الطاعن في السن .. وأودع سجونه الارامل والاطفال من آل الاحمر .. ولا يدري أحد ما الذي تنتظره قبيلة حاشد !

واستدعى الطاغية بعد ذلك كبار المشائخ ، ولكنهم رفضوا ، ووقفت قبيلة خولان ترد على نداءاته قائلة في برقية شهيرة :

« لن نسلمك مشائخنا ، فقد قتلت غيلة وغدراً مشائخ حاشد الكبار ، ولن نرهن أبناءنا ضماناً لولائنا ، ولن ينزل جيشك في بيوتنا وأراضينا. إننا ندفع الزكاة ، ونؤمن الطرق ، ليس لك علينا أكثر من هذا ... فان أردت غير هذا ... فنحن نفضل ان نقاتل ونموت على عتبات بيوتنا . والشعب حكم بيننا وبينك . »

وأرسل جنوده غير النظاميين ، واستمر القتال أكثر من ثلاثين يوماً

اضطر بعدها إلى عقد صلح مع القبيلة الشجاعة .

ولم يستتب له بعد ذلك أمن ولا استقرار .

فالمنشورات تعمّ مدن اليمن وقراهـا ، والمتفجرات تنسف بيوت أذنابه وحواشيه ، والبلاد كلّها تنتظر أن تسمع مصرع حكمه الظالم المقيت .

وفكّر .. وفكّر له الاذناب والمرتزقة ، وسمع الشعب راديو صنعاء يذيع امراً إمامياً عجيباً سخيفاً ...

لقد أصدر الامام امره بتكوين لجنة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وتناقل الناس الخبر على الوجه التالي .. كوّن الامام جمعية للأمر بالمنكر والنهي عن المعروف .. ولا أدري إذا كان المذيع قد قال الخبر على هذا النحو أم ان الناس قد فهموه هكذا حتى يكون منطقياً ومنسجماً ومتفقاً مع الرغبات الملكية الشريفة !!

وبدأت اللجنة عملها بهمة ونشاط ، فاقتحمت بيوت الآمنين وانتهكت حُرمة المساكن وروعت النساء والاطفال بحثاً عن زجاجة فارغة أو رائحة معينة تقنع اللجنة بأن رب البيت ممن يعاقرون الخمرة .. ولا بدّ ان يكون أعضاء اللجنة على خبرة عظيمة حتى يتأكدوا ويصدروا حكمهم ضد هذه الفريسة الضعيفة .

وتشهد صنعاء هذه الايام أبشع مشاهد شهدتها الانسانية قبل ستمائة أو سبعمائة سنة .

وكما يسمع الناس وصفاً لمباراة كرة القدم أو لاحتفالات شعبية بعيد قومي ، أو لسهرات أم كلثوم ، يذيع راديو صنعاء مآسي التعزير والجلد بصورة تتنافى مع أبسط حق من حقوق الانسان وكرامته .

وتتوج هذه الاحتفالات بحضور العلماء وسيوف الاسلام وكبار رجال الدولة ...

ولا شك ان الهدف واضح معروف .. وهو صرف أنظار الشعب عن



من اليمين : الشيخ احمد بن علي الزائدي ، الشيخ سنان بن عبد الله ابو لحوم ، الشيخ علي بن علي الرويشان ، الشيخ علي بن عبد الله ابو لحوم تحدوا الإمام ، ورفضوا العودة ، وصمموا مع زملائهم على مواصلة النضال حتى يتحرر الشعب

معركته مع جلاديه ، وإلهائه عن تتبع التحركات الثورية في هذه القبيلة أو تلك ، وعن سماع الانتصارات التي يحققها الشعب العربي هنا وهناك ؟

إن على شعبنا العربي في اليمن أن يضرب ضربته الحاسمة ، وان يصفي حسابه مع هذا الطاغية الجلاد . وان يمحو العار ، فقد تحررت من حوله شعوب وشعوب .

واليوم ونحن نصدر هذا الكتاب الذي كتبته فرنسية دخلت قصور سيوف الاسلام وعرفت حياتهم وشهدت ألواناً من عبثهم ولهوهم ، نصدره ليعرف الشعب ان آخر من يجوز له ان يغار على الاسلام هو أمير المؤمنين ورجال الدين المنافقين وسيوف الاسلام الميامين !

بيروت ، آب ١٩٦٠ — محسن العيني

مقدمة

من سلسلة علوم ورحلات الى بعثة في اليمن

زوج وعدة أطفال ووظيفة ثابتة طبيبة في العقد الرابع من العمر . كل هذا يجعل في العادة كل مغامرة بعيدة . في عداد المستحيلات . وقد كانت هذه حالتي ورغم ذلك فقد تعذر عليّ أن أنسى أحلام صباي التي تدعوني إلى الارتحال .

ويبدو ان مقاومتي للحياة الروتينية التي يخضع لها الانسان عادة ترجع إلى طفولتي الغريبة التي قضيتُها في منزل قديم في شارع « شرش ميدي » في باريس . كان جدي يزدري الأطباء بقدر ما كان يخاف من الميكروبات . وكان يمنعني من الذهاب إلى المدرسة . حتى يحميني من مرض الحصبة . وكان يقول لي ان الانسان يستطيع أن يتعلم من جدار قديم مغطّى بالطحلب ما يتعلمه من الكون كله إذا كانت له عيون تبصر . ولكن هذه الحكمة كانت أعلى بكثير من أن أفهمها وأنا في سن العاشرة . وفي الحديقة التي تغطيها ظلال الاشجار التي لم تشذب أبداً . والتي تمرح فيها الطيور . لم يكن يصلني من العالم الخارجي إلا أصوات أجراس الكنيسة المجاورة . وكانت تأتيني مدرسة تعلمني قراءة هومير بصوت مرتفع . وقد أسكرتني الرحلات الخيالية التي أوحتها أولى أقاصيص

الاسفار الممتزجة بمغامرات الأخذة .

وقد عثرت . فيما بعد . على كتب حول جغرافية القرن الماضي . في المكتبة . وكم كانت سعادتي حين وجدت ضمن هذه المجلدات الملية الضخمة أقاصيص المكتشفين الاوائل التي كانت شيقة جداً في بعض الاحيان .

وكانت الدنيا التي وصفوها غير حقيقية . تماماً كالصور المنقوشة التي رسمها جوستاف دوري Gustave Doré وكانت تلك الرسوم المنقوشة أكثر إثارة واغراء من الصور الفوتوغرافية ، ولحسن الحظ وضعت الصدف بين يدي مجلة « علوم ورحلات » المصورة ، وقد وجدت فيها عرضاً واضحاً وأميناً لظروف الطبيعة . وما يمكن أن يرجوه الانسان من الفنون الانسانية . وحتى احمل إلى البلدان البعيدة أفضل ما في حضارتنا ، قررت أن أصبح فيما بعد طبيبة . وكانت رحلتي الأولى . ولعلّها أصعب رحلاتي هي الذهاب إلى المدرسة المجاورة .

وقدّمتُ الاطروحة للحصول على الدرجة العلمية في سنة ١٩٤٠ ولم تتهيأ لي امكانيات الهجرة . كما أني كنتُ قد تزوجت ، وأنجبت أطفالاً صغاراً ، وإذا كانت فرص السفر تتضاءل شيئاً فشيئاً أمامي ، فان ندمي لم يزدد إلاّ اضطراماً واشتعالاً . وكانت الامور المثبطة التي تعمل على تلاشي ما في خيالي كثيرة من حولي . ولكنها كانت أضعف من أن تؤثر . لقد كنت احب أن يخلو قلبي وألا يسترسل إلى ما لا نهاية في حلم زائف .

ولم تغير الحرب شيئاً في الموضوع . بل على النقيض من ذلك فان ذكريات قرى اللوار في يونيو ١٩٤٠ وأدغال ليون L'yonne أضافت إلى أسئي وندمي كل أثقالها ، فقد كنتُ في هذه الظروف غير العادية أكتشفُ في نفسي فجأةً قدرات لا عهد لي بها في الحياة العادية .

لقد اعتقل الالمان زوجي وقرروا اعدامه ضرباً بالرصاص وقد استطعت أن أنفذ سلسلة من الحوادث أطلقته وأنقذته من أيديهم في الوقت المناسب . ولكن رحلتي كانت أكثر من مكافأة إنها فضلاً عن ذلك دليل على الوفاق الحقيقي . وبعد سنوات كثيرة كنت في أمس الحاجة إلى هذه الجرعة من الجمال والفائدة والعناء التي تعطي للحياة معناهـا الكامل . وقد أدرك صديقي البواعث العميقة ، والاسباب الخفية فسمح لي بالغياب عاماً كاملاً .

عام من الحرية ، وأنا في سن لا أزال أتمتع فيها بالشباب فأقدر ، وكبيرة فأدرك ، يا لها من ثروة ! ولم أكن متقلة مع ذلك ، بأي هم عائلي أو مالي . فأبنائي الأربعة في حالة مرضية ينتقلون من فصل إلى آخر دون عقبات تذكر . وستقوم قريبة حبيبة من الأهل بشؤون البيت أثناء غيابي . ولكني قبل سفري لا بد أن أستعد استعداداً جديـاً لهذا السفر .

وبناء على هذا فقد تابعت دروس الدبلوم في أصول السلالات البشرية ومميزاتها . بمتحف « الجنس البشري في باريس » في سنة ١٩٥٠ . وأنا أعرف جميع المتاحف الأوروبية من هذا النوع . إنها في الغالب غنية جداً ولكن واجهاتها تبدو مليئة بأشياء حية ، أما في قصر شايو فالأمر يختلف ، فالاختيار دقيق ، والعرض ممتاز ويحتفظ بكل القيم البشرية لهذه الشواهد عن حياة غريبة عنا . ولكني مع هـذا أعترف أن هذه الدراسات لم تكن بالنسبة لي في أول الأمر إلاّ مبرراً . فعلم أصول السلالات البشرية ومميزاتها هي الحجة الحديثة للمغامرين ، إذ في أيامنا هذه ، من هو الذي يخرج في رحلة طويلة دون أن يقوم بتحقيق صغير يصف فيه الشعوب المختلفة ، ومظاهرها المادية ونشاطها ؟ إن هذا يشغل حيزاً في حقيبة الرحالـة الحقيقي ، وعندما كانوا يلومونني لهجر اسرتي سنة كاملة كنت أستطيع

الاحتجاج بالفائدة العظمى التي نجنيها من معرفتنا لحياة الحريم ، ولم يجرؤ أحد على الاعتراض خوفاً من أن يتهم بأنه ضد العلم . وقد استسلمت الادارة التي اعمل فيها أمام هذا الباعث المحترم ، ومنحتني سنة كاملة اجازة بدون مرتب .

ولكني سرعان ما تعلقت بهذه الدراسة .

وفي دراستنا لما قبل التاريخ ، ولعلم وظائف الاعضاء وللفنون عموماً . ولفن المقابلة بين اللغات ، كان أساتذتنا لا ينسون دائماً هدفهم . وهو أن يمكنونا من فهم الانسان الحديث بصورة أفضل ، ومن ادراك التطور الذي جعله على ما هو عليه الآن . لقد عرفوا كيف يعلموننا ان نفكر ، وأن نفكر بطريقة أفضل . ولم يكن هناك ما هو أنفع لي ولا ما يهيئني للدخول في عالم يختلف اختلافاً كبيراً عن عالمي من مثل هذه الدروس .. واني لسعيدة ان أسجل جميلهم واعترافي بفضلهم في كتابي هذا .

في هذا الوقت . كنت أبحث عن وظيفة طبيبة في الخارج أو عن بعثة ، وقد فاتتني فرص عديدة ، فقد كانت الاجراءات تسير في البداية على ما يرام ثم لا تلبث ان تقف ، وسبب لي هذا الفشل قلقاً واضطراباً مؤلماً .. لقد كانت السبل تغلق أمامي الواحدة بعد الأخرى حتى سمعت أخيراً عن اليمن .

واخجل ان اعترف اني كنت أجهل كل شيء عن اليمن حتى موقعها لقد تخيلتها بلداً ساحراً جذاباً جديراً بالذكر في كتاب « جغرافية آسيا » التي اختارها مسيو لانير سنة ١٨٨٤ والتي لا تزال تسحرني حتى اليوم كالاوديسيا لهومير .. ولكن اليمن هذه ستبقى حلماً من الاحلام لي ولغيري .. وقد علمت بعدئذ آسفة انني بازاء بلد جبلي في جنوب الجزيرة العربية مقفل الحدود يحكمه ملك ... واعترف ان هذا لم يثر عندي أي رغبة في الذهاب ، ولكني أدركت هذه المرة

اني قد اقتربت من تحقيق ما أصبو إليه .. إن الناس لا يذكرون اليمن إلاّ قليلاً .. وهذا يرجع إلى أنهم لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً ..

ومع ذلك ، فقد كانوا قديماً يطلقون عليها اسماً جميلاً هو « العربية السعيدة » لجبالها الشاهقة التي تصطدم بها سحب المحيط الهندي . وتسقط أمطاراً غزيرة منتظمة تضمن لها الخصوبة والرخاء . وقد نمت فيها قبل ثلاثة آلاف سنة حضارات ومدنيات بمعابدها ومدنها ولغتها وكتابتها ، إنها موطن بلقيس ، ملكة سبأ صديقة الملك سليمان .

ولا تزال العمارات المميزة ، إلى يومنا هذا مشيدة في صنعاء العاصمة على الطراز البابلي القديم .

وتوجد الآثار في مناطق شهيرة ، كانت قديماً تفيض بالترف والحياة ، وستوضح دراستها حلقات من التاريخ ما زالت غامضة مجهولة . ولكن الحفريات غير ممكنة في الوقت الحاضر وسيبقى كل هذا لا يمسّ كما كانت بلاد الاشوريين قبل ديو لافوي .

واليمن الحديثة من البلدان التي يجد الانسان مشقة وعناء في معرفتها. واليمنيون في الغالب من أتباع المذهب الزيدي وتاريخهم ليس إلا صراع طويل بين الائمة المتتابعين على الحكم الذاتي الذي ضاع في أوقات كثيرة ، والذي نالته اليمن نهائياً في سنة ١٩١٧ بعد الانفصال عن تركيا . ومنذ ذلك الوقت احتفظت المملكة اليمنية دائماً بعزلتها الشديدة ، وقد انضمت بكل تأكيد إلى هيئة الامم المتحدة وإلى الجامعة العربية . ولكنها حتى سنة ١٩٥٠ لم تقدم على التمثيل الدبلوماسي الخارجي ، مع أية دولة ، ولم ترسل ممثلاً إلاّ إلى القاهرة .

ويقول الجيولوجيون الذين يعرفون اليمن ان فيها ثروات معدنية

هامة ، وأن من المحتمل وجود البترول في الاقاليم التي تحيط بالصحراء الكبرى . في وسط جنوب الجزيرة العربية . ويبدو أن الامام الحالي لم يفتنه الثراء الفاحش المفاجئ في المملكة العربية السعودية . فهو لا يسمح بالبحث عن المعادن . ويرتاب في بعثات البحث عن الآثار الأجنبية . ويظن ان ما يشغل بالها هو شيء أكثر حداثة من معرفة الامبراطوريات المطمورة في الرمال . فهل يخشى أن يفقد بجانب الفقر . استقلال وطنه وصفاء عقيدته ؟ أو هل يؤمل أنه يوماً ما سيستثمر بمفرده هذه الثروات ؟

مساحة اليمن تساوي ثلث مساحة فرنسا ، ويسكنها نحو خمسة ملايين نفس ، ولا زالت تعيش في ظلام القرون الوسطى . وهي من وجهة النظر السياسية مملكة اقطاعية ، اقتصادها قائم على الزراعة والحرف . واحتياجاتها ، لهذه الاسباب ، قليلة ولا يدخلها إلاّ قليل من المهندسين والاطباء الاجانب ، وهي لهذا ميدان مفيد جداً للباحثين في أصول السلالات البشرية ومميزاتها ، إذ لم يعكرها أي شيء غربي على الاطلاق .

ويكون الفنيون غالباً من الايطاليين ، ولو أن نفوذهم تقلّص بسبب اعتدائهم على أثيوبيا إلا أن طبيبة فرنسية هي الدكتورة سيرن استدعيت في سنة ١٩٤٦ للكشف على احدى الاميرات . ورضي الامام بهذا الاتصال الاول ، فطلب جرّاحاً من فرنسا ، وكان تعيين الكولونيل الطبيب ريبوليه . وبعد سلسلة من الاعمال الناجحة السارة ، جلب بدوره ستة أطباء جدد من فرنسا .

ولكن الحياة في اليمن ، ليست هينة يسيرة فليس هناك أثر للراحة ولا للحرية ، والوسائل المهنية ضئيلة ، والعلاقات مع السلطات المحلية سريعة التأثر وضعيفة وتميل هذه السلطات أحياناً إلى معاملة الاطباء كما

كانوا في أوروبا يعاملون الحلاقين في القرن الخامس عشر . وقد مات أحد أعضاء البعثة الطبية الفرنسية ، وعاد الآخرون إلى فرنسا ساخطين بعد حوادث مزعجة خطيرة . وبعد سنتين الفى الدكتور ريبوليه بنفسه وحيداً في بلد لا يشاركه في العمل فيه سوى أربعة أطباء من الايطاليين ، وقد طلب أطباء آخرين .

وبناء على أقوال من سبقوني ، يكون السفر إلى اليمن بحثاً عن المتاعب . ولكن واحدة فقط من زميلاتي القديمات هي الدكتورة لانسوي كانت تحتفظ لليمن بذكريات طيبة . فهي ترى أن صنعاء مدينة جميلة ، وأن اليمنيين قوم طيبون ، وأن الصعوبات يمكن تذليلها - لا سيما والمهمة عظيمة وتبرر الاقدام على هذه المخاطرة .

لقد بدا لي هذا البلد محققاً تماماً لكل ما أهفو اليه ، فقدمت ترشيحي إلى وزارة الخارجية في يناير سنة ١٩٥٠ .

واليمن ليست غنية ، على الاقل في الوقت الحاضر ، ولهذا فلا يقدم صاحب الجلالة للخبراء الفنيين إلاّ نحو مائة جنيه مصري شهرياً ولا قيمة لما يمكن كسبه من العملاء الخصوصيين ، فهؤلاء لا يقدمون شيئاً .. مائة جنيه ، أي طبيب في وقتنا هذا ، يقنع بهذا القدر ؟ لا بدّ وأن يكون للانسان بجانب هذا معاش عسكري ، أو زوج يتحمل تكاليف العائلة ، أو ان يكون الانسان مجنوناً أو على الاقل باحثاً في السلالات البشرية !

كنتُ الوحيدة ، وقد أخذوا ترشيحي هذه المرة مأخذ الجد ، وحولوا طلبي إلى الجهات المختصة وبعد ستة أشهر تلقى الدكتور ريبوليه الذي كان يقضي اجازته في فرنسا الرد برقياً :

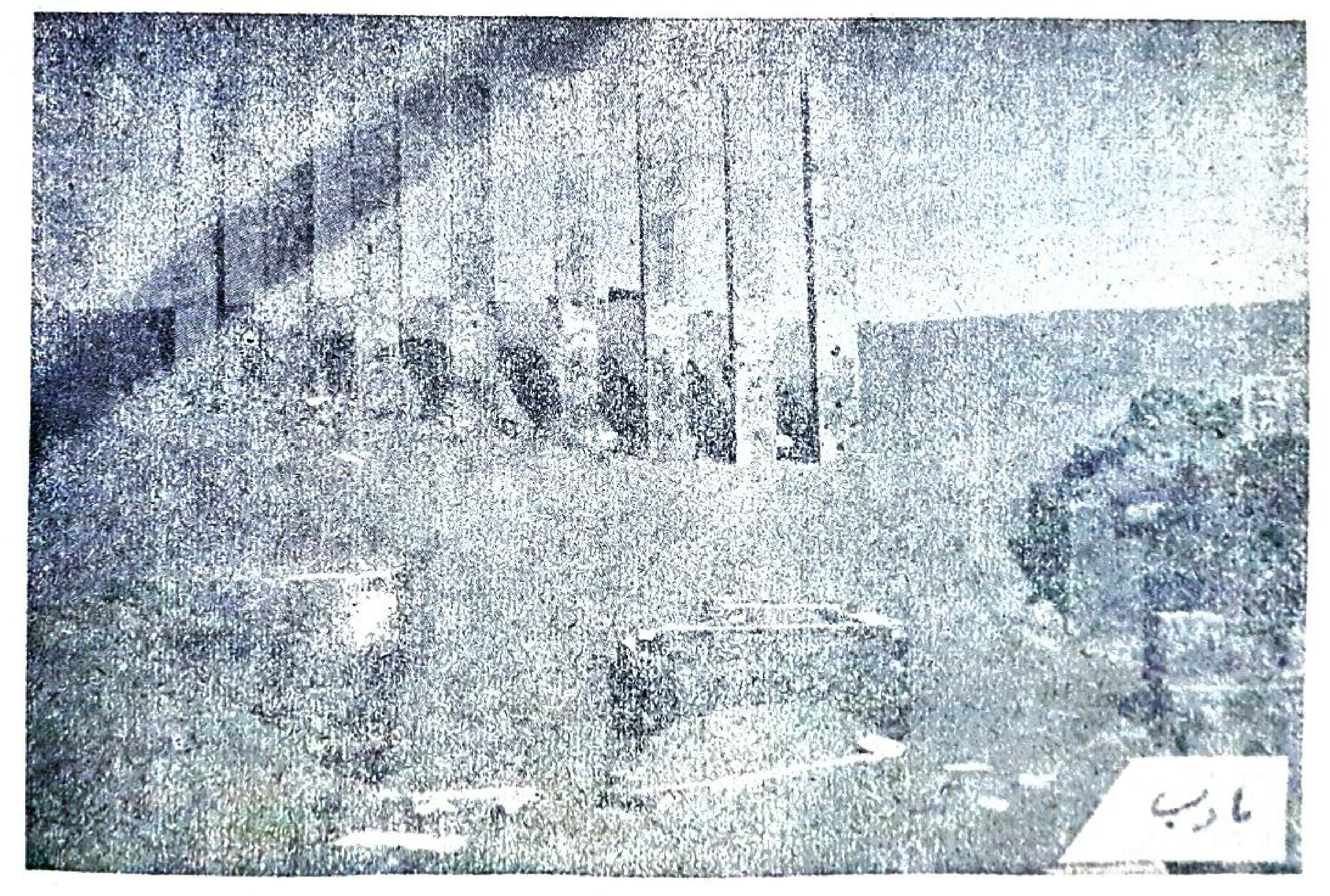
« صاحب الجلالة الامام أحمد ملك اليمن يوافق ويأذن للدكتورة المحترمة فايان بالوصول . »

كان الأمر إذن قد تقرر ، ولكن العقد لا بدّ أن يوقع تحاشيا للمآسي التي واجهتها البعثة السابقة . وقد نجم عن هذا انتظار جديد . وقد قيل لي ان هذا تدريب ممتاز على الاصول الشرقية في التباطؤ والتواني . وقد قضيت الشهور الأخيرة لسنة ١٩٥٠ وأنا اكمل استعدادي : فعنيت بالاختبارات المتعلقة بعلم النفس ، في مصلحة الصحة العقلية بمستشفى أمراض الاطفال ، وبالحصول على دبلوم في طب المناطق الاستوائية ، وفي دراسة اللغة العربية ، وركوب الخيل إذ انني كنت أعلم انني سأستعمل الحصان في تنقلاتي . وفي شهر ديسمبر كنت على اهبة الاستعداد ولكن العقد حتى الآن لم يصل . ودون أن أطيل الانتظار سافرت في يناير سنة ١٩٥١ .

أما رحلتي فسأتحدّث عنها فيما بعد ، وعلى كل حال فقد كانت على غير ما توقعت بسبب تراكم العمل عليّ ونقص الادوية . وقد بقيت وحيدة بعد موت الدكتور ريبوليه . وقدم الاطباء الأماكن الشاغرة للايطاليين فاحتلوها .

وانتهت اجازتي بعد سنة ونصف فعدت إلى بلادي . وذات يوم كنت في المترو أسبح بأحلامي في اليمن ، فقد تلقيت في الصباح رسالة من صنعاء من الطبيب الايطالي الذي خلفني في عملي ، قال فيها : « إن الأمر يزداد سوءاً منذ سفرك ... إن وباء التيفوئيد منتشر . ولا وجود للادوية ... لا شيء ... لا شيء ... لا شيء ...!! » لقد رأيته في الخيال أثناء زيارته للمستشفى وهو يمر كما كنت أفعل أنا ، في هدوء أمام سرر المرضى دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً .. هل أرسل له علاجات ، ان الانتيبيوتيك غالي الثمن ونحن لسنا مع ذلك في الزمن الذي كانوا يجمعون فيه الصدقات « لانقاذ الصينيين الصغار ! »

وللمرة الثانية ، يضع القدر في طريقي مجلة صباي ، لقد تعرفت عليها في واجهة بائع الصحف واشتريتها معترفة بجميلها . ألم تسقي



مأرب بعض آثار سدها المشهور

إلى اليمن من أغوار حديقتي القديمة ؟ أجل .. إلى اليمن – بل وإلى مأرب ، عاصمة مملكة سبأ المحرمة الممنوعة على الاجانب على مر الايام ...

وعلى الصفحة الأخيرة قرأت إعلاناً عن مسابقة موضوعها تحقيق صحفي جائزته خمسين جنيهاً .

ومن أجل مرضاي القدماء ، ومن أجل اليمن التي منحتني الكثير ، كتبت زيارتي لمأرب ، وكان ذلك هو الخطوة الأولى في هذا الكتاب ، ومرت أسابيع ونلت الجائزة ، وظهر بعيري الذي يجر طاحونة الزيت على غلاف مجلة « علوم ورحلات » بدوره ، وكلما مررت بأكشاك الصحف بحثت عنه عيناي ... إن الامر لم يكن مجرد حلم .

وعادت حياتي الرتيبة إلى اضطرابها . ولكن الأخرى قد كانت أيضاً حقيقة .

الفصل الأول

من عدن الى صنعاء

القاهرة ، جدة ، أسمرة . ثم كمران ، وقد نزلت بنا الطائرة بعد الظهر في هذه الجزيرة الصغيرة ، الواقعة في البحر الاحمر بمحاذاة السواحل اليمنية ، وهي مساحة جرداء قاحلة فيها مطار لتمويـن الطائرات ، وامام حظائر الطائرات ترتفع مسلة لتحية عشرات الألوف من المسافرين الذين يمرون من هنا كل سنة . ترى ما هي الذكريات التي تعلقت بأذهانهم عن هذا المكان ؟ أما أنا فأني لن أنسى الخوذة الاستعمارية التي كانت موضوعة على المائدة في غرفة الانتظار وهذه أول مرة أرى فيها هذه الخوذة في غير المحلات التجارية التي تبيع حاجيات المكتشفين ، ولا أجانب الحقيقة إذا قلت انني لم أر مثيلاً لها فيما بعد ، فالموظفون الانكليز في عدن رياضيون ولا يضعون شيئاً على رؤوسهم .

وقد تركتنا هنا السيدة المسلمة التي ركبت معنا من القاهرة ، لقد كانت عبارة عن شكل مخروطي غامض من القماش الأبيض ، تبدو عيناها من ثنايا فتحة ضيقة ، ولم يكن صوتها إلا وشوشة ، ومن ثنايا ردائها تبرز يد أو بالأحرى اصبعان تقدمان أوراقها إلى موظفي

الجمارك . وما ان انتهت حتى اختفت . ولكن ثلاثة من المسافرين كانوا ينتظروننا في كمران ، لينتقلوا معنا إلى عدن . كانوا مضطربين عصبيين ومهلهلي الثياب . ويبدو انهم قد خرجوا من مغامرة مريرة ، وتعارفنا في الحال ، لأنهم عائدون من اليمن ، وكانت فرصة نادرة أتاحت لي أن أسمع أحدث أخبار اليمن قبل وصولي .

من النادر الدخول إلى اليمن أو الخروج منها عن غير طريق عدن ، والخطوط الجوية المنتظمة كلها لا تمر باليمن . ورغم ان في مدن اليمن الرئيسية الثلاث : صنعاء والحديدة وتعز ، مطارات صالحة لنزول الطائرات فانها لا تستعملها إلا طائرات الأمام لأنها محرومة من المؤسسات اللاسلكية التي تفرضها اللوائح الدولية . وصاحب الجلالة لا يرى أية فائدة في اعداد هذه المطارات بلوازمها . أما في البحر فان الحديدة تستقبل كل شهرين باخرة مصرية تعمل بين موانئ البحر الاحمر وسفينتين يمنيتين هما « صنعاء » و « مأرب » يصلان الحديدة بعدن . ولكن هذا الاتصال غير منتظم ، والطريق المعتادة هي تلك التي تصل عدن بتعز وتقطع في يوم كامل . أما من تعز فان وسيلة المواصلات اللازمة لمواصلة الرحلة تتوقف على أوامر صاحب الجلالة .

هؤلاء المسافرون الجدد تجار انكليز في عدن ، حصلوا بعد مراجعات كثيرة على تصريح بالقيام ببعض الاعمال في اليمن ، وبناء على هذا ذهبوا إلى تعز قبل ثلاثة أسابيع ، وما ان وصلوا تعز حتى فوجئوا بخبر مزعج هو ان الامام قد اجريت له عملية جراحية كانت كافية لشل كل نشاط وكل حركة في البلاد ..! وعجزوا عن الحصول على أي اتفاق أو جواب على مقترحاتهم . فالامام إذا توعك فان أحداً لا يستطيع أن يعمل شيئاً . ضاقوا وسئموا الانتظار وأرادوا أن يعودوا إلى عدن . ولكن حتى هذا لم يعد في استطاعتهم إذ لا يوجد من يصدر

لهم الأوامر بالسفر ، وأخيراً عثروا على ثلاثة مقاعد في عربة نقل مسافرة إلى الحديدة وسافروا ثلاثة أيام حتى وصلوها . ومن هناك استأجروا قارباً نقلهم إلى كمران حيث انتظرونا منذ الأمس . وانتقالهم بالطائرة إلى عدن يعيدهم إلى الحضارة . وقد تركت فيهم هذه المغامرة الطائشة انطباعات كئيبة ومثبطة ... فوضى واهمال وخداع ، كل هذا كان متداولاً دارجاً . وقد ذكروا أمثلة على هذا ، فمثلاً الطيارون السويديون الذين يقودون طائرات الامام احتلوا طائراتهم ، ومكثوا فيها مضربين حتى يتسلموا مرتبهم للشهر الاخير ، وامام نجاح هذا الاضراب حاول موظف يمني تأخر مرتبه كثيراً أن يتوقف عن العمل ، ولكنه بقي في بيته حبيساً ومعه أسرته أياماً عديدة دون أن يهتم به أحد !! وأنا كيف يكون موقفي في بلد كهذا ؟ وسأبقى فيه سنة كاملة ؟ لم أجد جواباً على تساؤلي إلا نظرات الاشفاق الصامتة وبكل يقين لا بدّ أن تكون لدي أسباب شخصية تقهرني وتخضعني لكل هذا .

كنت أعرف أن الامام قد أجريت له عملية جراحية قام بها الدكتور ريبوليه قبل عدة سنوات ، ولكنه هذه المرة استدعى جراحاً إيطالياً من أسمرة . وكنتُ أعلم بالتنافس الشديد بين الاطباء الفرنسيين والايطاليين ويؤسفني أن الرضاء الملكي قد وقع على المعسكر الآخر .. وقد كان هذا الخبر من الاخبار المثبطة التي رواها المسافرون الانكليز ، ولكني توقفت عن التفكير في هذا عندما تركت الطائرة البحر الأحمر وحلّقتْ فوق الأراضي اليمنية .

تهامة ، هي السهل الساحلي المطل على البحر الأحمر ، على طول الجزيرة العربية ، وكانت تبدو تحتنا سهلاً ، اجرد ، أصفر اللون ، ولكنه في الجنوب أرحم منه في الشمال عند السواحل السعودية . وكثيراً ما يرى الانسان مناطق زراعية ، وهي حقول تختلف عن حقولنا بحدودها غير

المستقيمة الخطوط ، أما الاشجار والطرق فلا أثر لها وتظهر بعض البيوت المعزولة . بل ان مدينة تبدو من الجو وقد تجمعت بيوتها داخل أسوارها وبانت شوارعها الضيقة المتعرجة ، وليست تهامة واسعة، فعرضها بين ثلاثين إلى خمسين كيلومتراً تقريباً . ولهذا فقد الفينا أنفسنا بسرعة فوق جبال اليمن الوسطى .

لم نجد اختلافاً كبيراً ، بين هذه الجبال ومرتفعات الحبشة في اسمرة وضواحيها في الجانب الآخر للبحر الأحمر فهي مرتفعات داكنة تنبت فيها أشجار فاتحة الالوان ، وتقطعها وديان يتبين الانسان فيها ممرات رملية صفراء حفرتها السيول تسير بين الحقول الزراعية المنتشرة ثم تصبح هذه المرتفعات أكثر وضوحاً . وأمام هذا المنظر الرائع الفتان نسيت كل همومي .

وكان الوقت بعد الساعة الخامسة ، وفي جو هادئ كان غروب الشمس يسبغ على المنظر نوراً ضعيفاً ذهبياً صافياً ، وكانت طائرتنا تسير فوق وديان تحيط بها الجبال وعلى المنحدرات يشهد الانسان المدرجات الزراعية الخاصة بجبال جنوب الجزيرة العربية ، ففي قمم الجبال مساحات ضيقة أفقية الانحدار ، وتحتها مدرجات أكثر اتساعاً ، وقد استطعت أن أحصي أكثر من خمسة عشر مدرجاً بعضها فوق بعض تمتد أفقياً في مساحات واسعة وكانت الالوان متنوعة فهي سمراء أو خضراء تبعاً لما إذا كانت انشئت حديثاً أم قد مضى عليها وقت طويل ، وتبعاً لنوع الزراعة وعمرها ، إذ أن ذلك كله ليس من عمل الطبيعة بل انه نتيجة جهود قديمة ، وبهذه الطريقة حافظ اليمنيون الجبليون على أراضيهم فوق مرتفعات تهطل عليها أمطار عنيفة ، وعرفوا كيف يسقونها بانتظام من الخزانات والقنوات واذا تنقل الانسان في أراضي اليمن في أعماق الوديان فانه يشهد على الخصوص الحواجز القائمة الصخرية لهذه المدرجات ويبدو له المنظر قاحلاً مجدباً ولكني من الجو

تمكنت من تقدير المساحة المزروعة ، وأدركت ان هذا البلد جدير بهذه التسمية « اليمن الخضراء » .

ان المدرجات الزراعية الخضراء تلتف حول قمم الجبال وذراها كخطوط محيط بخارطة ضخمة ، وتتعلق البيوت هنا وهناك في الجبال منفردة ومجتمعة ومكونة قرى صغيرة في أوضاع بهلوانية ويكشف ضوء الغروب المتكسر أدق التفاصيل ، ويحدد هذه المعالم العجيبة .

لم أكن أحلم بأعظم وأجمل استقبال من ان أشهد هذا المنظر الرائع للعربية السعيدة ، وسأظل أفكر في هذا كثيراً .

كانت عدن معروفة عندي لوفرة ما قرأت عنها . وبفضل بطاقة الوظيفة وعلى نفقة الحكومة اليمنية نزلت في أفخم فنادق المدينة ، وقد جاءت لي سيارة من تعز ولكن اقتصاداً أو توفيراً لا بد من الانتظار حتى يأتي مسافر آخر ، ولهذا فقد بقيت أكثر من عشرة أيام في هذا القصر الفاخر الذي يكثر فيه الخدم الصامتون ، وكان علي ان أقوم ببعض الاعمال وأولها تحية السيد البس « ملك البحر الاحمر » .

وانتونان بس الذي مات في السنة التالية تاجر فرنسي أقام منذ خمسين عاماً في عدن ، وبهمته وذكائه وحظه ظفر بامبراطورية اقتصادية حقيقية في البحر الاحمر وعلى المحيط الهندي ، وأساطير البس يتناقلها الناس في عدن ولا يفرغون منها وهذه واحدة منها :

أثناء حرب أندونيسيا قبل سنوات قليلة كان في سومطرة ثمانية آلاف طن سكر معروضة للبيع بثمن منخفض جداً وعلى الفور ، ولكن تسليم الشحنة يتم في سومطرة ، ولم تقبل البواخر نقلها لأن شركات التأمين رفضت قبول تأمين النقل .

ومن هونغ كونغ تلقى البس برقية تعرض عليه مركباً صينياً مشكوكاً فيه ويطلب ان يتسلم أجره مقدماً ، وظل ثلاثة أشهر لا يدري عن الموضوع شيئاً . وكان يظن ان السكر قد أخذه اليابانيون أو استحوذت

عليه الشياطين . وذات يوم جميل رأوا مركباً قديماً غريباً يدخل الميناء بدون أوراق وبدون دهان ، وبحارته مجموعة من القراصنة ، مركباً لا يرى الناس له مثيلاً في وقتنا الحاضر .. لقد كان هو المركب الصيني وعليه السكر ! وأفرغت شحنته في المساء ولم ينقض الليل حتى كان قد اختفى .. وحقق البس في هذه الصفقة أرباحاً خيالية .

ويمتد نفوذ مسيو بس الى اليمن نفسها ، فميناء الحديدة غير صالح لاستقبال السفن الكبيرة أو المتوسطة وتجارة اليمن لهذا تأتي عن طريق عدن ويحتكر البس شراء الجلود والبن وبيع البنزين والحاجيات المصنوعة ولعل حماية رجل كهذا يكون لها أهميتها اذا حدثت لي مشاكل في اليمن ، ويذكر أعضاء البعثة الطبية الفرنسية الاولى مساعدة البس بالتقدير ، فقد أنقذهم من وضعهم السيء ، ويبدو ان أمور البس لا تسير على ما يرام في السنوات الاخيرة ، فقد قررت اليمن ، بتفكيرها في تحسين ميناء الحديدة ، ان تلوح برقابة لم يسبق التفكير فيها حتى ذلك الوقت .

وقد قدم البس منذ وقت قصير مائة الف جنيه منحة لاحدى جامعات انجلترا ، وفي ثلاثة أشهر كان كسبه كما يقول الناس هنا نصف مليون جنيه .. وهو مريض وشديد الصلابة ويعيش في عزلة تامة ومتعته الوحيدة هي الخروج كل مساء الى ما وراء المدينة ولعب الكرة في طريق منزو مع صديقه الطبيب العسكري الفرنسي .

وهو يقيم في كريتر ، المدينة القديمة التي تشويها الشمس ، والواقعة في تجويف بركان منطفيء ، في بيت كبير ، في أسفله المكاتب ، أما مقصورته الخاصة ففي الدور العلوي . وعندما دخلت عليه ، وجدته مستلقياً في حجرته ، وقد بدا طاعناً في السن تحيط بوجهه المورد لحية قصيرة بيضاء .

وبحنو الاب دعاني للجلوس على حافة سريره ، وسألني أين أنزل ، ولما قلت له في أوتيل كريسنت ابتسم وقال « انه فندقي » .

عرضت عليه ما انا مُتقدمة عليه، وأخبرته انني قد أحتاج الى عونه ومساعدته ولكنه كان متشائماً جداً ، فقال لي : « لو كنت ابنتي لمنعتك من السفر ولو كنت صديقتي لتوسلت اليك ان تعدلي عنه ، ولكنك لست ابنتي ولا صديقتي ، ولهذا فاكتفي بهذه النصيحة البسيطة ، لا تسافري . ستندمين اذا فعلت ». لم أكن اصدق أذني ، هذه العبارة الصغيرة الموزونة، اني أعرفها جيداً لقد قرأت مثل هذا الكلام في الكتاب المخطوط للدكتور « ب » أحد أطباء البعثة الفرنسية الاولى التي جاءت قبل ثلاث سنوات لزيارة البس قبل سفرها .

يا لها من ذاكرة ، انه يردد لي نفس الكلمات التي قالها للبعثة الأولى .

ان اليمنيين ليسوا في نظره الا مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق، واني سألقي بنفسي بين فكي الذئب . ولكنه مع هذا سيهب لنجدتي ولن يدعني وحيدة . وشكرته ، ولكني لم أزدد الا تصميماً على الذهاب لرؤية هؤلاء « اللصوص » .. الذين تجاسروا ورفضوا أن يقدموا متوجهم من البن لمسيو البس !!

وقد استقبلت في عدن استقبالاً حافلاً في بيوت الاوروبيين الجميلة وعلى موائدهم السخية ومآدبهم الدسمة . ولكن اليمن هنا تبدو أقل جاذبية وخيالاً . أما في باريس فان صحيفة مسائية كبرى كانت قد نشرت يوم سفري مقالاً جاء فيه : « اكتشافات فرنسي هارب من سجون اليمن، الاجنبي الذي حاول اكتشاف اسرار العصور الاولى في بلاد سبأ يتعرض للموت، عظام رجل طوله متران وثمانون سنتيمتراً ، حيوانات منحوتة من الذهب ، أسوار مأرب الشامخة وبرج بابل الذي سمي باب المندب باسمه ! .. » كل هذا قد كلف المؤلف كما يبدو مائة طعنة خنجر . ويجب الاعتراف ان الانسان اذا سافر الى بلد كهذا أو عاد منه فانه يصبح شخصاً ما . أما في عدن فان اليمن ليست الا بلداً لا يفسح مجالاً للكسب فهي لهذا غير مهمة ، وكان في عدن « الحزب اليمني التقدمي » الذي قضى على

الامام يحيى في سنة ١٩٤٨ لأنه شديد المحافظة ، ولكنهم فشلوا عندما استعاد ابنه أحمد العرش بمعاونة القبائل . وقد أعدم إمام الثورة [١] ، أما رئيس [٢] الحركة في عدن فقد قتل بالسم .

ويتمتع الامير أحمد هنا بنفوذ كبير منذ زيارته التي قام بها قبل عدة سنوات للحاكم الانجليزي . ولا ينسى العرب ان عدن كانت خاضعة لحاكم يمني قبل الغزو البريطاني في سنة ١٨٣٩ . وقد استقبل الشعب الامير أحمد كامام له وكان الناس يتوافدون الى مقره يطلبون حكمه في خصوماتهم وكان يقضي بينهم ويأمر بجلد المذنبين الذين يقبلون ذلك مختارين . وكان من الطبيعي الا تطول الزيارة ولكن الاحتمال كان ضعيفاً في ان هذا الامام الجديد سيفتح مملكته يوماً ما للمؤسسات الصناعية والتجارية الخاصة بمساعدة البلدان المتخلفة . وتلاحظ الاهمية المتزايدة لمكتب اليمن في عدن الذي يديره رجل يحوز ثقة الامام هو الجبلي وهو الذي كان علي أن أقوم بزيارته .

والجبلي شخصية نافعة للاوروبيين في اليمن . فالعملة المحلية هي ريال ماريا تريزا ، وهو قطعة ضخمة من الفضة تضرب في دار سك نقود نمساوية من القرن الثامن عشر ، وتحمل صورة جانبية لوجه الامبراطورة عارية العنق ، وليس في داخل اليمن أي بنك ، وكان بنك الهند الصينية الفرنسي قد حصل على تصريح من صاحب الجلالة بفتح فرع له في الحديدة . وكان ذلك فشلاً ذريعاً للبنك الاهلي الهندي الذي يتمتع بنفوذ كبير في عدن ، ولكن هذا الفرع راح ضحية المكائد والدسائس المعقدة فقفل أبوابه سريعاً . والريال لا يصرف الا في عدن وسعره يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٥٠ فرنكاً طبقاً لحجم ومجرى التجارة . وتزن الالف ريال ثمانية وعشرين كيلوجراماً . وعندما يأتي الجبلي الى عدن ومعه سيارة

---

١ – السيد عبدالله الوزير .

٢ – سيف الحق ابرهيم .

عملة بالدراهم للقيام بشراء حاجيات الحكومة اليمنية تنخفض أسعار الفضة في الثلاثة الاشهر التالية . والذين يعملون في اليمن يرسلون ما يدخرونه من مرتباتهم الى عدن . وهناك يقوم الجبلي بصرفها في أنسب فرصة ،ويضعها في أنسب فرصة ، في البنك الهندي . وبناء على رأي الناس فيما عدا البس ، فقد وثقت فيه ثقة مطلقة فهو أمين وتاجر ماهر .

ومكتبه في كريتر بالقرب من بيت البس — وعند زيارتي له تذكرت لقائي مع أول يمني وكان وزير اليمن في مصر الذي رأيته أثناء مروري بالقاهرة . لقد كان رجلاً مهذباً ذكياً . استقبلني بشيء من التحفظ . وكان يرتدي حلة يبدو فيها الثراء والبساطة في آن واحد — فهي من الجوخ الاسود المشبوك يزينها صف من الازرار الذهبية الانيقة ولا يشبك أعلاها ، واكمامها عريضة تحتها قميص أبيض يخفي اليدين ، أما الحزام فتزينه الآيات القرآنية — ويثبت فيه خنجر معقوف في غمد من الفضة، وعلى رأسه عمامة بيضاء تلتف حول طاقية جزؤها الاعلى الظاهر مزخرف كالحزام ، وعلى كتفيه شال أزرق اللون زينت أطرافه بخيوط الذهب وكان الوزير يتكلم بصوت خفيض بسيط هادىء وأصابعه تتلاعب بحبات السبحة — وكان اسم الله يتردد على لسانه بصورة طبيعية جداً في كل عبارة يقولها ، نبل هادىء ، ثراء ، عقيدة ، او توافر كل هذا لاحد عندنا فانه سيكون بلا شك واحداً من رجال الكنيسة ، أما هنا فلا شيء من ذلك . ان هذه الشخصية المسلمة الكبيرة باقية مع ذلك مع البشر حاضرة على الارض . انه شيء جديد تماماً عندي .

أما الجبلي فكان على النقيض من ذلك ، لقد استقبلني في حجرة مظلمة ضيقة يصل اليها الانسان عن طريق ردهة مزدحمة بخزانات الاوراق والمكاتب والآلات الكاتبة ويفاجأ الانسان بنارجيلة كبيرة في احدى الزوايا . كان الجبلي يرتدي جلباباً واسعاً وتغطي رأسه الحليق طاقية خفيفة بيضاء ، أما عندما يرتدي البدلة الاوروبية فان شيئاً لا يميزه عن رجل الاعمال الغربي

وكانت نظراته قوية ومدققة ويعرف كيف يتفهم ويتخذ القرارات بسرعة . وقد تفحصني بدون رفق . ولكني قد عرفت هذه النظرات . نظرات الرجال الذين يعرفون جيداً أعمالهم والذين يشكون من حيث المبدأ في ان المرأة قد تستطيع ان تقوم بعمل هام . والشكوك هنا أكثر عمقاً اذ اني الآن أمام رجل مسلم . وقد لاحظ رد فعل كلامه الذي نقله لي المترجم فأردف قائلاً :

« أما في اليمن فانك ستكونين مطمئنة كل الاطمئنان ، لن يلتفت أحد اليك وعندما تمرين في الشوارع سيدير الرجال أنظارهم الى الجانب الآخر آه . ليس الأمر كما في باريس . »

واستمر الحديث بينه وبين المترجم ، وكان حاداً ، ولم أكن في حاجة الى الترجمة حتى أدرك ما يقولان . ان للباريسيات هنا كما في كل مكان شهرة ذائعة . وقد حذروني ان اليمن تتطلب استقامة وصرامة في السلوك ، لم يبق أمامي الا أن أحافظ على وقاري ومقامي . وان أقسم وأعاهد نفسي على ان أحصل يوماً ما على نظرة تقدير صادقة من هذا الرجل — وقد حزتها فعلاً .

ولكني حتى الآن لم أحصل على العقد ، لقد انتظرت طويلاً في باريس وتوقعت ان نبرمه في القاهرة ، أو في عدن ولكن الجبلي يتهرب ويرفض ان يتعهد بشيء بحجة انه لم يتلق أمراً بذلك .

ولو لم ألتق بغير الجبلي من اليمنيين فلعلي كنت أتردد أن ألقي بنفسي في المجهول دون اي ضمان .

ويفد من الجبال كثير من اليمنيين الى عدن للعمل والكسب ، وسواء كانوا أصحاب دكاكين أو خدماً أو عمالاً فانهم معروفون بالذكاء والنشاط ، وبالسذاجة ولا سيما عند وصولهم ، ويقدر منهم رجال الأعمال هذه «الروح الطيبة » وهم لا يفكرون الا في ارسال ما يكسبونه الى عائلاتهم واذا تقدمت بهم السن عادوا الى بيوتهم .

وكان جميع الخدم في اوتيل كريسنت من اليمنيين ، وذات يوم تبعني عامل المصعد المؤدب ، وأوصلني الى غرفتي وانفرجت أساريره عندما عرف اني ذاهبة الى صنعاء حيث تعيش زوجته وابنته الصغيرة التي عالجتها الدكتورة لانسوي قبل سنوات قليلة ، واستطعت ان أفهم من عباراته المبهمة امتنانه واعترافه بالجميل . كما أدركت انه يوصيني بطفلته أثناء اقامتي في صنعاء .

وأعطيت عنواني : مكتب الجبلي ، في اليوم التالي لسائق سيارة الاجرة . فتحول عدم اكتراثه الى اهتمام شديد وكان حماسه أشد عندما قلت له انني طبيبة ذاهبة للعمل في اليمن .. ولم يكن قد نسي الدكتور ريبوليه الذي عالجه في الماضي ..وعندما خرجت وجدته في انتظاري خارج بيت الجبلي . وقد قدم لي خدمة قيمة دون ان يقبل مني بقشيشاً .

وكنت كثيراً ما أتناول طعامي في بيت الطبيب صديق البس ، وكان طباخه اليمني يرهقه بالاستفسارات عني وعن مهمتي في اليمن . وكان هذا الطباخ يحيطني على المائدة باهتمامه وعنايته . ولا يرفع عني نظراته الودية الصريحة التي لا لؤم فيها ولا ذل وكنت أقرأ فيها «اعملي لبلادي كل ما في وسعك» .

عامل المصعد ، السائق ، الطباخ ، ان نظراتهم البسيطة لا تخدع أبداً .. لقد كانت حديثاً عاطفياً ولكنه طيب كريم دون شك . وقد جاء في الوقت المناسب مؤيداً للكلمات المشجعة التي سمعتها من الدكتور ريبوليه ومن الدكتورة لانسوي ..

ان هؤلاء جميعاً هم الذين أكدوا قراري وتصميمي ولم أندم مطلقاً ان وضعت ثقتي فيهم .

الفصل الثاني

من عدن الى تعز

الحدود اليمنية- الجمارك-مناظر الجبال- ضريح الولي قاطع الطريق-الوصول الى تعز -باقة بخور .

كان زميلي في السفر قلقاً وهو ينظر الى سيارة الجيب القديمة التي ستقلنا الى تعز . ولكن السائق ومساعده واثقان من سيارتهما .وقد زخرفوا غطاءها ووضعوا في مقدمتها ريشة النعام الحمراء . ولم يبق أمامنا الا ان نسير وسوف نصل تعز ليلاً اذا نحن خرجنا من عدن مبكرين .

وكان رفيقي في هذه الرحلة فلسطينياً مسلماً لجأ الى اليمن أيام حرب فلسطين هو السيد طلعت يعقوب الخصين ، والسيد طلعت حسين شاب في الثلاثين من عمره ، يدير مصلحة الصحافة والاستعلامات لحكومة اليمن وهو عائد الآن من رحلة طويلة الى لندن وباريس ونيويورك مع وفد اليمن في الامم المتحدة . أما عمله المعتاد في تعز فهو تقديم تقارير عن الصحافة العالمية الى الامام ، وتحرير الصحيفة اليمنية الاسبوعية « النصر » وكان يتكلم الفرنسية وكان حديثه ممتعاً ولكنه حزين كئيب لانه ترك خطيبته الشابة في القاهرة ولن يتزوجا الا بعد شهور . وكان الحديث بيننا زاخراً بالأمل والاستسلام — كل هذا ونحن يقظان ساهران على علبة

صغيرة ثمينة كان ينبغي ان تبقى في الظل ففيها مصل بوجومولتز [1] الحقيقي ، هدية شخصية من ستالين الى ملك اليمن عن طريق السفارة الروسية بالقاهرة وكانت النتيجة ان المتقدمين في السن وخاصة الاغنياء منهم كانوا يطلبون مني نفس المصل المصنوع في روسيا السوفييتية ، وكان الناس يبحثون عنه رغم ارتفاع ثمنه الذي وصل الى ثلاثين جنيهاً للخمس عشرة زجاجة ، وهذه وسيلة غير متوقعة لتغلغل النفوذ السوفييتي في بلاد المسلمين .ولها أهميتها ولا سيما اذا راعينا حرص المسلمين الذين يصلون الى سن متقدمة وصحتهم طيبة على التمتع لمدة طويلة بشيخوخة قوية بقدر الامكان.

وبعد مغادرة عدن ، وقبل الوصول الى الجبال ، تخترق الطريق أرضاً سهلية صخرية قاحلة والشيخ عثمان حي مجاور لعدن وليست له أهميـــة تذكر ، غير ان الاوروبيين العزاب الذين يعملون في عدن يعرفونه جيداً . فالحياة هناك ليست ممتعة . وبعد اقامة طويلة فيها ، اذا احسوا بالحرمان من الجنس اللطيف فان انجلترا العفيفة لم تتح لهم ما يطلبون في عدن ؛ ولكن الشخص يجد في الشيخ عثمان ما يريد في بيوت مجهزة .. والمسألة كلها بضعة كيلومترات .

بعد الشيخ عثمان – تخترق بنا الطريق ارض سلطنة لحج وقد كان لسلطان لحج نفوذ كبير وكانت عدن خاضعة له حتى ١٨٣٩ ، وهـــو الآن تحت حماية الانجليز الذين تربطه بهم مصالح اقتصادية والرسوم الجمركية على البضائع المنقولة بين اليمن وعدن هي المصدر الرئيسي لمدخل السلطان ولهذا فان تحسين ميناء الحديدة سيغير طريق التجارة ويقلل دخل السلطان . توقفنا في الجمرك لاتمام الاجراءات الضرورية وقد تولاها زميلي لحسن الحظ ، وخلف مكتب موظف الجمرك لصقوا اعلاناً عن الدراجات ومختلف أجزائها – ولكنه لم يلاق نجاحاً كما يبدو فلا زالت شوارع المدينة خالية منها .

١–يستعمل هذا العلاج لتقوية الناحية الجنسية .

وتمر الطريق بجوار قصر السلطان الذي تبرز قبابه البيضاء بين أشجار النخيل ولم يكن لدينا فسحة من الوقت لزيارته وعلى كل حال فقد كان الدخول عسيراً لأن حياة العائلة مضطربة والسلطان يعتقل في القصر ابن عمه بتهمة محاولة ازاحته عن العرش . وابن العم يتهم السلطان بالجنون ويشاطره في هذا الرأي جمع من مواطنيه وقد اشتدت المعركة بينهما في العام التالي في شهر ابريل سنة ١٩٥٢ .

ففي احدى الليالي زادت وساوس السلطان ومخاوفه فاستدعى ابن عمه للمثول أمامه وأمر الحرس باعدامه ولكن الحرس رفضوا فصوب السلطان الرشاش اليهم وقتلهم جميعاً .

وبعثت بريطانيا في الحال لجنة تحقيق من عشرين شخصاً مسلحين ولكن السلطان لم يكن مجنوناً جنوناً كاملاً فقد انسحب فوراً الى اليمن وسحب معه جثث قتلاه ولم يصل التحقيق الى نتيجة لأن موضوع الجريمة لم يكن متوافراً ... وعادت الأمور الى مجراها الطبيعي .

ومن لحج لم يكن الطريق مباشراً الى اليمن اذ كان علينا أن ندور الى الشرق حول مرتفعات جبلية ، وهكذا أصبح المنظر أكثر خشونة والطريق أشد صعوبة وكانت سيارة الجيب ترفعنا الى السقف وتهبط بنا . فهل ستحتمل السيارة الى النهاية ؟ وعند الظهيرة وصلنا حدود المملكة اليمنية فوقفت بنا السيارة في ساحة الجمرك وتناولنا الغداء .

كان الجمرك ساحة مربعة محاطة بطابق واحد مبني بالصخور الرمادية كلون الجبال المجاورة وفي جانب منه عربة نقل مصبوغة باللون الاخضر والاصفر والاحمر على طريقة هذه البلاد . وفي جانب آخر يقوم ميزان الجمرك انه مكون من جذعي شجرة ارتفاع كل منهما متران . ومشقوقان من أعلى ومثبت اليهما عود أفقي ويتدلى في وسطه ذراع الميزان ، ومعلق في كل طرف سلسلة تنتهي بكفة تتسع لعجل صغير . كم كنت أتمنى أن أرى هذه الآلة البسيطة القوية وهي تؤدي وظيفتها . ولكنهم قد

انتهوا من وزن ما تحمله السيارة .

كان ضابط الجمرك الذي استقبلنا مزهواً بحلته الكاكي وغطاء الرأس المصنوع من فرو استراخان وكان الجمهور الذي تجمع حولنا خليطاً من الرجال والاطفال في ألوان متعددة . ورغم ان اليمنيين قصار القامة فانهم وسيمون في الغالب ، وهم من الجنس العربي البحت فيما عدا اقليم الحديدة ، وملامحهم منتظمة وجميلة ولحاهم قصيرة تكسو الوجه دون ان تغطيه . ومما يلفت اليهم الانظار ان عيونهم دائماً مخضبة بالكحل وفي طرف كل جفن خط أزرق خفيق يطيل زاوية العين وقد يمتد الى الخد أو الى تجويف العين أحياناً أما عيونهم فسوداء قوية ومسرحية. ولكن هذا ليس مجرد حب الزينة بل المعتقد ان الكحل يقي العيون من الرمد . ويتعود الانسان اخيراً ان يرى أكثر الناس وقاراً وهدوءاً في هذا المكياج البربري الغامض.

أما عن ملابسهم فمن الصعب اعطاء فكرة عن تعدد غطاء الرأس في اليمن ، فلا صلة له بالحمار السعودي البسيط الذي يعاب عليه انه يقصر الوجه ، ولا بالعمة الهندية ، المكورة البيضاء السائدة في عدن . ان العمامة هنا يمكن ان تكون حمراء أو خضراء ، زرقاء أو صفراء ، بسيطة أو مطبوعة أو مطرزة ، مائلة على العين أو على العنق أو على الجانب ، يتدلى هدبها على الكتف أو يثبت بالريش أو الاوراق أو الزهور .

ولكنها دائماً ملائمة لحاملها متمشية في ذوق مع اللون والقماش حتى عند الفقراء والمعدمين . وصل الى الجمرك رجل عجوز هزيل ، لم يكن يرتدي عمامة على جسمه غير ثوب رمادي هزيل لفه حول خصره وقطعة أخرى حول كتفيه وبحركة بسيطة رفعها على رأسه واذا بها في لحظة جميلة وأنيقة .

والشيء الثابت في الثياب اليمنية والطابع المميز هو « الجنبيه » أو الخنجر المعقوف الذي يثبت في حزام من الجلد . ويمكن القول في اليمن بأن الخنجر يعني الرجل ويكفي ان تلقي نظرة على خصر محدثك لتعرف اذا كان من آل البيت أو كان غنياً واين ولد ..

فالسادة الذين هم من نسل الرسول محمد يضعون الخناجر في الجهة اليمنى وخناجر الاغنياء أغمادها من الفضة ومقابضها من قرون الزرافة الشفافة . وتتميز خناجر سكان الجبال عن خناجر أبناء تهامة وسكان الاقاليم الصحراوية الوسطى بالقراب الخشبي الذي تلتف حوله خيوط جميلة خضراء من جلد الخراف وتتميز أيضاً بالمقبض المصنوع من قرن البقر المرصع بالنقود النحاسية البيزنطية القديمة ، ويضعون الى جوار الجنبيه كل ما قد يخطر على البال .. فكل شيء ممكن .

أما الجنود فانهم يحتزمون بالمحزق وهو حزام عريض ترص فيه ظروف الطلقات النارية وهو مرصع بثقوب أو عيون شبيهة بتلك التي في الاحذية . ولكنها ذات ألوان متعددة وأحياناً لا يكون تحت الحزام الا فوطة تستر الجسم الى الركبة . وأحياناً قميص بأكمام طويلة تعقد وراء الكتفين .

أما الاطفال الصغار فانهم يضعون على رؤوسهم طاقية أسطوانية الشكل سميكة محشوة وتنزل الى الجبهة . وهي شبيهة الى حد ما بقبعات الاطفال في ريفنا القديم . ويلبس الاطفال أيضاً جلباباً قصيراً أو سترة أوروبية تقريباً ولكنها بألوان زاهية ، مخططة ومرقشة بألوان كثيرة غير متجانسة. ونظراتهم نهمة الى كل شيء وشبة للاستطلاع ولكنها أبداً ليست عدائية أو نافرة . ولم أستطع في هذه الدقائق ان أتفحصهم جيداً .

وقد أعدوا لنا حجرة صغيرة تطل نوافذها الضيقة على الجبل ،وتناولنا وجبة خفيفة وشربنا ماء عذباً معطراً بالبخور بطريقة عجيبة واسترحنا على أريكة مغطاة بجلد الخراف والذباب يحوم حولنا وبعد هذا كان علينا ان نواصل السفر . وقد عرفت للمرة الاولى « بيت الماء » الذي لا يخلو منه بيت يمني . وهو دورة مياه ومكان للطهارة وفيها حوض للمياه النظيفة ومغرفة .. ذلك لأن الاسلام يفرض الطهارة التامة . وبهذا ينعم المسافر بهذه الراحة التي لا تزال نادرة في ريفنا .

وبعد الحدود تصبح المنطقة أكثر وعورة شيئاً فشيئاً وعلى جوانب الطريق نمر من وقت لآخر ببعض المواكز الصغيرة التي تحرسها الجنود وهي ملاجيء بدائية من أحجار متراكمة بعضها فوق بعض دون اسمنت، ولها فتحة منخفضة جداً ، وبجانب المدخل قاعدة لا هي « كنبه » ولا هي مقعد ، يتمدد عليها العساكر الذين ينهكهم الوقوف وكان منظــر البنادق المشتتة والنارجيلات العديدة والجنود النائمين والواقفين عجيبــاً ومدهشاً .

بتوغلنا في بقاع يزداد جمالها شيئاً فشيئاً . ولكن المدرجات الزراعية لا وجود لها في هذا الجزء من البلاد ، فهي في الاقاليم المرتفعة الشرقية وكنا نصعد في واد تحيط به المنحدرات الصخرية العالية والخضرة نادرة الا في قاع الوادي ذلك لاننا في موسم الحرث ، أما الصخور فقد كانت ألوانها جميلة أخاذة فهي تبدو تحت السماء الزرقاء كتلاً منبعجة ومدببة في لون أخضر وفيها مجموعة من العروق البنفسجية . وتحتها أشجار صغيرة خضراء ورمال السيول الصفراء النائحة .

جمال وتنوع في مناظر الصخور ، لقد بدأت ادرك ذلك .. لقد بدأت أفهم ذلك الذي سئم العلف والخضرة وكان سعيداً أن يرحل الى عـالم مجدب مقفر قاحل ، وفي هذه المسافة لم نر الا قليلاً من السكان ، وكنا نلمح على بعد بضعة كيلو مترات من طريقنا قرى معلقة في قمم الآكام الصخرية ، وبيوتها العالية المتلاصقة التي يسند بعضها بعضاً .. وبعد هذا عرفت ان هذا الوضع لا تدعو اليه الضرورات الدفاعية فقط ، بل ان الجبليين يقيمون قراهم على مرتفعات صخرية ناتئة لأنهم من التبذير والاسراف تشييد القرى في الاراضي المستوية الخصبة التي يجب توفيرها للزراعة . كما ان صحـة سكان المناطق العـالية أفضل بكثير من صحة سـكان الوديان والسهول .

وفي طريقنا التقينا بعدد قليل من الناس منهم شيخ طاعن في السن

كأنه خارج من صفحات سفر من الاسفار المقدّسة القديمة ، يقود قطيعاً من الماعز والاغنام السوداء والعصا في وضع أفقي على كتفيه وقد تدلّت منها ذراعاه في تراخ . انه وضع عادي في اليمن . فالجنود يحملون بنادقهم على هذه الطريقة . هذا الشيخ لم يتشرفنا بأقل نظرة أو التفاتة .

والتقينا براعي بقر صغير كأنه القديس يوحنا المعمدان . كان يسوق أبقاره إلى الوادي ليسقيها . وكانت أبقاراً جميلة جداً رمادية ومرقطة ولها سنم . وكان هذا القديس يوحنا يمسك في يده زهرة خضراء غريبة كالسنبلة تفوح منها رائحة زكية . وعندما ناداه صاحبي تقدّم مني وقدّم لي زهرته وهو يبتسم ، وقد ظلّتْ تفوح عطراً أياماً كثيرة ، وبعد هذا التقينا بقافلة مؤلفة من نحو خمسين بعيراً محمّلة بالأكياس والركائب . والجمال هي وسيلة المواصلات المضمونة . وهي أنسب من السيارات بكل تأكيد في هذه الطرق وكان يسوقها شاب لا يضع على كتفيه العاريتين إلا صديرية أوروبية ولكنه مرّ من أمامنا ورمقنا بأقسى وأغرب نظرة التقيت بها في حياتي .

كنا نلمح أمامنا وسط الوادي بناء صغيراً ناصع البياض مشيّداً فوق رابية . قال رفيقي انه ضريح قديم أقامه الجبليون تكريماً لولي مبجل جلب لقبيلته الثراء مما كان يسلبه من المسافرين المارين بهذا الوادي . فقد كان هذا الولي الراقد في هذا الضريح شجاعاً نشيطاً حكيماً إلى درجة جعلته يتمتع إلى الآن باخلاص مواطنيه وولائهم .

توجّهنا إلى الضريح نستريح قليلاً في ظلاله .. ولكن هذه الأضرحة العربية التي تبدو من بعد مزخرفة نجدها من يقترب منها بسيطة جداً بل وغير متقنة البناء .

ولن أنسى هذه الوقفة ما حييت . لقد شعرت للمرة الأولى اني قد بعدت عن كل شيء . فقد يجد الانسان بقاعاً متوحشة مهجورة في

جبالنا كهذه البقاع ولكن الشيء الغريب هنا هو الهدوء . الهدوء الذي يبدو مختلفاً .. هذا الهدوء الذي يظهر فيه كلما خطر للانسان على بال .. في أوروبا . الطرق المعبدة الصقيلة اللامعة موجودة في كل مكان ، يعرف المرء ذلك ويشعر به ، وإذا لم تكن شبكة الخطوط التي تكتم أنفاس البعض . وتسكن روع الآخرين تحت عجلات عربتك فانها على أية حال ليست بعيدة عنك .. أما اليوم . وبعد هذه الهزات العنيفة . فاني على يقين اني قد خلفت كل شيء ورائي .

هل هي السماء تنتقم من خصب الارض ؟ إننا لم نكد نمضي دقائق قليلة في طريقنا حتى وقعت سيارتنا على احدى عجلاتها الخلفية محدثة أنيناً محزناً . وأخذ السائق ومساعده في اصلاح العطب بهمة ونشاط .. وما هي إلا برهة حتى وصلت السيارة « الدودج » الجميلة ذات الالوان المتعددة وتخطتنا ثم وقفت ، فمن فيها لا يريدون أن يضيعوا على أنفسهم الفرجة على منظرنا الذي لا يتكرر كثيراً في طرق اليمن ، وجاء الليل وتعذر على السيارة « الدودج » مواصلة السفر في الظلام فمصابيحها معطلة .. وقد نزل منها خمسة عشر رجلاً لإعداد الشاي وأماكنهم التي سيقضون فيها الليل . ولم يدم ضوء الغروب كثيراً في هذه المنطقة الاستوائية .. فحل الظلام وقال لنا السائقون انهم قد عجزوا عن اصلاح العطب .

كم كنت أتوق إلى قضاء الليل في الخلاء . او لم يكن الا لأعرض على رفاقي فراشي الذي ينتفخ بالهواء ، وأهم من هذا حتى أكمل المرحلة الأخيرة عند شروق الشمس ، فلم يعد بيننا وبين تعز سوى اثني عشر كيلو متراً .. ولكن رفيقي أصم أذنيه وكانت صفته الرسمية كافية لأن تقوم بنا سيارة النقل رغم ان مصابيحها معطلة . ورغم ان في هذا مخالفة لأوامر الحكومة .

لم نكن نرى الطريق إلا بمشقة وعسر . وقد كانت تزداد ضيقاً

ووعورة وتعرضاً للخطر وقد أصبح الانحدار شديداً . إن تعز على ارتفاع ١٢٠٠ متر وحتى الآن لم نكن قد صعدنا شيئاً تقريباً . لقد كانت الطريق كثيرة المنحنيات وكانت الهاوية في جانب والجبل في جانب آخر ، وكانت سيارتنا تقوم بمناورات عديدة حتى تسير في هذا الطريق الضيق الملتوي بدون مصابيح وبدون « صدام » وقد أدركت مهمة معاون السائق .. ففي كل مرة تتوقف فيها السيارة يقفز منها ستة أو سبعة رجال إلى الارض حالاً ويأخذون أحجاراً يسندون بها عجلات السيارة حتى يمكن أن تدور ، وما ان نجتاز هذه العقبة الكؤود حتى يتعلقوا بها ... ويظلون هكذا على استعداد للقفز عند أول إشارة .

والسائق اليمني يقود سيارته بهدوء وحكمة ومهارة مرموقة ، وكان خده الايسر متورّماً بمضغة كبيرة من أوراق القات ، هذه الأوراق الفلسفية التي سنتحدث عنها فيما بعد .

وكان يدعو الله التقدير ولكن بلهجة تختلف اختلافاً تاماً عن لهجة السائق الباريسي الذي يقع في ظروف مشابهة ومع ذلك ورغم العناية الالهية فقد تعطلت بنا السيارة مرة أخرى والعطب هذه المرة في الكربوراتور (جهاز خلط الهواء والبنزين) وكان وضعنا مزعجاً . فقد نقضي الليل مخيمين في طريق ضيقة في جوف واد تهب عليه الرياح الباردة ، ولكن لحسن الحظ انقذ الموقف مصباحي الكهربائي فقد أمكن بالاستعانة به اصلاح الخلل ومواصلة السفر بعد ساعة .

وقد قضينا خمس ساعات في قطع هذه الكيلومترات الاخيرة . . ووصلنا إلى ضواحي تعز ووقفنا أولاً عند نقطة الحرس التي تتحكم في طريق صالة والقصر الملكي المنعزل في الجبل بعيداً عن المدينة ، ثم وقفنا للمرة الثانية بالقرب من المدينة ، وكانت تنتظرنا هذه المرة مفاجأة مزعجة ، فقد كان المرور في هذه النقطة ممنوعاً أثناء الليل . لقد كان

المرور ممكناً لو كنا في سيارتنا الصغيرة أما ونحن في عربة نقل البضائع فلا يمكن دخول المدينة قبل الفراغ من اجراءات الضرائب ودفعها . ولكن أحداً لا يوجد في الليل للتحصيل فلا بدّ إذن من الانتظار حتى الصباح .

كان هذا كثيراً على رفيقي هذه المرة فلم يحتمل .. ولا بدّ ان الصبر اليمني قد ضاع منه بعد رحلته الطويلة في الخارج .. فكان يطالب المسؤولين بالحاح ان يرسلوا لنا سيارة صغيرة تنقلنا إلى دار الضيافة التي تبعد عن المدينة مسافة كيلومترين . وبعد انتظار ساعتين كاملتين قالوا انهم لم يجدوا سيارة جاهزة وانهم استثناء يسمحون لسيارة النقل أن توصلنا إلى دار الضيافة .

وقد أمضيت هاتين الساعتين في مركز الجمرك البارد المظلم القذر — وبجوار الجدران مصطبة مرتفعة وضعوا عليها الفرش والغطاءات والوسائد وهي التي ينام عليها عساكر الحراسة في الليل وقد دعونا للجلوس بينما التف خمسة عشر جندياً حول موقد يتدفأون ويتفرسون فينا .

أما أنا فقد كنت أنظر إلى باقة من الزهور في أناء قديم موضوع على الطاولة حين نهض واحد من الجنود فجأة ، كان اسمر ، وكان اللون الازرق يغطي جفونه وجزءاً من وجهه ، وكان صدره مغطى بطلقات الرصاص ، والخناجر تتدلى من حزامه نهض ووضع ثلاثة أعواد بخور وقربها من أنفي دون أن ينبس بكلمة .

جندي مخيف ، وأعواد بخور ، لقد كان هذا كافياً لينسيني تعب السفر وكنت لا أزال أفكر في هذا بصورة غامضة وأنا مستلقية على سريري بعد ساعتين حين سمعت أغنية ذات جمال غريب اختلطت بأول إغفاءة .. إن دار الضيافة تقع بجوار مقر الحكومة وفي هذا القصر نحو عشرين عسكرياً ينشدون الزامل ، والزامل نشيد حربي خاص بالعائلة الملكية ، وهو أصوات عجيبة تخرج من الحلق وعالية جداً شبيهة بأصوات

الاطفال ويتقنها الجنود بطول المران ، وكلمات هذا الغناء الرتيب غير واضحة ولكن المعنى بصفة عامة كما شرحوه فيما بعد هو : « نحن عساكر الحكومة أقوى من كل الفلاحين وأشد منهم بأساً » وهذا بلا شك مجرد ترجمة ساذجة من جندي بسيط . والزامل قديم وأصله غير معروف وهو كما يبدو شبيه بأناشيد الحرب المغولية . ولم يفسر أحد سر هذا التشابه العجيب .

وبهذا الزامل كان العساكر في تعز يبدون اخلاصهم للملك بعد الصلاة التي تسبق شروق الشمس فيعلو هذا النشيد فجأة في المدينة الصغيرة النائمة ويكون كئيباً مرعباً في الظلام . كنت أشعر بالأسف والندم إذا لم أصح لسماعه في الصباح ، فلكي يفهم المرء بلداً لا بدّ من التوغل في الوسط وجميع التفاصيل التي يستخلص منها الملامح العامة .

وكثيراً ما يشعر الانسان انه لا يزال في السطح ، ولكنه في لحظات نادرة ، يجد نفسه فجأة وقد توصل إلى الاعماق ، وقد اتضح له كل شيء وكان الزامل الليلي للحرس الملكي واحداً من هذه الاشياء .

الفصل الثالث

تعز والامام ملك اليمن

دار الضيافة – الحياة في قصر الامام – كيف
يعمل الامام – وكيف تساس المملكة

الصباح في اليمن مشرق على الدوام ، وفي عام ونصف لم أشهد إلا صباحاً واحداً عابساً غائماً ولكن السماء الزرقاء مرقطة دائماً بسحب بيضاء تنفذ منها أضواء متنوعة . وتعز فتنة ونعيم بعد جحيم عدن ، ويرى الاجنبي أجمل مناظرها من دار الضيافة ، فالبيوت منثورة بعضها فوق بعض على سفح جبل صبر ومنحدراته ، ويبرز المسجد الرئيسي وقبته ومنارتاه من بينها كتلة بيضاء ، والطقس هنا على ارتفاع ١٢٠٠ متر بارد خفيف رغم وهج الشمس ، ولا يسمع المرء في هذا السكون الخالي من كل حركة ميكانيكية إلا شدو العصافير وغناء الطيور .

دخل عليّ لطف بعمته وعينيه السوداوين الواسعتين وخنجره ، وقد وضع عقب السيجارة في جانب فمه ، وظل واقفاً في طرف السرير مصراً على أن يعلمني أن أتلفّظ : « صباح الخير » ، ولم يتركني إلاّ وقد نطقتُ حرف الخاء بطريقة مرضية .. وكان لطف هو الذي يقدم

في قطوري .

وذهبتُ في الساعة التاسعة أقدّم نفسي إلى كبير الأطباء – قلت الساعة التاسعة وكان ينبغي أن أقول الثالثة ... فالتوقيت في اليمن غيره عندنا . فساعات النهار الاثنتا عشرة تبدأ في الشروق أي حوالى الساعة السادسة صباحاً .. وساعات الليل تبدأ عند غروب الشمس .. ليس التوقيت وحده هكذا بل والتقويم كذلك . فالزمن في اليمن له جنسيات ثلاث : التوقيت الغربي وهو الذي اؤرخ به رسائلي إلى فرنسا ... والتقويم العربي وهو الذي يبدأ بالهجرة ...وأخيراً شهور تركية وهي أثر للاحتلال العثماني ... ورغم ان تركيا نفسها قد تخلت عنها منذ زمن طويل فان اليمنيين ما زالوا يستعملونها دون أن يستطيع أحد هنا أن يعطيني تفسيراً واضحاً لهذا . ولكن الحكومة هي وحدها التي تستعملها . وتقول ألسنة السوء ان الحكومة تحقق توفيراً خفياً في مرتبات موظفيها من هذا اللبس والغموض الذي تحيط به تقويمها .

كم كانت دهشتي عندما وجدت الدكتور ريبوليه في تعز . لقد انتهت اجازته وعاد من فرنسا منذ أربعة أشهر ، وكنتُ أعتقد انه قد وصل مقر عمله في صنعاء . إنه طويل مرح هادئ خفيف الحركات ويبدو أصغر بكثير من سنيه الستين . وكانت مساعدته الآنسة هرمان مثله طيبة ومطمئنة وقد وصلتْ حقائبها إلى صنعاء إلاّ أن صاحب الجلالة استبقاهما في تعز لاحتياجه اليهما .. ولما شفي مرضى القصر الملكي سمح للدكتور ريبوليه بالسفر إلى صنعاء ، ولكنه ما كاد يصل المطار حتى أخطروه ان مزارعاً قد وصل المستشفى وبه جروح خطيرة . ورغم رغبته الشديدة في الانتقال إلى مقر عمله في صنعاء حيث الطقس الصحي الذي يفضله والبيت المريح الذي ينتظره فقد بقي الدكتور بجوار المريض ولكن دون جدوى فقد مات المريض وعاد قصر الامام يستدعي الدكتور ولم يسمح له بعد هذا بالسفر إلى صنعاء إطلاقاً وقد سرت اليه

عدوى المرض الذي راح ضحيته بعد ثلاثة اشهر .

أخبرني الدكتور ريبوليه اني سأستقل الطائرة القادمة إلى صنعاء .. ولكنه لن يكون معي .. وكان هـذا الخبر مذهلاً مزعجاً ، فلم أكن أتصور اني أستطيع الاقامة في بلد كهذا دون نصائحه المستمرة إلا اني لم أكن أملك أي عذر مقبول أو ذريعة معقولة للتخلص من هذا التكليف .

وكان على القادم إلى اليمن فيما مضى ألا يتجول في المدينة إلا بعد أن يستقبله الامام .. ولكن الاحتمال ضعيف في أن يتفضل جلالتـه ويستقبل امرأة بسيطة مثلي ... وعلى كل حـال فقد بقي من هـذه العادات ان الواصل يستقبل زواره من الاعيان في دار الضيافة بدلاً من السعي اليهم في بيوتهم ، وهكذا كان عليّ أن أمضي أيامي الاولى في المحادثات ، وكثر المخبرون مثل كل مرة يصل فيها قـادم جديد ، وقد قدّم إليّ طلعت حسين زميليه الشابين : سامي عز الدين مـدير الشؤون الخارجية ، ونعمت الحاج مدير البريد ، وفيهما لطف وذكاء وبجيدان اللغة الفرنسية .

وقد نصحوني أن أكتب رسالةً إلى صاحب الجلالة أقدّمُ له فيهـا احتراماتي بمناسبة الوصول .. وطلبت زيادة على هذا ، التصريـح لي ، بالمواظبة في المستشفى أثناء انتظار السفر . وكم كان ممتعاً أن أخـاطب ملكاً باسلوب القرن الاكبر .. ويجب ألا أنسى ان الملك يؤشر بنفسه بالقرار الذي يتخذه في كل عريضة ، ولما كان من غير المتصور ان تكون كتابته الرفيعة تحت كتابة رعاياه فلا بدّ ان يبدأ المرء الكتابة من منتصف الصفحة تاركاً أعلاها لجواب صاحب الجلالة .

وفي أيام الانتظار هذه تعرفت بدار الضيافة . ففي الدور الارضي حجرة للحراس ، ومكتب للمدير وبعض الموظفين ، وفي الدور الأول مقصورة فيها ثماني غرف مخصصة للأجانب وفي الجانب الآخر حجرات

موثثة على الطريقة العربية وهي مخصصة لليمنيين ، ولم يكن من المناسب جعل قاعة الحمام الوحيدة في هـذا الجانب فقد كانت العيون الزائغة تحث بالطريق اليه .. إذ كان في دار الضيافة قرابة ثلاثين يمنياً ضيوفاً على الامام . وهم من أعيان الاقاليم والموظفين المتقولين والتجار الأغنياء. بل ان بعض المعتقلين السياسيين يمضون هنا فترة بعد خروجهم من السجن .. فالسلبية والجمود وعدم الحركة .. كل هذا يجعلهم أهلاً للثقة .. ولا يقوم احد هنا بأي عمل طوال النهار .. فإذا استطاع من أطلق سراحهم أن يمضوا هنا هـذه الفترة دون أن يبثوا ما في صدورهم من مرارة وأسى للجواسيس الكثيرين فـانه يسمح لهم بالتجول ولا خطر منهم بعد ذلك .

أما الاجانب فقد كانوا عشرة فنيين : ثلاثة من ايطاليا للكهرباء والاشغال العامة واجهزة التليفون الخمسين الموجودة في تعز والتي لم يوزع منها إلا خمسة عشر جهازاً ، وبجانبهم مدرسون من سوريا ، ومهندس معماري من لبنان ، وأخيراً البوليس السري أو « الخروف » كما يسميه البوليس الفرنسي . وكان الخروف هنا يمنياً يتكلم عدة لغات ويظهر عند وصول أيّ أجنبي . ويشاطر الاجنبي غرفته التي ينزل بهـا ، وبمضي الوقت يتضح مركزه في المملكة الحيوانية اكل ذي عينين . وقد كان رغم كل شيء لطيفاً جداً وغير مؤذ البتة .

كانت وجبات الطعام طيبة والغرف مريحة ونظيفة كل هذا مجاناً وبدون مقابل . فلم تكن الحياة في دار الضيافة تخلو من المغريات ولكن الانسان مع ذلك يشكو من الملل ، والحق اني لم أر أحداً يعمل سوى الدكتور ريبوليه الذي كان يعمل في الصباح وبعد الظهر ، ولم يبد عليه انه يشكو الحرمان من وسائل التسلية .

وفي خارج دار الضيافة استقبلني زميلي الايطالي الدكتور «روشي بمنتهى اللطف وكان يسكن مع الدكتور توفكون الذي كان غائباً حينئذ في

منزل كبير خصص الدور الارضي منه للمرضى الفقراء ، وفي منزله تعرفت باثنين من الطيارين السويديين الذين يقودون طائرات الامام والذين يثق فيهم ويطمئن اليهم . والطيارون السويديون لا يهتمون إلا بتسجيل ساعات طيرانهم في عدن حتى يصلوا إلى الرقم المطلوب ليصبحوا طيارين في الخطوط الجوية المنتظمة .

والتقيت أيضاً بحمام ألماني قديم ونازي عنيد ، تغطي وجهه آثار الجدري وقد جاء يقدم للامام مشروعاً عاماً لاصلاح المالية في المملكة وأقام هنا بضعة أشهر على نفقة الحكومة ثم سافر إلى عدن على حساب الامام بعد ان نفحه بهدية صغيرة . وعلى هذا النحو تشهد اليمن من وقت لآخر مرور كثير من الاجانب ذوي الاختصاصات العجيبة .

أما دنسكر كبير مهندسي الحكومة اليمنية منذ ثلاثين عاماً فانه في وضع ثابت وهو يحمل دبلوم احدى جامعات البلطيق الكبرى والاقاصيص التي تروى عنه تكاد لا تحصى .. ويحبه الامام لأن الله قد باركه . فعندما انفجر المدفع الذي أطلقه ، لم يقتل سوى ثلاثة من الجنود وعندما تحطمت رافعته لم يصب أحد بأذى ، ولكن شهرته قد ذاعت لأنه الرجل الوحيد الذي يملك طائرة كاملة في حديقته .

فقد حدث عندما تدهور وضع المانيا في مصر أثناء الحرب الثانية أن هربت احدى الطائرات إلى اليمن ونزلت في صنعاء . وكان الطيارون يأملون أن يبيعوا طائرتهم إلى الامام ، ولكن الامام كان هو الذي يريد أن يبيعهم البنزين حتى يغادروا بلاده . ولما لم يصلوا إلى اتفاق اقترضوا من دنسكر المال اللازم للسفر وتركوا طائراتهم رهناً .

ولا داعي للقول بأنهم لم يعودوا للبحث عنها وقد وضعها دنسكر في حديقته ، وعندما يبدي أحد دهشته من اقتنائه لطائرة لا يعرف قيادتها .. يجيب انهم قد تركوا له « طريقة تشغيلها » ولكنه لحسن الحظ قد اكتفى باقامة بار في حجرتها يستقبل فيه مدعويه ، وهو

يبيعها قطعة قطعة .

ترى ماذا يمكن أن يكون موضوع الحديث في هـذا المجتمع الصغير ؟ إن الانسان في اليمن لا يكاد يشعر بوجود العالم الخارجي : وهذا البـلد يعتبر شاطئ الامان الذي تستطيع ان تتخذه ملجأ عند نشوب الحرب العالمية القادمة . ولكن أراضي اليمن العالية الغنية التي تحرسها الحواجز الطبيعية ، والتي يحتمل وجود البترول بجوارها والتي تقع على ابعاد متساوية من أوروبا وآسيا وإفريقيا .

مثل هذه الارض لا يشك أحد في أهميتها ، ولهذا فالاسباب كلها متوفرة للاسف لتفقد هذا الهدوء يوماً ما .

ويتساءل الناس هنا أولاً عن صحة الامام وعن مزاجه في آخر جلساته ، وهـل الوقت مناسب لمراجعته في أمر من الامور ، ولماذا لا يريد الذهاب إلى صنعاء ، وهل يعود اليها يوماً من الايام ، وهل لا يزال الجبلي مقرباً اليه يتمتع بالرضا ، ثم من يخلف الامام إذا مات :

فاهتمام الناس إذن مركز على شخص الامام ، والامام أحمد الآن في الستين من عمره ، وهو متوسط القامة ، ضخم الجثة . لحيته رمادية اللون يصبغها باللون الاسود وله عينان تؤثران في كل من يقابله . وكان في عصر والده مكلفاً بالدفاع العسكري عن المملكة وحكم لواء تعز ، وله خبرة وحكمة بالادارة إلى جانب كونه جندياً متحمساً .

وقد جعلت منه شجاعته وعلومه الدينية خليفة لابيه دون منازعة أحد من اخوته .

والناس يطلقون عليه اسم « احمد يا جناه » ويؤمنون بأن له مواهب خارقة . فقد كان في خدمتي طباخ قضى أيام طفولته في قصر الامام ، أكد لي هـذا الطباخ انه رأى الامام يلقي إلى الارض بحزمة حطب فتحولت أمام عينيه إلى ثعابين وتفرقت ، ورآه مرة ثانية يختلي ليلاً في غرفة ويطفئ الانوار ويجمع الجن ويصدر اليها أوامره . وكـانت

الاصوات تتعالى من حوله .

ويقال انه بهذه الطريقة علم بوجود كنز تحرسه قوة شيطانية في بئر ، فنزل وهزم « الشيطان » بعد صراع رهيب ابيضت له لحيته كلها وسحب النقود وهو اليوم يصرفها في اصلاح ميناء الحديدة !!

وهذه كلها أساطير : إلا ان مساعديه مع ذلك يكنون له الاعجاب الخالص ، ولا شك انه ينفذ أحياناً إلى أعماق الذين يحيطون به . فقد كان المفروض ان يقتل في نفس الوقت الذي اغتيل فيه والده . ولكنه ما ان رأى الرجل المكلف بقتله حتى رمقه بنظرة قوية وقال له « انني أعرف ماذا جئت تعمل » فانهار الرجل وتهاوى على قدميه يطلب العفو . وقد كان هذا هو سر فشل الانقلاب .

وأحاديث الامام التي لا تخلو من الاستشهاد محببة إلى الادباء وهو يهتم أيضاً بتقدم العلم الحديث ، ويستدعي أطباءه أحياناً ويقضي معهم جلسات يناقش فيها وظائف الاعضاء ، كما ان المهندسين يشرحون له القوانين الطبيعية ، ويستطيع هذا الرجل الذي يجهل أبسط القواعد العلمية الاولية ان يتابع الشرح ببساطة ، والامام Cyclothimique في نظر أطبائه، ونحن نعني بهذا تحكم النوبات الصوفية الغامضة الدورية التي يفارق فيها هذا العالم ويظل غارقاً في الصيام والصلاة ، وخلال هذه الفترات التي قد تطول اسبوعاً واسبوعين لا يرجى منه أي شيء .. مهما حدث فقد غاب ولا يستطيع أحد أن يصل اليه .

ويقيم الامام في صالة ، في قصر حصين شيده على بعد كيلو مترات من تعز، في واد مناظره خلابة رائعة ، وقد بنى هذا القصر « الروضي » وهو ممرض قديم عرف بالذكاء فارسل إلى جيبوتي لاستكمال تعليمه . ولكن الروضي أخذ بالعمارة وفنها فعاد من جيبوتي مهندساً معمارياً ، ولا يخلو هذا البناء الضخم من العظمة .

ويقضي الامام في هذا القصر حياته العائلية البسيطة مع اثنتين من

زوجاته الاربع . اما الثالثة فانها في صنعاء وقد أصبحت صديقتي فيما بعد . وسأتحدث عنها في مناسبات قادمة ، والزوجة الرابعة والاخيرة امة انجبت له أخيراً طفلين وهي مقيمة في تعز في قصر مستقل قريب من مقر الحكومة . واحدى زوجتيه السابقتين من ام انكليزية والاخرى بدوية من اسرة كبيرة وهي في العقد الرابع ولكنها ما زالت جميلة جداً رشيقة وناعمة وتفيض جاذبية وسحراً ، والمعروف انها أحب الزوجات إلى الامام منذ أكثر من عشرين عاماً . والعادة ان الامام لا يطلق ، ولكن الامام أحمد قد طلق عدة مرات قبل اعتلائه العرش واحدى مطلقاته هي ام ابنه الاكبر ، وتقيم في القصر في حجرات مستقلة .

وللامام أبناء أربعة منهم فتاة في سن العشرين ووالدي الخامسة والعشرين هو سيف الاسلام البدر ولي العهد الذي يفضل الاقامة في الحديدة لأن الحياة في القصر ليست مرحة ، والفنون لا وجود لها ، والآلات الموسيقية محرمة « كالنجاسات المغلظة » وصوت الانسان وحده هو الذي يمكن الاستماع اليه ، وللامام مطرب في سن العاشرة وهبته الطبيعة صوتاً جميلاً ، وقد حصلتُ له على تسجيل قدّمتُه لمتحف الانسان في باريس .

وكان للامام مهرج يعرف كيف يضحكه ويدخل السرور على قلبه ، وذات يوم والحاشية حول الامام خطرت لهم فكرة وهي أن يتقعوا هذا المهرج الظريف في بئر ... فكانوا يغطسونه ويرفعونه وهو يتصنع الذعر والخوف ... وكان ممثلاً بارعاً فلا يدرك المرء متى تكون استغاثاته غير مصطنعة ... وظلوا به هكذا يدخلونه في الماء ويرفعونه حتى ارتفع الحبل وليس في طرفه إلا قطعة صغيرة لا حراك لها ولا صراخ لقد انتهت إلى الابد ، ولم يعد في مقدورها أن تضحك أحداً حتى ولو كان الامام ، ويسلي الامام أحمد نفسه الآن باللعب بالقطار الكهربائي الصغير ... وإذا استدعى المهندس إلى تعز فما ذلك إلاّ لتنظيم مواصلات

قطار صاحب الجلالة الكهربائي الصغير .. وهذا المهندس قد أصبح صديقي فيما بعد .

وحياة الامام الرسمية لا تنفصل عن حياته الخاصة ، فهو لا يذهب إلى مقر الحكومة في تعز إلاّ لاستقبال رسمي ، أما مقابلاته العادية فانها تتم في قصر صالة ، ويظل الملك جالساً على الطريقة التركية حتى يستطيع القادم أن يقبّل باطن قدميه ان كان من طبقة متواضعة ، وتعقد الجلسات هنا كل يوم تقريباً وهي في الغالب في المساء ، فهناك قول عربي مأثور بأن « الليل نهار الاريب » .

والمجلس جاف ، فلا يدخنون فيها تنباكاً ولا يمضغون قاتاً ، ولا يتكلّم أحد إلاّ إذا وجّه إليه الامام الحديث ، أما أطفال القصر فانهم يتمتعون بكامل الحرية ، فلهم ان يدخلوا حجرة الملك الذي يحبهم لدرجة العبادة والذي يتركهم يعملون ما يحلو لهم ، وقد رأى أحد الخدم يوما ابنه وهو جالس في احضان الملك يوشك ان يشد له لحيته .. ولكن احداً لا يجرؤ في حضور الملك على أن ينبس ببنت شفة حتى ولا على تعنيف طفل صغير .

ويتألف المجلس من نحو خمسة عشر شخصاً يجلسون القرفصاء ويجلس إلى جوار الملك كبير وزرائه الذي يفتح الرسائل ويقدّمها له ، ومن مبتكرات هذه الحكومة ارسال الشكاوى والعرائض تلغرافياً إلى الامام .. فمن أراد أن يتفادى تواني الموظفين فعليه أن يعرض حالته على الملك فيرسل برقية تكلفه بضعة ريالات ويدفع زيادة على تكاليف البرقية تكاليف جواب الامام أيضاً . وبهذه الوسيلة يتأكد ان الامام سيعرف موضوعه .. وإذا كان الجواب بالموافقة فان الامام يؤشر عليها ويلقيها موقعة بخاتمه الاحمر إلى المسؤول عن تنفيذها .. اما إن كان الجواب سلباً فانه يرميها الى الارض باستخفاف . واذا كان المرسل أهلاً للتقدير فانهم يردون عليه بأن الامام لا يزال « ينظر فيما يحسن »

ويتم كل هذا مع الاستشهاد بآيات القرآن المناسبة .. ويستطيع الامام ان يفحص مائتي رسالة برقية في جلسة واحدة .. وهذه الرسائل البرقية مورد هام من موارد الخزانة .

وما هي الموضوعات التي تعرض على هذا النحو على الامام ؟

كلها .. كلها على الاطلاق .. من أهم المسائل وأخطرها الى أقلهـا شأناً وأتفهها ، ويقضي فيها الامام نهائياً ودون استئناف .. ان الامام شخصياً هو الذي يقرر اذا كان معلم في احدى الاقاليم النائية البعيدة في حاجة الى عشر محابر .. وقد ذكرت هذا المثال بالذات لأنه قيل لي من أحد مستشاري الامام وهو خارج من المجلس . انالانسان يصاب بالذهول حين يعلم ان رئيس دولة يتدخل في هذه التوافه . !

فكيف يقبل رجل ذكي ان يحشر نفسه في كل شيء .. هكذا ؟ هل يريد ان يتفادى الاسراف ؟ على أي حال .. انه أمر مفزع .. وقد سألت كثيرين عن هذا وأحسن جواب سمعته هو هذا .. كان أجداد هذا الامام يحكمون هكذا .. فاذا لم يحكم مثلهم وعلى طريقتهم فانه يشعر أنه سيكون أقل منهم شأناً ومقاماً .. !

ولماذا لا يريد الامام ان يقيم في صنعاء ؟ هذا سؤال يشغل بال اليمنيين . فصنعاء هي العاصمة الطبيعية لليمن .. فهي مدينة أهم عشر مرات من مدينة تعز ، وهي تقع في قلب المرتفعات الوسطى للبلاد، وكان يقيم فيها الامام العجوز ولا يزال أخوة الامام يعيشون فيها وهم جميعاً وزراء ويلقب كل منهم بلقب سيف الاسلام وهم : الحسن رئيس الوزراء ، ونائب الامام في صنعاء ، القاسم وزير المواصلات ، اسماعيل وزير الصحة ، علي وزير المعارف ، عبد الله وزير الخارجية ، والعباس وهو المختص بشئوون القبائل وهم فيما عدا الحسن لا يتمتعون بأي سلطة فعالة ..

ويستفيد الامام من هذا .. فعندما يصل سفير أجنبي ويتقدم بطلبات لا يرضاها الامام فان الامام لا يرفض هذه الطلبات بل يحولها الى الامراء

في صنعاء .. ويتعب السفير من طول الانتظار ويسافر راضياً مؤملاً ان الجواب سيلحق به .. ولا يصله بعد هذا شيء على الاطلاق ، رغم ان أصول المجاملات الشرقية قد روعيت .

ولعل لعدم انتقال الامام الى صنعاء أسباباً أخرى .

فقد خضعت صنعاء للامام الذي تولى الحكم بعد مقتل أبيه الامام يحيى وهو لهذا يضمر لها حقداً وكراهية وحفيظة .. وهناك سبب سياسي وهو ان تعز ثغر من ثغور اليمن الهامة وأقربها الى المدنية .. والامام يعرف كل هذا وهو يقول للزائر الاجنبي وصوته لا يكاد يخلو من الكآبة والحزن « انك لم تر اليمن بعد .. اذهب الى صنعاء وستعرف هناك بلادي » . لعله يقدر مسؤوليته الثقيلة كبواب كبير .. يعرف متى يستطيع ان يفتح ومتى يجب ان يغلق ..

وعندما يتناول الانسان صلات اليمن بالعالم الخارجي لا بد ان يبرز اسم الجبلي فاقتصاد اليمن فعلاً بين يديه .. والامثلة كثيرة لحالات يرتفع فيها أفراد ولكنهم يهوون بقدر ما ارتفعوا ، أما الجبلي فقدعرف الامام كيف يختاره .. وكان الجبلي ذكياً عندما جعل منشآته كلها شركات مساهمة للامام أحمد فيها نصيب الاسد . وما دام الامام نفسه هو المستفيد الاول فلا يمكن ان يتعرض العمل لأي مخاطر .

وقد وصلت سمعة الجبلي الى الحد الذي جعلني أنا في اليمن أسمع من يهمس باسمه خليفة للامام ولكن هذا مستحيل .. لأنه ليس من آل البيت .

الفصل الرابع

استعراضات صغيرة ، ومشهد مفجع

نزهة في الجبل مع اصدقائي الاطفال –
زيارة مدرسة – زانية مقيدة بالحديد –
المستشفى الذي لا يتحدث الناس عنه .

كثرت عندي هذه المعلومات القيمة وأصبحت متلهفة على الاتصال بالبلد والذهاب الى المستشفى . وزيارة المدينة وضواحيها . وذات مساء وصلتني تهنئة الامام بسلامة الوصول فقررت في اليوم التالي ان أبدأ حربي الجديدة بنزهة طويلة في الجبل ، في الصباح الباكر .

وقد استهدفت مسجداً أبيض صغيراً يقع في منحدر جبل صبر ، خرجت من دار الضيافة وحيدة ، ومعي القلم ودفتر المذكرات الصغير وبعض الحلويات الملبسة وهي الاسلحة المعتادة لاصطياد من يجري عليهم بعض الاختبارات .. لقد كانت كلمات استاذي البروفسور ليفي شتراوس ترن في أذني : « إلى اولئك الذين يخرجون الى الميدان – أنصح ... » أجل اني هذه المرة في الميدان وهأنذا مستعدة ..

كان محمد باري أول صديق لي في اليمن ، التقيت به وهو في طريقه الى المدرسة وهو صبي في سن السادسة ، حسن الهندام والتهذيب ، وكان على رأسه طاقية منتصبة ، ويرتدي سترة قصيرة من الاطلس الاصفر

ذي الخطوط الحمراء . وقميصاً يصل الى القدمين ، ونعلاً من الكاوتشوك وعلى ظهره كيس من القماش الاسود يضع فيه لوحاً وقلماً من الحجر الصلب ، والجزء الاول من القرآن ، وهذا يكفي ليبدأ به حياة هانئة ؛ وصديقي من أسرة طيبة ، وكان يرد على حديثي بلباقة لا تخلو من اعتزاز بالنفس . وانضم الينا بعض الصبية ، وكانوا أقل اناقة ، ولكنهم يتمتعون بنفس الحيوية والنشاط ، ودخلوا مدرستهم في الحال وتركوني مع فتاتين في سن الثامنة والعاشرة ، فالبنات في اليمن لا يتعلمن القراءة ولكن عبده لحق بنا ، ولعله رأى ان هذه الظروف الاستثنائية بحاجة الى اجازة اضافية.

وفي ذلك الصباح تلقيت من هؤلاء الاطفال أجمل وأحسن ما في اليمن فقد صعدوا بي في طرقات ضيقة لا تمر فيها الا الماعز وتسير هذه الطرق في احد الوديان الكثيرة المنتشرة من أعلى الجبل الى أسفله ، وكنا نسير بين نباتات البحر الابيض المتوسط : الصنوبر والصبير واعواد الند والاشجار الشوكية والمثمرة . وترتفع في هذا السكون . وضوء الشمس أغنيات من أغاني الرعاة صوتان رخيان في بطء وصفاء يرددها راعيان . وفوقنا مسجد قديم قد أضحى اطلالاً وانقاضاً . فقد غطيت ساحته بنبات العليق والعوسج وأضحت أحواضه مستنقعات للمياه الراكدة الآسنة ، وكنا قد ابتعدنا عن تعز والاطفال سعداء بالقيام بدور الدليل ، وكانوا يريدون ان يقولوا لي كل شيء ، وان يطلعوني على كل شيء . وكانت المفاجأة السارة التي احتفظوا بها لي هي أنهم قادوني الى أرض مسطحة صغيرة لا ترى من تحت — وكان ثمة رجل عجوز قد شرع في حرثها .

كان العجوز حافي القدمين ، عاري الرأس ، طويل اللحية ، يرتدي قميصاً أبيض فقط ويحتزم بحبل ويتكيء بيديه وقدمه على محراث خشبي يشق به الارض في صعوبة وعسر ويجره ثوران من الابقار الممتازة الرمادية اللون الجميلة . وقد نظر الينا هذا الشيخ وابتسم بهدوء وواصل عمله وقد أحسست اني لا أشغل في هذا العالم الريفي الا حيزاً صغيراً .. وكان

الرجل يقف في آخر التلم يطعم الثورين لفافة من العلف ، وهي قبضة من التبن محاطة بقليل من البرسيم الاخضر والابقار تحب ان تتناول طعامها من اليد ، وكان الرجل الشيخ يغني بصوت متهدج حنون وهو يطعم ثوريه ثم وهو يشق الارض بمحراثه . وبحثت مريم عن يدي ووضعت يدها الصغيرة فيها وحاولت ان تعلمني الاغنية .

وبعد ان امضينا ساعتين معاً ، بدا لي ان الصداقة قد توطدت بيننا واني أستطيع ان أخرج الورق والاقلام ، وكان النجاح عظيماً . ان هؤلاء الاطفال لم يسبق لهم ان رأوا واحداً يرسم رجلاً ، وقد أسعدهم هذا وأفرحهم ، ولم يجدوا أجمل من أن أتيح لهم الفرصة كي يجربوا.

وقد بدأت بالفتى ، فالرجل أولاً دائماً . ثم أردت أن أمر بالورق على البنات ، يا لها من فضيحة ، لقد شعر الصبي بالاهانة فرمقني بنظرة قاسية وسحب الورق من يدي الفتاة ، بازدراء وهو يقول : « انها بنت .. لا تعرف شيئاً .. » واستسلمت الصغيرة في انكسار وتركت الورق .. ولكني رتبت الامر على الطريقة الغربية وأعطيت الفتيات دورهن .. وتهللت أسارير مريم واستبشرت بالانتصارات القادمة للمرأة ورسمت أصابع عشراً للذراعين اللذين رسم خطوطهما الصبي .

وكان من الطبيعي ان تسير بنا مريم الى أمها .. ولم يكن بيتها واحداً من تلك البيوت المتشامخة الحصينة العالية ، بل كان بيتاً صغيراً ، في عزبة فقيرة ، وهو حجرة واحدة لا نافذة لها .. وليس فيها من الادوات المنزلية سوى موقد وبعض أواني فخارية قليلة .

كان البيت خالياً من الرجال وما ان أحست النسوة بوصولي حتى لذن بالفرار ، ولكنهن رجعن بعد قليل .. لم أكن قد رأيت امرأة غنية .. انهن مخلوقات حزينة مخبولة عجزت عن استخلاص أي شيء منهن .. كان لباسهن قميصاً قصيراً من القماش الاسود مرفوعاً الى الخصر ليسمح

تحن بحرية الحركة أثناء العمل وبنطلوناً ضيقاً مكفوفاً من أسفل ، أمـــا العنق والشعر فتغطيها خرق ترفع الى ما فوق الانف عند الاحساس باقتراب أحد بحيث لا يترك الا ما يسمح للعين بالنظر .. وحول هذه النسوة يحبو أطفال عراة هزيلون اردافهم ملطخة بالاوساخ ، وعيونهم محاطة بالذباب . وكانت أخت مريم وهي في سن الثانية عشرة تساعد أمها فتحمل طفلاً صغيراً على ظهرها .

وللأطفال الفقراء فترة سعيدة في حياتهم تلك هي التي تنقضي مـن حين يتعلمون المشي الى حين يجب عليهم العمل ، فالحرية في هذه السن تمنحهم رونقاً يفتقدونه في سن الرشد ، والبنات يفقدن حريتهن هذه قبل الاولاد

بقيت مريم في البيت واستعاد عبده دوره القيادي وساقني الى المدرسة حيث كان الدرس قد انتهى ، ولا بد ان يكون محمد باري قد تحدث عني اذ يبدو ان الناس كانوا ينتظرونني . وقد دعاني الاستاذ الى دخول الفصل وهو قاعة واسعة ليس بها سوى طاولة للمدرس أما الاطفال فيجلسون على الارض أمامه ، ابتسامات لطف ، مجاملة وبعد ما كنت سعيدة كنت دهشة أن أرى الستار المعروف للريبة وعدم الثقة عند المسلمين يخترق بهذه السهولة والبساطة .

نزلت ، هذه المرة ، الى تعز ، وسط هذه الحراسة الكبيرة ، وكان عبده يعلن اننا نعرف كيف نرسم انساناً ويدعو الناس للمشاهدة ،وكنت جالسة على صخرة وحولي خمسة أو ستة أطفال يتهيأون للرسم وتقدم الينا لفيف من الرجال بينهم رجل كبير المقام كما يبدو من مشيته وملابسه الفاخرة ؛ وقد سأل الاطفال ونظر الى الكراسي ، وتأملني أخيراً باستغراب فيه كثير من العطف والمودة ، وقد أراد ان يكتب اسمه وهو قاض معروف وقد تركنا بعد ان تحدث الينا بلطف ، وأدركت في هذا الوقت المساعدة الثمينة التي يقدمها الى هؤلاء الاطفال ، فليس من العسير تسليتهم

وإفراحهم . واليمنيون كالمسلمين جميعاً يحبون من يحب الاطفال .

وبعد الظهر . وفي الايام التالية . قمت بزيارة المدينة وضواحيها . وتعز تحيط بها أسوار قوية من الطين . وفيها نحو خمسة آلاف نفس ، ولكن القرى المجاورة تضاعف هذا الرقم . وفي خارج المدينة بنايات حديثة هي دار الضيافة والبريد ومقر الحكومة والمدرسة والمستشفى ، ويعلو المدينة القديمة تل عليه قصر حصين يسجن فيه الرهائن ، والرهائن أطفال بين الثامنة والخامسة عشرة .. وهم أبناء رؤساء القبائل المشكوك في ولائهم ، وكان عددهم ثلاثين طفلاً كما يبدو . هل هذا أمر بشع ؟ ممكن . انه شبيه بمدرسة داخلية كئيبة ، وقد رأيت سجيناً منهم في سن العاشرة جاء برفقة حارسه ليعرض نفسه على الدكتور مروشي ولم يكن يثير الشفقة .

وبيوت تعز ليست شاهقة ولا جميلة . فهي مبنية من الطوب او الاحجار التي لم يحسنوا تقطيعها والنوافذ قليلة والطقس حار رغم اننا على ارتفاع ١٢٠٠ متر . والمساجد شيدت في عهدالاتراك واجملها المسجد الرئيسي الذي لم أتمكن من دخوله ، والآبار قليلة والمياه تأتي بها السيول أو الينابيع التي تتفجر في الجبل ، الا انها ما زالت ملوثة .. ومولدات للكهرباء تمون بعض البيوت الكبيرة بالنور ليلاً .. ولا تستطيع ان تطلب كل ما تشاء من اسواق تعز . والترامس المصنوعة في اليابان والاقمشة الهندية والسورية والصفائح والصيني التشيكي والادوية الايطالية . وفي الميدان الكبير الذي تتصدره صورة الملك المحاطة بأنوار النيون يلتقي الانسان أحياناً بسيارة الامير البدر ولي العهد محاطة باكليل من الورود الورقية ، وحولها شريط متعدد الالوان يلتف حول غطائها .. ويرى الانسان في ميدان آخر اسطوانة ضخمة سوداء ارتفاعها متران كانت طافية في مياه عدن أشارة للسفن ولكن تاجراً محتالاً باعها من الامام ليجعل منها خزاناً للمياه وبعد استلامها مباشرة لم تعد تظهر لها أية فائدة .. وعند باب

المدينة ترى المحدادة أو مكان السمكرة .. عفواً إنه مركز البوليس الذي يسوقون اليه من يشاءون ليكبلوه بالسلاسل الحديدية .. فيكفي في اليمن أن يكون لانسان أي نفوذ طبيعي أو قانوني وان يكون غير راض عن شخص ليأمر بأن يكبل بالحديد .. اي انه ليس ثمة أمر عادي أكثر من أن ترى يمنياً يجر الأصفاد في قدميه ويسير في الشوارع .. والقيود حلقات حديدية مفتوحة قليلاً توضع في الساقين وتقفل بالمطرقة ، ويصل بينها سلاسل حديدية .. وتظل هكذا أياماً وأسابيع . وقد يكتفى بقيد واحد ولكن لا مانع من قيدين أو ثلاثة أو حتى خمسة .. وقد أصبح هذا أمراً مألوفاً إلى حد انه لم يعد يحدث أي اثر أو انفعال ولا يخجل من يجر القيود بل انه يتفكه ويهزل ويواصل أعماله العادية .. وقد كان موظف المالية الكبير الذي اتهم باخطاء في حساباته يذهب بهذه الصورة إلى مقر عمله ... وأنا هنا لا اختلق شيئاً .. وقد رأيت في شوارع تعز امرأة مكبلة بالحديد ، لقد خانت زوجها ... ولكن العشيق وقد أغضبه أن يرى الجميلة في السلاسل رجم الزوج بالحجارة وهرب إلى الجبل . وكان الزوج إلى جوار زوجته كئيباً حزيناً وصدره مضمد بالاربطة . أما هي فقد مدت ساقيها وجلست تقشر الفاصولياء بكل هدوء ... وقد يرى الانسان أشياء أقل غرابة ..لقد رأيت مسجونين يجمع كل اثنين منهم قيد واحد في قدميهما يشدون الهواء آخر النهار في الميدان الكبير .. ويأتي الناس يلقون اليهم بالصدقات .. وما ان يقترب احد منهم حتى يمطروه بوابل من التضرع والتوسل ...

وذات يوم ، رافقت الدكتور ريبوليه إلى المستشفى ، أما الدكتور مروشي فقد رفض الذهاب اليه ، وأقام في بيته عيادة صغيرة تعلمت فيها أشياء كثيرة ، وعندما سألته عن السبب في هذا ، أجاب في بساطة : « سترين » .. والمستشفى يضم عدة بنايات تتألف كل منها من طابق أرضي وحيد ، تحيط به ساحة .. ويعنى الدكتور بنحو ثلاثين

سريراً ، وعندما وصلنا إلى المستشفى اخرج من حقيبته علبة بها بقايا فطوره ، وانحنى على الموقد يسخنها بنفسه لمريض صغير .. إنه يسهر على كل شيء بنفسه وأكثر المواقف تواضعاً هنا لا تشين من يقوم بها إذا كانت في سبيل الخير والبر ، وقد اطعم الطفل ، وقرأتُ في وجوه الحاضرين العاطفة المعترفة بالجميل ، وكان الدكتور ريبوليه يقدّم لمرضاه العلاجات الضرورية من عنده فلم يكن في صيدلية المستشفى غير رفين يزوّدان بالادوية كل خمسة عشر يوماً ، أما قاعة الجراحة فقد كانت خالية من كل شيء ، وعندما أردت رؤية حجرات العلاج رفض الدكتور أن يسير معي فمررت عليها بمفردي يتبعني على غير رغبة مني أحد الممرضين .

وقد مررت بها واحداً واحداً ، فوجدت نفس المنظر المذهل المفزع ، رائحة كريهة ، السُرُر عبارة عن قوائم شُدّت عليها الحبال ، وليس عليها أغطية ... أجسام هزيلة شبه عارية ... شعروا بوجودي فتحركوا قليلاً ، وحاولوا الوقوف ، مدّوا أيديهم نحوي ، وارتفعت أصواتهم تتوسل وتتضرع بحرقة وألم ، لقد كنت شيئاً جديداً عندهم ، لقد كنتُ شعاعاً من الامل رأوه قبل موت لا مفر منه .. كثيرون منهم مشرفون على الموت .. نظر إليّ الممرض وقال : تيفوس ... ولكن كل هؤلاء المرضى جميعاً ليس لهم أدوية .. عشر حجرات للرجال على هذا المنوال ، لقد كنتُ أشعر اني تحت كابوس لعين ، ولم يدلني أحد على مقصورة النساء ، ولكني وجدتها ... حجرات منخفضة لا نوافذ لها .. زرائب بكل معنى الكلمة ... تمددتْ فيها النساء الواحدة بجوار الأخرى على أرض قذرة ، ومع الكثير منهن أطفالهن . قد يخيّل للانسان انه يستطيع أن يتصوّر فظاعة وشناعة كهذه ، ولكن مشاهدة هؤلاء النسوة في هذه الزرائب أكثر سوءاً من كل ما قد يخطر على البال . لقد قرأت كما

قرأ النـاس أوصاف معسكرات الابادة والافناء . ولكني هنا رأيت بأمّ عيني امرأة تحتضر وهي راقدة فوق برازها ، رأيتهـا تنهـض وتستند على كوعها وتناولني طفلهـا المبلل وهي في النفس الأخير تتضرع وتتوسل .

التفت الدكتور ريبوليه إليّ وقال : « والآن ها أنتِ قـد رأيتِ كل شيء » .. إنـه قبيح أن يعمل الانسان كل يوم في مثـل هـذه الظروف . ولكن ماذا يعمل والأدوية لا وجود لهـا ؟ والامام لا يقدّم ريالاً واحداً للمستشفى القديم ، ولكنه أمر ببناء مستشفى آخر ، وقد ذهبتُ إليه مع الدكتور ريبوليه الذي وضع رسومه بنفسه ، وقد فرغوا من الاساس ، وتكدّستْ أكياس ومهمات البناء الحديثة هنا وهناك وكلها فرنسية ، وقـد اعتمد لهـا الامام خمسين ألف جنيه ، والدكتور ريبوليه هنا سعيد ، ومتفائل ، وقد أدركتُ الأمـل الذي كان يلهمه الشجاعة . وكان المولّد الكهربائي قـد وصل ، ولكنهم لم ينزلوا الصندوق الكبير كاية من سطح سيارة النقل ، فظل جزء منه فوق السيارة ، والآخر على الارض تسنده صفائح قديمة . وقـد ظل الدكتور ريبوليه ينتقل من مكان إلى مكان يطلب العون والمساعـدة ، ولم نغادر المستشفى إلاّ في وقت متأخر ، وقد نجحت العملية وأصبح الصندوق بعيداً عن الخطر .

رأيت المستشفى مرة ثانية وقد انتهى في مايو سنة ١٩٥٢ قبل عودتي إلى فرنسا . كنت وحيدة ، ولكن ذكرى الدكتور ريبوليه تنتظرني عند الباب وقد قمنا بالزيارة معاً كالمرة الأولى . ولكني الآن أمام طـلاء حديث .. سُرُر بيضاء ، صناديق مفتوحة ، معدات تخرج من أوراقها الحريرية ، ويقوم زملائي الايطاليون الذين وصلوا أخيراً بوضع كل شيء في مكانه . أما المهمات الكبيرة فقد كانت رسوم تصميمها وتركيبها موجودة بين أوراق الدكتور ريبوليه ، وعند موته ارسلت إلى باريس ،

ومن باريس نقلت إلى جدة مقر المفوضية الفرنسية . وقد قدمها السفير إلى الامام في حفلة أثناء زيارة رسمية بعد مضي عشرة أشهر . ولكن في هذا الوقت كان كل شيء قد وضع في غير موضعه تماماً . فالجهاز الضخم لتطهير وتعقيم عُدد الجراحة والضمادات . هذا الجبل الطبي بالنيكل الذي كان ينبغي أن يتصدر مكان الشرف في نهاية القاعة الكبيرة .. وضعوه خطأ وبصورة زرية مضحكة في حجرة صغيرة وبشكل مائل .

هل كان الدكتور ريبوليه يفكر في مستشفاه وهو يحتضر حين قال : «ليس الآن» . لقد تلقى من الله الجزاء الذي هو جدير به بكل تأكيد . ولكن جهاز التعقيم الضخم الذي أساءوا وضعه يعكر عليه بدون شك رقدته في الفردوس .

الفصل الخامس

عيد النصر

نجاح في المطار – نيران في السطوح –
رقص واستعراضات – الاسد العجوز

للاسفار في اليمن طابع خاص : انتظار لا نهاية له يعقبه اندفاع جامح . لقد كنت أعتقد انهم قد قرروا أن أبقى في تعز ، ولكني ذات صباح جميل فوجئت بوصول سيارة جيب ؛ جاءت تأخذني إلى المطار لأسافر إلى صنعاء بعد ساعة ، ولم يكن أحد قد أخطرني بهذا فكانت حقائبي مفتوحة وأدواتي مبعثرة في الغرفة ، صحيح أن حاجياتي لم تكن كثيرة ولكني قد أحضرت معرضاً صغيراً للتسلية لي ولأصدقائي الجدد ، بينها الاسطوانات ، والفونجراف ، والكتب المصورة من لاروس للتاريخ الطبيعي الضخم إلى سيكولوجية الفن لمارلو ، ولعب الاطفال ، ولعب البيت ، ومهمات المخيم ، فكيف أستطيع في نصف ساعة أن أضم هذا الموجز لحضارتنا في خمس حقائب؟

قفلت على نفسي الباب بالمفتاح ، وجاء السائق وظل يقرع الباب بعنف ، وكان ردي عليه «لا .. لا » .. والشيء العجيب هنا هو أنه أعقب نداءاته الحادّة المتكررة بانحناءة شرقية محكمة ، وفي الوقت

الذي تزداد القرعات شدة وعنفاً عندنا في فرنسا . تميل هنا إلى الهدوء بمرور الوقت . وعندما خرجت من غرفتي وقد حزمت الحقائب وجدت السائق هادئاً يمزح مع العساكر واعجب من هذا انه لم يتحرك إلاّ بعد أن انتهى من تدخين سجيارته .

وقد كنتُ منقبضة النفس وأنا أقطع المسافة بين المدينة والمطار . إذ من المحزن أن يكون الباحث في أصول السلالات البشرية ومميزاتها في اليمن ويحلق في أجوائها على ارتفاع ألف متر . كما اسفت إذ أغادر تعز في الليلة السابقة لعيد النصر الذي يشير إلى الذكرى السنوية لاستعادة الامام أحمد العرش بعد مصرع أبيه . وهم يحتفلون بهذا العيد في جميع أنحاء المملكة . ولكن الاحتفال في تعز بحضور الملك سيتم بصورة أفضل .

ورغم الجلبة والضوضاء في المطار . فقد كان واضحاً حتى ذلك الوقت أن السفر لم يحن وقته بعد . فالناس ينتظرون الامير الحسن . نائب الملك في صنعاء . فقد قرر البارحة أن يصل صنعاء قبل العيد . أما حاشيته فقد وصلت وكانت مؤلفة من نحو خمسة عشر رجلاً يلبسون ثياباً جميلة بيضاء . وكانت حقائبهم قليلة ، فهل هذه عادة بدوية قديمة ؟ إن اليمني لا يكاد يأخذ معه شيئاً في السفر . فهو يضع قطعة الصابون في جيبه . ويغرس السواك « فرشة الاسنان » في عمامته أو بجوار خنجره وإذا كان بعيد النظر ارتدى عدة جلابيب . إنهم هنا لا يفهمون جيداً لماذا تكثر الحقائب التي يأخذها الغربيون معهم في أسفارهم . إلا انهم من جهة أخرى يأخذون كثيراً من السلع . لأن الطائرة توفر لهم في ساعة ما يحتاج نقله إلى ثمانية أيام بالسيارة أو خمسة عشر يوماً على ظهر البعير . وعند وصولي كان الطيار منهمكاً في وزن الحمولة . وبهمة وحماس اليائس استحضرت ما تبقى في ذهني من الكلمات الانكليزية التي يرجع عهدها إلى أيام المدرسة .

وقلت له أني أفضل ان أسافر براً ، ولكنه لم يفهمني كما يبدو .

وعند الظهيرة وصل الامير الحسن . وفي هذه الساعة التي تشتد فيها الحرارة في المناطق الاستوائية يصبح الجو أقل احتمالاً لتحليق الطائرة في مثل هـذا الارتفاع . وقد حييت الامير من بعد بانحناءة مبهمة ولكنه لم يرني ولن يراني . حتى عندما كنت في مأرب في السنة التالية على بعد متر واحد منه . فهو متعصب جداً للتقاليد الاسلامية. ومع ذلك فقد كانوا يتحدثون عني . فالطيار يحدّث الأمير ويشير إلى حقائبي التي لم يكن قد وزنها بعد . وقد جاءوا يقولون لي ان الطائرة لا تستطيع أن تحمل حقائبي فقد زاد فيها الوزن .

وشعرتُ أن الفرصة قد سنحت ، ولكن هل أرفض السفر بالطائرة ؟ كانت وساوسي كثيرة . فقد قمت برحلة طويلة وممتعة ... قطار من باريس إلى فينيسيا .. درجة أولى في الباخرة إلى الاسكندرية . مرور بالقاهرة .. طائرة إلى عدن .. إقامة في اوتيل كرسنت الفخم . هذا بجانب المرتبات . لقد كلفت الحكومة اليمنية أكثر من ثلثمائة جنيه . كل هذا قبل أن أرى مريضاً يمنياً واحداً . هل هناك بلدان كثيرة قادرة على مثل هذا السخاء ؟

لهذا فقد كنت مترددة في تأخير قيامي بواجبي من أجل الفسحة والتجول . إلا أن المترجم أردف قائلاً :

ان السيارة ستنقل حقائبي فوراً ولن تتأخر ، وكان هذا كل ما أتمناه . فطلبت أن يسمحوا لي ان أكون معها . متعللة بأنه لا جدوى من انفصالي عنها فلن أستطيع أن أبدأ العمل بدونها .

وكانت لحظات عسيرة . فقد كنت مغروسة بين حقائبي والمترجم يتنقل في تيه بيني وبين الامير وعندما اسمع فعل « الأمر » كنت أفضل ألا أفهم مـا يقوله . إلا أنـه كان لا بدّ من الخروج من هذا الوضع . وفي الاخير جاءني المترجم باسماً يحمل لي موافقة الأمير . لقد نجحت

ونقلتني سيارة الجيب إلى تعز والطائرة ترتفع في الجو .

واذن فأمامي رحلة مثيرة للاهتمام . ولكني أيضاً قد نلت ما هو أكثر من هـذا . لقد حصلت على تقدير الناس . فقد وجدت رجالاً بعد مضي عام يقولون لي : « لقد كنا هناك .. ولا ننسى يوم المطار » ؟ أما صلاح ، سائق السيارة ، فقد غمرته البهجة والسرور ، وكان يسوق بيد واحدة ويغمز بعينه وهو يقلّد صوت الامير واجاباتي ..وبالاختصار كان ساخطاً ومنددأ . وكنت أشك في هـذه الروح .. وقد أقسم صلاح أن احداً لن يسوق سيارتي إلى صنعاء سواه ، وهذا ما حدث ، فقد أصبحنا أصدقاء ، وله أدين بنجاتي من إقامة تشبه الأسر في ذمار .

وفي تعز كتبت رسالة شرح وتوضيح لصاحب الجلالة وقد تكرم واذن لي بالبقاء في تعز أثناء العيد ، وكان المواطنون قد توافدوا على تعز من مختلف الاقاليم ، بينهم فلاحون أغنياء بملابسهم الجميلة ونسائهم المزينة بعقود الكهرمان الكبيرة ، والفضة المنقوشة المفرغة . وبينهم فلاحون فقراء جاءوا يلتمسون من الملك الصدقات التي توزع في الاعياد الكبيرة .

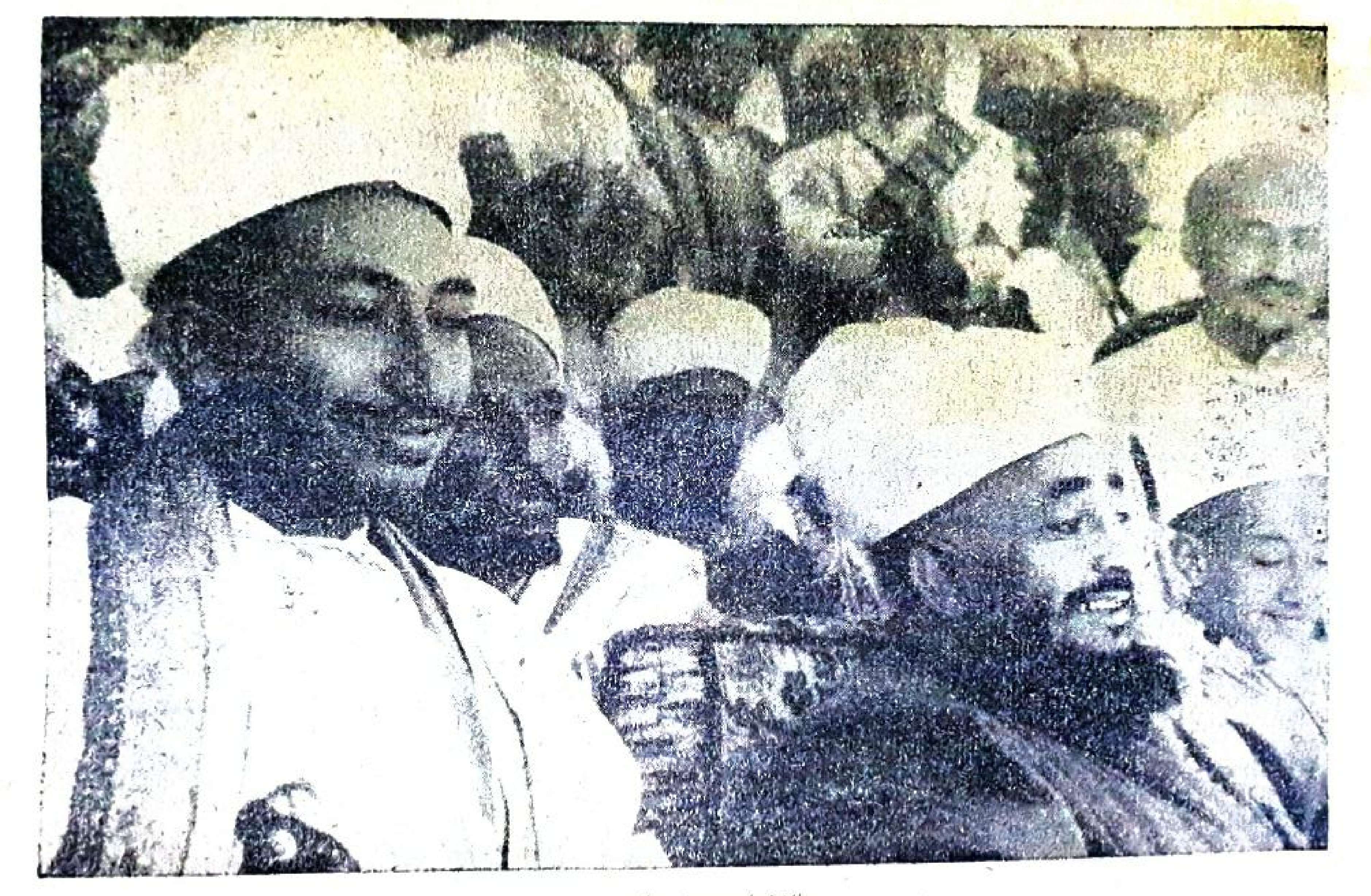
وفي المساء بدأ العيد « بالتنصير » وهو اشعال النيران في اسطح المنازل فقد أعدّ في كل بيت كميات من الرمل في أطراف السطوح سقيت بالبترول في اللحظة الاخيرة ، واشعلت كلها عندما حلّ الظلام ، وقد توّجت البيوت المنثورة على سفح الجبل بلهب خفيف راقص . وكان هذا اللهب أكثر حيوية من أنوار النيون الجامدة عندنا . وكان الليل يعج بزغردة النساء الحادة ، وتفجير الصواريخ الصغيرة ، وأصوات الاطفال المرحة . أما الخدم في دار الضيافة فقد أخذوا يرقصون على أنغام المزامير ودقات الطبول . رقصات كنت أجدها دائماً ممتعة جميلة . وكان الراقصون أربعة أو ثلاثة أو اثنين يتقدمون ويرجعون الواحد بجوار الآخر ، يضعون أقدامهم بخفة ومهارة ويمسكون

بخناجرهم ويلوحون بها ، وتزداد السرعة شيئاً فشيئاً حتى تصل أقصاها .

رغم كل هذا فقد ظل المهندس المعماري اللبناني بجواري مملوءاً بالمرارة والغيظ . لقد كلّفه الامام بتشييد العمارة الاولى في تعز بالاسمنت المسلح . فنشب نزاع بينه وبين البنّاء اليمني الذي يرى أن يكون الاساس من الرمل على الطريقة المحلية المتبعة ، وألا يبدأ الاسمنت المسلح إلاّ فوق الارض حيث يمكن أن يراه الناس ، وأحيل موضوع النزاع ، طبعاً ، إلى الامام الذي وقف ضدّ المهندس . وبعد العيد بوقت قصير غادر اليمن يائساً ، وبحمد الله لم يكن للاسمنت المسلح وجود في تعز .

وقد أنهينا سهرتنا ، كالعادة ، في منزل الدكتور مروشي الرحب ، ولكننا في تلك الامسية فوجئنا بزيارة خارقة للعادة ، فقد جاءتنا امرأة يمنية متنكرة في زي رجل أوروبي ، إنها زوجة عامل ايطالي لم يقو على احتمال العزوبة فاسلم ليعيش مع امرأة مسلمة ، وكان هذا هو الحل الوحيد . وقد مارس التنكر هذا صيدلي سراً على مجالس الحريم ، لكنه مرة تضمخ بعطر فرنسي فواح الرائحة لا وجود له في تعز ، فعرفه رجل في الشارع وهو تحت الملاية والبرقع ووقعت الكارثة ... قيدوه بالسلاسل وطردوه .. أما زوجة الايطالي هذه الشابة فقد كانت ترغب أن تراني ، وقد توسلتْ إلى زوجها أن يسمح لها بالحضور معه وهي في زي الرجل الاوروبي . ولكن الدكتور مروشي ، وهو في حالة من القلق وعدم الرضا ، طردها في الحال .

وفي اليوم التالي بدأت الاحتفالات الرسمية في الميدان الكبير المجاور لمقام الحكومة . وقد أعدّت المقاعد على جانبي المنصّة الملكية ، وتوافدت الجماهير من الصباح الباكر ، وكانوا كلهم من الرجال في



الإمام احمد وابنه البدر

ثيابهم الصارخة الالوان ، أما عساكر الحرس الملكي فقد ارتدوا بدلتهم الجديدة ، وهي سترة وفوطة وغطاء رأس من القماش الوردي اللون أو الأزرق الباهت ، مزخرفة بنقوش بارزة ، وكانت وجوههم برنزية جميلة وشعرهم مجعد ، وكل هذا يدل على فهم سليم للألوان . وقد وصل كرسي الملك محمولاً على أكتاف العساكر ، وجاءت بعض السيارات الرسمية والاطفال يتعلقون عليها ، وكان هناك مجموعة عجيبة من العساكر وكلهم طاعنون في السن ، تتدلى لحاهم البيضاء إلى فوق خناجرهم ، وأخيراً وصل ولي العهد سيف الاسلام البدر ، وتصدر الاحتفال نائباً عن أبيه المريض .

وقد استمعنا إلى كلمات كثيرة ، ثم شاهدنا مباراة في كرة القدم على الطريقة العربية المثيرة ، والعرض العسكري . وما دام اليمنيون يغارون كثيراً على أسرارهم الدفاعية ويمنعون التصوير فاني لن أقول شيئاً في هذا الموضوع ! وفي صباح اليوم الثاني استمعنا إلى أناشيد الطلاب ، وإلى الفرقة «النحاسية» التي تعزف الألحان الأوروبية على الطريقة الشرقية ، ولن أقول عنها أكثر من هذا ، ثم قدمت تمثيليات هزلية ، أمام المنصة الرئيسية ، وكانت زاخرة بالوقائع الاستطرادية ، كأسلوب موليير . وأخيراً شاهدنا مباراة في كرة القدم قدمها شباب يسيرون على أرجل خشبية طويلة ، وكانت ممتعة ، وأثناء الاستراحة كانت الانظار تتجه إليّ ، فقد كانت معي طفلة سويدية صغيرة في سن الثالثة . كان ابو أنيتا يقود الطائرة إلى صنعاء وكانت أمها تعاني أزمة عنيفة من مرض الملاريا والديسنتاريا . وكانت لا تعتمد على أحد في أمر طفلتها .. بل تتركها في العادة حبيسة في حديقة صغيرة .. وقد كنتُ أريد فعلاً أن أعنى بأنيتا ولكن دون أن يضيع العيد ... وقد اكتشفتْ أنيتا مدينة تعز وتعرفت تعز بأنيتا ، كان الناس يتأملون الطفلة الشقراء الوردية كشيء انقشعت عنه السماء . أما أنيتا فقد

كانت تفضّل الجمال قبل كل شيء إذ كان كل جمل شبيهاً بالزرافة ، فقد رسموا على جسمه في هذه المناسبة دوائر صغيرة بالحناء .

أما في اليوم الثالث فقد خرج الملك ، ونزل من سيارته على بعد أمتار من المنصة وسار إلى كرسيه تحميه مظلته التقليدية . وكان يرتدي قميصاً أحمر اللون وعمة بيضاء تتدلى منهما عذبتان هما إشارة الامامة . وكان الرجل مختلفاً جداً عمّا تظهره الصور الرسمية : فجفناه مخضبان باللون الازرق ، ولحيته مصبوغة باللون الاسود . وكان يبتسم ابتسامة مفزعة تبدي اسنانه الذهبية ، وهو بهذه العيون العجيبة وهذه الابتسامة وتلك اللحية ، لا يشبه أحداً ممن حوله ، إنه هو الامام فعلاً . ومن يراه للمرة الاولى يدرك في الحال كيف كان صاحب الجلالة في عصور التاريخ القديمة ، ولا ينقصه إلا صفوف من عقصات الشعر ليعيد إلى الاذهان الملوك الالهة لبلاد الاشوريين .

وقد ألقيتْ أمامه كلمات كثيرة تختلف عن الكلمات السابقة ولا بدّ أن يكون التغيير مقصوداً ، ولم يكن هناك متحدثون رسميون ، إلا أن فلاحاً طاعناً في السن نبوي الوجه ... القميص الأبيض وسترة من جلد الخراف ، جاء مع رجال قبيلته من اقليم ناء وقد اختاروه للكلام ، ونقلوا إليّ كلامه وهو عادي ، ولكن الذي لا يمكن ترجمته هو الصوت واللهجة والاشارات والنبل والثقة لرجل لم ير مع ذلك شيئاً سوى قرى مؤلفة من عدد قليل من البيوت .

وجاء دور الاطفال الذين يحبّهم الملك ، ولم يكونوا يقرأون من الورق ، بل كانوا يفصلون عباراتهم ، ويثبتون أنظارهم في الامام في شجاعة ورباطة جأش . كم هو الفرق بينهم وبين أطفالنا المملوئين خجلاً وحياء ووجلا . وقد ترجم لي خطاب مدهش ألقاه طفل صغير ، ملابسه رثة بالية ، وقد صرخ هذا الطفل في خطابه : « أنتم جميعاً أيها المجتمعون ، انكم متخمون . انكم مغتبطون ، انكم

تتباهون بالملابس الجميلة . أمـا أنا فان بطني خاوية . إني جائع وأهلي عاجزون عن توفير طعامي . » وقد حياه الحاضرون بعاصفة من الضحك ولا أدري إذا كانوا قد منحوه شيئاً آخر ، ولكني على يقين أنه كان يعني ما يقول ولم يكن يمزح أو يتفكه .

وانتهى الاحتفال بموكب عـام للخيل والجمال على دقات الطبول ، وقد تقدمت الخيل . وكان المشهد مطابقاً لمهرجانات تلعيب الخيل في شمال افريقيا ، ثم جاءت الجمال . ويركبهـا اليمنيون بطريقة خاصة ، فتوضع القدم اليسرى على الرقبة ، وتتدلى الساق الاخرى عمودياً ، بينما يثبت الراكب قدمـه اليمنى خلف قـدم البعير الامامية ، والذراع اليسرى الممدودة إلى الامام تمسك بالزمام وترفع بـه أنف البعير الذي يقوس رقبته . وبهذا الوضع يندفعون في العدو بسرعة جنونية . والابل بهذه الرشاقـة والسرعة لا تترك للخيل أي تفوق عليهـا ؛ بل انها تمتاز أيضاً بالقوة والضخامـة ، ولهـذا فليس غريباً أن يفضلها كثير من النـاس .

وغادر الامام مكان الاحتفال محاطـاً بعساكره وهم ينشدون « الزامل » وكان هذا النشيد نارياً قوياً يختلف دويه عن نشيد الليل العميق الـذي يسمعه الانسان وكأنه آت من بعيد ... وقـد تأثرت بالاغاني الشرقية بسرعة فانغمست وسط الجماهير متجـاهلة كل اعتبارات الوقار ،وسرت خلف الجنود ، وقد وجدت نفسي وسط الزحام الشديد ومن بجواري ينظرون إليّ باسمين ، ويبدو أنهم كانوا سعداء ومستغربين في نفس الوقت وقد رأوا أجنبية تتجاوب مع أغانيهم الوطنية الجميلة .

وجرت العادة أن يوزع الامام في آخر أيام العيدالهدايا على الفلاحين ؛ فيمنح كل واحد ريالاً وفوطة ، ولكنه كان متعباً فكلّف أحد موظفيه بالقيام بهذا العمل ، وقد فقدت الحفلة بهذا كثيراً من طابعها المعتاد . أما في المساء فقد عرضوا فيلماً سينمائياً ، وقد كان هذا هو الحدث الأول

من نوعه في اليمن .

وكان أحد رجال الاعمال قد تقدّم قبل عدة سنوات يطلب من الامام الشيخ أن يأذن له بتشييد دار للسينما في صنعاء . فقال له الامام :

— « إني أقبل ، ولكن بشروط ثلاثة . »

— « ما هي هذه الشروط ؟ »

— « أولاً : ألا يعرض شيء ضد اسلوب الحكم أو ضد الدين . »

فقال الرجل :

— « هذا أمر مفروغ منه . »

قال الامام :

— « ثانياً : ألا تظهر النساء في الافلام . »

فأجاب الرجل مرتبكاً :

— « إن هذا عسير جداً ، ولكننا سنحاول .. »

— « والشرط الاخير ان يدخل الناس جميعاً السينما مجاناً .... »

ويبدو من هذا ان الامام الشيخ كان خفيف الدم ولكن صنعاء ظلت دائماً محرومة من السينما .

وفي تلك الليلة كانوا للأسف قد حدّدوا لي وقت العرض خطأ ، وكان العرض في الهواء الطلق في الميدان الذي قامت فيه الاحتفالات ، ولكني لم أصل إلا في النهاية وقد أخذ الناس في الانصراف ، ولكنهم عرفوني في الظلام ، ونادوني بعبارة فهمت منها كلمة باريس ... وبالفعل فقد عرض السينمائي الواصل من عدن فيلماً اخبارياً عن باريس بجانب فيلم أعياد النصر للسنة السابقة .

انتهت الاحتفالات ، وحان وقت السفر ، وأردت أن أقبض مرتبي للشهر الأول ، فقد كنت أريد أن أتوقف في الطريق كلما أمكن ذلك . وكان السائق صلاح ينتظر تعليماتي أمام دار الضيافة .

وبفضل كلمة « فلوس » التي جاوزت حدود الجزيرة العربية منذ زمان طويل ، فهم ما أريد بسرعة ، وأدرك الاجراءات الضرورية وساقني إلى المقـــام .

وواجهة المقام مزينة بفونغراف محطّم معروض للعبرة منذ ثلاث سنوات ، فقد عكر بعض الاشخاص المتهورين ساعة الصلاة بهـــذه الاصوات النجسة ، فهشمت هذه الآلات « المجرمة » وأصبح بيـــع الفونغرافات ممنوعاً في جميع أنحاء مملكة الامام .

وقد دخلتُ مكتباً وقّعتُ فيه الوصل ، وكانت الجدران مشكوكـة بالمسامير التي ثبتت فيهـــا الاوراق ، وهذا هو الأرشيف ، والخشب هنا نادر ، ولهـــذا كان الاثاث قليلاً وبالتـــالي كانت الادراج نادرة الوجود !.. وكانت الوثائق العليا بيضاء جديدة والتي في الوسط قد اصفر لونهـــا . أما المجاورة للحائط فانها قـــد بدأت تتفتت ، فهي أقدم المحفوظات . وهكذا يتفادون التراكم وهم لا يفقدون شيئاً له أهمية منها .

وبعد هذا دخلت إلى المـــالية ، وكانت الريالات منثورة في كل شبر فيها ، في كل كيس ألف ريال . وفيهـــا خزانة مليئة بالنقود الأجنبية ، وصفائح بنزين ، وعلب محفوظة ، وقطـع غيار السيارات وأجهزة لترشيـح المياه . وقد أخذ أحـــد الجنود كيساً وفتحه بالخنجر ، وجلس يعد لي أربعمائة ريال ، وكان حولنـــا نحو مائة جندي يتزاحمون ، وقد جثا صلاح يراقب العملية عن قرب . أما أنا فقد كنت أضـــع الريالات في حقيبة أنيقة وعلى مقربة منا كان الاسد العجوز يزمجـــر بعنف في قفصه ، وكان الامام قبل عـــدة سنوات ، يصطحبه معه في الاستعراضات ، وفي رقبته طوق وسلاسل يشدها العبيد من كل جانب ، ولكنه الآن قد تقدمت به السن ، وهم الآن يربون أشبالاً أخرى في قصر الملك ، ولو انها لا تزال صغيرة وغير هادئة . أما الاسد العجوز

فيقضي بقية أيامه بجوار مالية الحكومة .

هل هذا كله شبيه بما جاء في « الاقاصيص الشرقية » لجوبينو ؟ نعم بلا شك ، بل وأكثر من ذلك .. إنه خيال قاس وشاعري في نفس الوقت ... إنه خليط مفرط من الجنون الواضح والحكمة العميقة .... إنه جمال ممزوج بالفكاهة .

الفصل السادس

من تعز الى الحديدة

ليلة ممطرة في زبيد – قرية في
تهامه – الحديدة وعقد الياسمين

لا يشعر الانسان حقيقة بالسفر إلا عندما يخرج من مدينة في طريقه للاقامة في بلد صغير غير معروف ، ولم أحس بمثل هـذا الشعور وأنا أغادر فرنسا فقد شغلني عنه الوداع المؤلم ، ولكني أحسست بهذا الشعور العميـق وأنا أشهد تعز تختفـي من ورائي .. ففـي تلـك اللحظات ، وقـد تمّت كل الخطوات ، وتذللت جميـع العقبـات ، وجدتُ نفسي حيث أردت أن أكون منذ زمان طويل ، في سيارة جيب لا تحمل سوى خمس حقائب ، وفي وضع لا يهمني فيه غير مهنة جميلة في بلد جميل .

لم تكد تدور بنا السيارة حول أسوار تعز ، حتى وقفت بجانب رجل على جـانب الطريق ، وكنت أتوقع هذا ، فقد أخبرني الأطباء ان السائقين الذين يقودون سيارات الحكومة ، يسمحون لمثل هـذا المسافر بمزاحمة الركاب الرسميين واقلاق راحتهم مقابل ما يدفعه لهم ، ولكننا كنا ثلاثة في مقدمة السيارة ، السائق ومساعده وأنا ، وكنت أريد

أن أكون مستقلة . ورددت « لا » التي نفعتني في المطار وفي الغرفة بدار الضيافة . ولما كان صلاح يعرف إصراري هذا . فقد استأنف السير بعد ابداء بعض التذمر .

ويمكن قطع المسافة بين تعز والحديدة في يومين وتخترق الطريق الوديان في أقاليم جبلية . وكلما ارتفعنا امتدت أمامنا المدرجات الزراعية الجميلة . وحتى في هذه المرتفعات تنتشر الحقول والقرى في كل مكان . وتزال الاحجار في أصغر المساحات الموجودة بين الصخور . وتمهد للزراعة . وكثيراً ما كنا نتوقف في بعض المراكز ليقدم لهم صالح تصريح المرور . فيتجمع حولنا الأطفال والفلاحون . والنساء هنا سافرات وأكثر مرحاً وجمالاً من تلك الاشباح البائسة التي يلتقي بها الانسان في أحياء تعز . ونساء الريف الغنيات في الواقع اسعد نساء اليمن . وقد رأينا واحدة منهن . وشعرها عار ومصفف في جدائل سميكة تنثني حول أذنيها ؛ ووجهها اسيوي وخدودها بارزة وجميلة وناعمة جداً . وعلى عنقها قلائد ثقيلة . ولكنها لا تستسلم لعدسة التصوير أبداً رغم التشجيع الضاحك ممن حولها .

وعند الظهيرة . وبعد أن هبطت بنا السيارة كثيراً أصبح المنظر من حولنا أكثر انبساطاً واخضراراً ، ففي جوف الوديان لا تزال المياه متوفرة والطقس دافئاً . ولهذا تظل الحقول مزروعة في مختلف الفصول وبلا انقطاع . وكنا في شهر فبراير (شباط) ، وقد نبتت الذرة وارتفعت سنابلها . أما في ضواحي « حيس » فقد كان على جوانب الطريق أشجار النخيل الاستوائية المفرطة في النمو . ولكن الطريق في المناطق المستوية ليست دائماً أفضل من الطرق الجبلية . إذ كان علينا أن نقطع قنوات الري التي تنقل المياه بين الحقول . وكان هذا عسيراً على سيارة الجيب . ولم نلتق خلال اليومين بأية سيارة في طريقنا . ويبدو ان أهمية المواصلات تأتي بعد ضرورات الري .

وصلنا زبيد في نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وكان المفروض ان نواصل السفر . ولكني من أول نظرة أحسست بحب عنيف لا يقاوم نحو هذه المدينة . فأحببت أن أقضي فيهـا بقية النهار . وزبيد مدينة من مدن القرون الوسطى بكل ما فيها . أسوارها العالية ، قلاعها ، منصات المراقبين والحراس ، أبوابها الحصينة المنيعة ، وأعجب من هذا كله . ان الحياة تجري في كل شيء فيها ، فلم تصبح أطلالاً كما رأينا في تعز ، ولا يشعر الانسان بالاعداد وإعادة الترتيب كما يحدث في أوروبا . بل يتملك الانسان حقيقة الشعور بأنه تراجع خمسة قرون إلى الوراء ... وقد كانت زبيد مقراً لجامعة قالوا بأن الجبر نشأ فيها . أما اليوم فهي مدينة زراعية صغيرة يقطنها نحو ستة آلاف نسمة ، وهي أهم المناطق الزراعية في تهامة .

ووقفت بنا سيارة الجيب أمام دار الضيافة ، وهو بيت أبيض . نوافذه ضيقة ، وكانوا قد أعدوا لنا وجبة خالية من كل ما يحتاج اليه الأوروبي عند تناول طعامه . فلا شوكة ولا سكين .. ولكنها كانت وجبة طيبة غنية بالاصناف اليمنية .

وبعد الطعام خرجنا لزيارة المدينة . وقد رضيت هذه المرة للعساكر بابعاد الناس من حولي حتى أستطيع تأمل المنازل الجميلة ، فهي أجمل من منازل تعز . وهي كلها مبنية من قوالب الطوب ، وبعضها يتألف من أدوار ثلاثة أو أربعة ، وتتسع في أسفلها ، وتظلل السطوح أسقف تحملها أعمدة أربعة ضخمة . أما بعضها الآخر فمنخفضة ومكعبة الشكل ونوافذها الجانبية قليلة . وليس في الواجهة سوى الباب الشبيه بالمصطبة المصرية . وحوله أشكال هندسية متعددة النماذج . ويطل لسوء الحظ على ساحة صغيرة مقفلة . فلا يراه الانسان إلا من بعد أو من فوق الجدران .

وعند الغروب . تأخذ هذه الواجهات المنحوتة جلاء وورونقاً ولوناً

رائعاً ، لقد جلست في سطح دار الضيافة أشهد حلول الظلام ، وكل من يعرف اليمن لا بدّ أن يكون شاعراً حين يتحدث عن مغرب الشمس فالغروب هنا أكثر روعة وجمالاً منه في أي مكان آخر . فالسماء ، بعد الغروب بعشرين دقيقة . ولاسباب جوية لا أعرفها . تكتسي بلون وردي صارخ يخيل للانسان انه ضوء اصطناعي .

وانضم إليّ في غرفة دار الضيافة عمدة زبيد وهو شاب ذكي ، يفيض حيوية ، وكان العطارون في باريس قد زودوني بمجموعة من أكثر عطورهم نشوة وتخديراً ، فلما قدمت له زجاجة منها سر كثيراً ، فالعطور أحب الهدايا وأعزها عند اليمني . وعرفاناً منه بالجميل، عرض عليّ الزواج ، وحجته ان له زوجتين ولكنهما لم تنجبا له أطفالاً ، وقد اختارني للقيام بهذه المهمة ، ولكني عارضت وقلت : إن صاحب الجلالة قد كلفني بالعناية بالمرضى في صنعاء وتخلى عن طلبه بسهولة .

أما غرفة النوم فقد كانت كما وصفها «نيبور» قبل مائتي سنة في مؤلفه عن رحلته في الجزيرة العربية ... قاعة كبيرة بنافذتين ، وعلى جوانب الجدران نحو عشر مصاطب مرتفعة عليها أغطية ووسائد وتتسع لعدة أشخاص ينامون جنباً إلى جنب . ولم يكن هناك أحد من المسافرين ، ولهذا فقد أعدوا لي المصطبة الرئيسية ، وعندما أخذ ثلاثة رجال في رفع الناموسية وتثبيتها أدركتُ اني ألقى منهم تكريماً خاصاً ، ورغم انها كانت كثيرة التقوب فقد كان منظرها جميلاً وكنا جميعاً سعداء . وزيادة على هذا فقد أراق مضيفي زجاجة العطر التي قدّمتها له في غرفة النوم فقضيت فيها أمتع ليالي الشرق ، وكان يدور في خلدي هذان المثلان : «إن العمل الصالح لا يضيع أبداً» ، و «إن الاساءة ترتد دائماً إلى من وجهها» !

وغادرتُ زبيد آسفة في اليوم التالي ، ولعل طرق الجبال أصلح

للسيارة من رمال تهامة ، فقد توقفت بنا بعد ساعة بجوار احدى القرى ، وبينما كان صالح ومساعده يقومان باصلاحها تركتهما ورحت أتجول في المنطقة المجاورة . وقد حرك وصولي كل شيء في القرية .

فالتف حولي أطفال عراة منتفخو الكروش ورجال سمر يضعون على رؤوسهم قبعات من الخوص مخروطية الشكل ومدببة ، أما النساء فقد تجنبن الزحام .

وكان معي من الحلويات والسجاير ما يكفي ليستقبلوني استقبالاً طيباً ، ولم يكن من العسير زيارة القرية كلها التي رغم انها بدائية فان بها مع ذلك بعض الأشياء الضرورية ، ففيها مسجد ومدرسة هي عبارة عن ساحة دائرية لا باب لها ولا سقف وفيها شاب يرتدي ملابس بيضاء قال انه يعلم القراءة لأطفال القرية ، وفي السوق رأيت رجلاً عجوزاً يجلس على الارض بين الاكياس المليئة بالحبوب ، وأخيراً وصلتُ إلى الحداد أو السمكري ، وكان الرجل ذا لحية كبيرة ، ويلبس فوطة ، وقد تركني اجتاز عتبة الباب ، وحماني من الزحام الشديد ، وظللت أتفحص كل شيء ، بعد ان تركني وقتاً مناسباً ، ثم بكل هدوء أشار لي إلى الباب ، فالزيارة في رأيه قد انتهت .

لقد كان يتحلى بشخصية قوية متحفظة نبيلة ، وقد تركته وفي نفسي صراع لا يحتمل ، لقد كنت أقل منه تمدناً وتحضراً ، فقد دخلت محله وتفحصته أمام عينيه وبدون استئذان ..!

وفي مساء اليوم الثاني وصلنا الحديدة ، وكان جوها خانقاً حاراً ، دار الضيافة قذرة كئيبة ، ميزتها الوحيدة انها على الشاطئ .

ولا تستطيع البواخر الوصول إلى الشاطئ بسبب الصخور المنتشرة على طول الشاطئ ولكنها تفرغ حمولتها في قوارب صغيرة تقترب بها إلى

بعد ثلاثين متراً من الشاطئ .

وهنا يتقدّم الحمّالون وينقلون البضائع على اكتافهم ويسيرون بهـا بأقدامهم بين الماء ، ورغم هـذا فالميناء لا حياة فيه والمدينة لا جمال فيها ولا سحر ، وإذا مر الانسان في الشوارع فانه يرى المشربيات أو البلكونات التي تحيط بها ألواح خشبية جميلة لا بدّ انهـا كانت أنيقة فيما مضى أما الآن فليست سوى أطلال بالية ، خالية من النقوش الجميلة ولا يعنى بها أحد ، وهي معلقة على صفائح محزنة تستحق الرثاء . ولا يعنى بها أحد .

ويرى الانسان في واجهات هذه البيوت أحياناً باباً هندياً جميـلاً اقتناه تاجر غني «أيام زمان» ولكن الابواب الابنوس المنقوشة هـذه لم تصنع للبيوت العربية .. ووضع الشيء في غير موضعه ممقوت وغير مرغوب فيه .

ولم أجد في الحديدة مـا يمكن أن أعمله ، ولا ما يستحق أن أراه . وقد فضلت أن أغادرها سريعـاً . ولكن الحديدة أكبر مـن تعز ، فسكانها نحو ثلاثين الفـاً ، وفيهـا عدد من المقاهي والاسواق الزاخرة بالسلع ، ومنذ دفنت الرمال ميناء المخا ، اقتصرت تجارة البن على ميناء الحديدة ، وكان هذا سبباً في نشاط تجاري ملحوظ .

أما صلاح فقد ارتدى ثياب يوم الجمعة وجـاء إلى دار الضيافـة مزهواً أنيقاً وأكّد لي ان الامطار قـد بدأت تهطل في الجبال ، وانه لا بد لنا من انتظار سيارة أخرى حتى نسافر معاً ونجتاز السيول في أمان . وقد رضيت بهذا ، حتى آخذ نصيبي من حرارة الحديدة . وقد رحب بي في الحديدة الدكتور سورنتينو . وهو الطبيب الوحيد في المدينة ، ومدير بنك الهند الصينية الفرنسي واستقبلاني بحفاوة ومودة . ومن الذكريات التي لا أنساها ما حدث عند مغادرتنا للحديدة ... فقد طال بنا الانتظار وكنت جالسة على «العنقريب»

وهو سرير من الخشب والسلب تحت ظل السقيفة أمام كراج الحكومة الذي يتلظى من حرارة الشمس . وقد احتكر النقل في جميع انحاء البلاد صاحب الجلالة الامام والجبلي ، وهما يمتلكان أغلب سيارات النقل ، أما التجار الآخرون الذين يمتلكون بعض السيارات ، فلكي يسمح لهم بشحن البضائع ونقلها لا بدّ أن يسجلوا أنفسهم أولاً وأن ينتظروا دورهم ... وكل شيء يتوقف على مقدار ما يقدمون من « بقشيش » للموظفين .. ويسري هذا كله على التجار إذا أرادوا أن يسرعوا في نقل بضائعهم ، وقد اعترف الدكتور ريبوليه نفسه ، وهو الرجل الرقيق ، بان كراج الحديدة بالذات لم يكن إلا مأوى للصوص وقطاع الطرق ، ورغم هذا فقد كنتُ مضطرة إلى ترك حقائبي في هذا الكراج لبركب مكانها مريض لا يحتمل حرارة الجو في الحديدة ، وقد كانت احدى هذه الحقائب مفتوحة بفعل الطريق .

كانت معي خريطة ممتازة لليمن وكنت أتأملها تمضية للوقت والخريطة هنا شيء نادر ، وقد التف حولي عمال الكراج حتى المدير ، ورغم كل شيء ، فقد كانوا أذكياء أولاً وقبل كل شيء .

ولن أنسى السهولة المدهشة التي جرى بها الحديث ، لقد وضحوا لي الطريق التي سأتبعها ، وعلموني كيف أردد الاسماء وهم يصححون نطقي ، وعند الرحيل اعطيت الرجل العجوز الاسود الذي حمل حقائبي قطعة نقود صغيرة لا تكاد تساوي شيئاً ، فاختفى من أمامي ، ثم عاد مسرعاً ووضع على عنقي عقداً من الياسمين في اللحظة التي تحركت فيها السيارة .

ووصلت حقائبي إلى صنعاء ، بعد يومين ، دون أن أدفع ريالاً واحداً ، ودون أن أفقد منها شيئاً على الاطلاق رغم ان واحدة منها كانت مفتوحة .

الفصل السابع

من الحديدة الى صنعاء

وقفة في عبال – الكشف الطبي الاول–
يومان في ضيافة أمير – في حمام علي –
الاميرات في الحمام – رقصات يمنية

قرر صلاح ان نخرج من الحديدة في آخر النهار تفادياً للحرارة ، وبينما كنا نشهد مغرب الشمس الجميل في السهول ، كنا نبتعد عن الحديدة ونقترب من الجبال شيئاً فشيئاً ، وقد مررنا بقرية باجل الصغيرة ولم نتوقف إذ لم نجد فيها شيئاً ذا قيمة ، وكان لا بدّ ان نمضي ليلتنا في عبال آخر قرى السهل . وفي عبال أخذت الصخور مكان الرمال ، وهي قرية مؤلفة من عدد قليل من البيوت الحجرية التي لا أبواب لها ، وأثاثها الوحيد هو العنقريب ، ولم نجد فيها شيئاً مما رأينا في زبيد ..

ولكني كنت سعيدة أن افتح المرتبة الهوائية وسط اعجاب الحاضرين ودهشتهم . اما صلاح ومرافقوه فيبدو انهم لا يرغبون في النوم فقد اقتربنا من مناطق القات .

والقات شجرة صغيرة ، أوراقها خضراء طازجة لها خاصية شبيهة بالكوكاين والأفيون ، ويقبل اليمنيون على مضغها وتظل في أفواههم

ساعات كاملة ، يشعرون خلالهـا بالسعادة ، ولكن هذا يكلفهم غالياً ،،
والقات لا ينبت إلا في الجبال ، ويصدر إلى عدن بالطائرة كل صباح
وهو تجارة مربحة جداً ، فصلاح اذن يستعد لينعم بهذه اللذة ، وقـد
استحضر ربطة طازجة ملفوفة في أوراق الذرة ، ومصباحاً وقليلاً من
القشر ونارجيلة .. وقال لي إنه بهذا سيقضي ليلة سعيدة ممتعة وأنه يفضل
هذا على النوم .

ولما حلّ الظلام توغلت وحيدة في القرية ، ولم يرني أحـد وأنـا
أقترب ، وكانت البيوت كلهـا مفتوحة وستائر القش مرفوعـة حتى
تدخل نسمات الهواء الباردة ، وتتجمع في داخلها العائلات حول مصابيح
الزيت ، وينام الاطفال في فراشهم الصغير المعلق على شكل ارجوحـة
تحت عنقريب امهاتهم .. ولكني لم أستطع أن أظل بعيدة عن الانظار فقد
اكتشفوني وكان من غير المجدي أن أواصل .

وقبيل الفجر سمعت جلبة وضوضاء ، لقد جاءوا أثناء الليل يسألون
عني ، فعرفوا اني طبيبة ، وعبال من المناطق الوخيمة المضرة بالصحة
مثل كل المناطق اليمنية الواقعة على سفوح الجبال في تهامة ، فالصخور
تؤدي إلى ركود المياه إلى جانب الحرارة والانخفاض .. كل هذا يؤدي
إلى تكاثر وانتشار ذباب الملاريا . وقد أدركت حالة السكان المحزنـة
المبكية .. فقاماتهم قصيرة ، وبطونهم منتفخة ، وأعضاؤهم ليست إلا
هيكلاً عظمياً ، والحمى بادية على وجوههم ، وقد فحصت العشرات
من المرضى ومنهم بعض النساء اللائي احضرتهن عجوز كانت تشجعهن
وتدفعهن بقوة ، وتنزع ملابسهن وترمقني بطرف عينيها بقلق .. ومن
العسير في العادة الكشف على امرأة عربية لأنها مثقلة بالحياء والخوف
والتردد .

إن هؤلاء هم اول مرضاي ! عندما يستلقي رجل مريض مجرد من
ثيابه امام رجل آخر يرتدي ثيابه الكاملة ، ويرجو على يديه الشفاء ،

تنشأ بينهما علاقات لا مثيل لها .. فيتعلق كل منهما بالآخر لحظة من الزمن ، المريض بطبيبه والطبيب بمريضه ، وقد رأيت هذا في مستشفى تعز دون أن أشعر بسر التعاسة المخيفة ، لأن ذلك كان يتصل بأطباء آخرين .. غيري . أما هذه المرة فالامر مختلف .

هؤلاء النسوة .. ليس لهن إلا أنا .. فاذا لقين عناية طيبة فقد يشفين ولكن لا بدّ لي من السفر ، وسيمتن بكل تأكيد .. وسريعاً .. والاشياء القليلة التي استطيع ان أتركها لهن لن تغير من الأمر شيئاً ، ومع هذا فعيون العجوز تتقد حسرة وأملاً كما لو كانت ، أكثر من الآخرين ، تعاني الحالة المفجعة التي تعيشها القرية ، وقد فهمت حينئذ هذا التعبير : « الذراع التي يشل قوتها اليأس » ، فليس هناك ما هو أثقل من يد لا تستطيع أن تقدم شيئاً ، انها أثقل من أن يستطيع الانسان رفعها ووضعها بدون جدوى ، فوق هذه البطون الجافة البائسة .

لقد وصلت عبال وأنا خفيفة ، ولكني غادرتها مثقلة بعبء كان يفرض عليّ ان أبقى فيها ، وبين أشعة الشمس المتوهجة والصخور والرمال ، كانت الطريق تلتوي بنا بين جبلين وترتفع رويداً رويداً في اد مهجور غير مزروع ، وما ان تتوقف السيارة حتى يخيم علينا صمت مطبق حتى ليخيل لي أننا لن نتحرك بعد هذا أبداً . ووقعت عيوننا مرة ثانية على ضريح أبيض يوحي بالسكون والسلام وينعش النظ ثم مررنا ببيوت قليلة لا طابع لها انها « مدينة العبيد » وفي منتصف النهار وصلنا حمام علي .

وحمام علي قرية عجيبة مؤلفة من أكواخ حجرية منتشرة على سفح الجبل ، وينابيعها الكبريتية الذائعة الصيت تجتذب اليها الكثير من المستحمين الذين يقصدونها للعلاج فيستأجرون هذه الفيلات « البدائية » . وقد توقف صلاح أمام مركز الحرس لنأخذ راحتنا دقائق قليلة ، وكان حصناً قديماً يشرف على الوادي ، يقيم فيه الامير المطهر اخو الامام . أثار عندي

رغبة جامحة ، فخرجت من السيارة وجلست على حافة الطريق وتظاهرت بالتعب ، وطلبت أن يأخذوني إلى قصر الامير في الحال ، وقد عارض صلاح بشدة وغضب لأنه كان يريد أن نصل صنعاء في المساء ، ولكن أميراً في حصن ! هـذا شيء لا يراه الانسان كثيراً في حياته ، وقد تمسكت بموقفي ، وبعد دقائق اجتازت بنا السيارة باباً ضخماً ووقفت في ساحة الحصن .

ولم يكن داخل هذه الاسوار العالية إلا بيت مربع قليل النوافذ ، مررنا بالحرس في الدور الارضي ، ثم تقدمني صلاح يصعد سلماً ضيقـاً حتى وصلنـا حجرة الأمير ، وقـد رأيت سائق سيارتي الذي كـان ثائراً منفعلاً في مطار تعز ، يلقي بنفسه في الارض وينهال على أقدام الأمير تقبيلاً .

وكان من الحظ ان الوصول إلى هذا الامير أيسر من الوصول إلى أخيه الكبير ، وقـد استبشر بهذه الزيارة غير المتوقعة التي تذهب بملل العلاج والاستشفاء في هذا المكان المنعزل ، ولهذا فقد استقبلنا استقبالاً طيباً ، لم يكن في كامل ملابسه ، فقد كانت جبته الخضراء مفتوحة الازرار ، وكان حزامه وخنجره معلقين على الحائط ، أما عمته البيضاء ذات العذبة التي ترمز إلى انتسابه للعائلة المالكة فقد وضعها .. وذهب الامير إلى الحمام وتركني مع زوجته الاولى الـتي دعتني إلى تنـاول طعام الغداء .

وهكذا تعرفت بسيدة يمنية كبيرة ، ذات عينين سوداوين جميلتين في وجه شاحب ممتقع اللون ، وكانت ملامحها منتظمة وصوتها وحركاتها رقيقة ملائكية ، وشعرها يفصله فرق في الوسط ويتدلى ضفائر إلى الجانبين وتغطيه بمنديل خفيف عقدته تحت الذقن ، أما عنقها فتستره بوشـاح أبيض . وكانت ترتدي فستاناً من الحرير الاحمر طويل الاكمام وفوقه صديرية جميلة .

ورغم جهودي الكثيرة لم أحصل منها على غير عبارات الأدب العادية ، وقد عاد الامير بعد قليل يسيل منه العرق ، وتمدد يستريح وكنت أرغب في رؤية المياه المعدنية ، فعرضت على الامير أن آخذ معي نساءه إلى الحمام في سيارتي .

استحسن اقتراحي ، فأخذت السيدات في الاستعداد وافرغ صلاح السيارة ورفع خلف مقعده ستارة كبيرة تحجب داخل السيارة تماماً ، وقد غاصت زوجات الامير الاربع والوصيفتان في جوف السيارة وهن متلفعات بملاياتهن ، أما أنا فقد جلست في الأمام بجوار السائق .

وقد أثار وصولي إلى القصر عدداً من الناس فازدحمت الطريـــق بالفلاحين وكانت سيارة الجيب تسير ببطء وأمامها جنديان مسلحان يفسحان الطريق للسيارة ويرجمان الفلاحين بالحجارة ولكن دون أن يصيبا أحداً . وكانت ترفع الستارة أحياناً فاذا صحت أنا : « رجل » انزلت وارتفع صوت النسوة « يوه » .

ووصلنا الحمامات . وكانت أماكننا قد حجزت ونزلنا ، وكانت الحرارة خانقة ، والجدران الصخرية قاتمة لزجة . والنور يتسلل من فتحة ضيقة ، وفي الوسط بركة ضخمة يتصاعد البخار من مياهها ، والقاعات كثيرة واحدة بجوار الاخرى وعلى جوانبها مخادع مفروشة بالحصير ، لخلع الملابس ، وقد أشارت الاميرة الأولى بالسير وراءها .

وبسرعة خلعت ملابسي كلها ، على الطريقة الفرنسية وقلت لنفسي : « فلأتمتع بحمامات الجزيرة العربية » . وكانت هذه أجمل غلطة اقترفتها في رحلتي كلها فالمسلمات العفيفات يخلعن ثيابهن على طريقة المدارس الدينية الداخلية في فرنسا . وقد أغرقتني خلسة بنظرات فاضحة هاتكة .

جلست الاميرة متربعة على حافة البركة تغترف بيدها حفنات من الماء على جسمها دون ان تخرج من تحت الفوطة الاسفنجية. أين أنت ايتها الجارية الساحرة ؟ لوحة فنية أروع من لوحات انجرس .

يذكرني هذا المنظر بحمام أخذته بقميص النوم في مستشفى باستور بعد اصابتي بالحمى القرمزية تحت رعاية واشراف احدى الراهبات ، وأحسست بمرارة الخيبة فمررت الى الكهف التالي ، فوجدت تقدماً بسيطاً ، نساء أكثر شباباً وأقل بياضاً وضعن اقدامهن في الماء وتغطين من الخصر الى الركبة . أما الكهف الثالث فقد وصلني منه هدير المياه والمرح والصخب ووجدت هناك منظراً شيقاً .. زنجيتين شابتين .. الصدر بارز نافر ، فخورتين بالبدانة البادية عليهما وعاريتين تماماً ، وهنا لا أخشى على سمعتي وقد أخذت حمامي في هذا المكان ، وعندما خرجت كانت الاميرة الاولى قد انتهت من وضوئها وارتدت ثوب الصلاة وسجدت في الظل ناصعة البياض .

وعدنا في ساعة متأخرة فأشار الأمير بالنوم مباشرة واخذت أعد مرتبتي الهوائية . ولكن الامير عارض وقال في بلاد العرب يجب ان أنام كما ينام العرب ، فأحضروا مجموعة من اللحافات بينها كيس يتدحرج داخله اليمنيون ويقفلونه وهم يمضون الليل على نفس الفراش الذي جلسوا عليه طيلة النهار وكل ما يتمتع به المترفون هو مزيد من اللحافات تجعل المكان ليناً ناعماً ، وكلف الامير زوجته الاولى بالبقاء معي ولكن هذا لم يحز منها القبول ولعلي قد أخللت بأمر مرتب ومنظم كانت ستفيد منه وتنعم ذلك المساء ؟ ولهذا فقد تعلقت بعنق سيدها وسالت كلماتها دون انقطاع ا له من اصرار عجيب من جانب مخلوق طاهر كهذا ، ولكن الامير الذي يقدر واجباته كمضيف ظل لا ينثني ولا يلين .. وكل ما وافق عليه هو أن تكون معنا أيضاً خادمة وغادر الحجرة مسروراً ومعه زنجية كان يضربها مداعباً ومدللاً .

وكان اليوم التالي هادئاً ولم تكن لي رغبة في السفر وقد وجد صلاح مبرراً للتأخر وقد أمضيت مع النساء لحظات أخيرة فوجدت الاولى تزيد صفاء أما الثانية والثالثة فمتحفظتين وتسيران الى الانقراض تماماً ، والرابعة

لها عيون متقدمة وبشرة قاتمة وكنها لا تجرؤ على أن تفتح فاها ، وعلى العكس دخلت مع الامير في حديث طويل فقد كان منشرحاً منفتحاً ، ذكياً ، ولم تسعفني قواميس العرب السوريين والمصريين فوضعت لي في دفتر خاص قاموساً صغيراً « فرنسي — يمني » أكتب فيه ما اكتسبه من كلمات جديدة وقد تقدمت في هذا المضمار بمساعدة الامير . وساعدني في هذا طبيب الامير وحلاقه ومطربه . وهو رجل لطيف يبدو عليه التلق وقد تعلم في تركيا بعض الكلمات الفرنسية ، وهو هنا يشرف على علاج الامير ويسليه في صنعاء وكان طبيباً محبوباً عند أسرة نائب الامام وله في السوق دكان صغير يبيع فيه الادوية ، وقد ترددت عليه فيما بعد وكنت أضحك وانا أسمعه يقول من الكوة الصغيرة التي يسميها المعمل « أنا .. فيلسوف » !

ولكن هذه الوظائف العالية التي يتقلدها قد أوجدت له كثيراً من الحاسدين ، وقد وقع قبيل سفري ضحية دسيسة رخيصة من تلك التي يلفقونها في صنعاء اذا أرادوا التخلص من منافس ، فأكمام الرجل الطويلة التي يرفعونها ويعقدونها في الظهر تصلح ان تكون كيساً لنقل أشياء كثيرة وقد يعترضك واحد في الشارع ويضع فيها زجاجة تفوح منها رائحة الكحول ثم يتعلق بك ويتهمك بالسير مختل التوازن وبأنك تمل أسكرتك الخمرة ويأتي البوليس وتودع في السجن ، وقد كانت حياة هذا الفيلسوف العائلية مثالية فله خمسة أطفال أذكياء احسن تربيتهم واهتم بتنشئتهم ولما اعتقل ضاقت بهم الحياة وساءت أحوالهم .

وأراد أصدقاؤه ان يشتروا حريته وكان الاخذ والرد قد وصل قبيل سفري الى ثلاثين ريالاً بالتمام والكمال ..

أما في حمام علي فانه لا يزال في القمة فهو يتمتع برضاء الامير وكان غناؤه جميلاً جداً وهو يعزف أيضاً على آلة شبيهة بالقيثار ، وقد حذرني الأمير بأسف واضح أني لن أسمع في صنعاء ألحان هذه الآلة فهي محرمة

في صنعاء . وفي تعز بالفعل لم أر الا قيثارة واحدة عند أحد المرضى وقد اعترف لي أنه يعزف عليها خفية في ظلام الليل ودعوته الى منزلي وقام بالكشف الاولي وقال لي ان البيت ليس مستوراً بصورة كافية وطلب ان نترك الراديو يشوش اثناء العزف . وبهذا حرمت سماع أي شيء .

انتظرت المساء بفارغ الصبر ، فقد عرفت ان سكان الجبال المجاورة لحمام علي سيقومون ببعض الرقصات أمام أميرهم ، وجاءوا وظهرنا من النافذة نستند على السجاجيد والوسائد ودعاني الامير للجلوس الى جواره ولم تظهر امرأة واحدة لا أميرة ولا فلاحة في هذه الاثناء . وكان مصباح الغاز ينير الساحة للراقصين وللفرقة الموسيقية التي تألفت من المزامير والطبول .

وكانت الرقصات الاولى شبيهة برقصات عيد النصر في تعز ، وكان زميلي الموسيقار يترجم لي معاني الكلمات ، وقد فهمت المشية العذبة الفاترة في هذه الرقصة ، انها رقصة الصداقة والود بين الرجال ، وكانت أغنيتهم تقول : « الجبل عظيم وجميل ، وشفاه حبيبي كالعسل وقد التقت شفتانا ونحن في الطريق الى الجبل .. »

وبعد هذه الرقصة رقصوا رقصة الحرب ، فتواجه رجلان ولوحا بالخناجر ، وتحركا بوحشية ثم هدأ بينما تقدم أحدهما الينا .

وكان شاباً لا يلبس الا فوطة حول خصره ، ورأسه غابة من الشعر الاسود المجعد المرسل الى الكتفين .. أغمض عينيه ، وأصبح وجهه غريباً وأخذ يهز ركبتيه وقد ثناهما في انحناءة صغيرة فوق قدميه اللتين ظلتا ثابتتين في الارض ، والطبل يصحبه وحيداً هادئاً ، أمسك بخنجره وفي الحال ألقيت خمسة خناجر إلى الارض في نصف دائرة أمامه وبعينين مغمضتين ورأس يتدرجح الى الامام والى الخلف وشعر منكوش في كل جانب التقط الخنجر الثاني في سرعة خاطفة .. ثم الثالث .. والرابع والخامس والسادس ، فأصبح في كل يد ثلاثة خناجر ، ودقات الطبول تزداد سرعة ولم نعد نرى الا دوامة من أذرع وشعر ونصال لامعة

ووجه مقلوب ، كل هذا فوق قدمين ثابتتين لا تتحركان .. وفي عنفوان الرقص وقف فجأة وجذبه الرجال ولم يبد على وجهه أي تأثر .

وفي صباح اليوم الثاني استأنفنا السفر وكانت طريقنا في الجهة الشرقية لجبل حراز ، والصعود شاق مرهق في المرتفع الذي يفصل سهل صنعاء عن سهل ذمار . وديان ضيقة تحيط بها الجبال وعلى جوانب الطريق حقول وقرى تجثم فوق أصغر الروابي والآكام ، ومن جديد تقاطعت طريقنا مع قنوات الري . لقد وصلنا الى ارتفاع ٢٢٠٠ متر وقد بدأنا نشعر ببرودة الجو ، وفي السهل ارتفعت في بعض الاماكن زوابع وعواصف من التراب مخروطية الشكل ورأسها في أسفل ، وكانت تنثني وتتلوى كالراقصة وقد قال صلاح انها معارك الجن .. وقد قطعنا قرية معبر الصغيرة دون ان نتوقف فيها .

أما صنعاء فقد كنت أنظر اليها في الحلم . لقد فصلتني زبيد وعبال وحمام علي عن العالم نهائياً ، وهأنذا أفكر فيما سأكون عليه هنا .. انني في وضع ممتاز . فأنا امرأة ولهذا فسيأذن لي الرجال بالوصول الى حياتهم الزوجية والتعرف على أسرار نسائهم الخفية وأنا طبيبة ولا بد ان يسمح الرجال لأنفسهم فيعترفون لي بالمساواة في حياتهم .

وقد أستطيع بهذا ان أعرف الجانبين في المجتمع الاسلامي وان أفهم التوازن العميق وأدرك اذا كانوا هنا قد وجدوا أفضل الحلول ، أحسن من أي مكان آخر ..

الفصل الثامن

صنعاء

الوصول الى العاصمة – الانجيل والف ليلة وليلة– المفاجآت في دار الضيافة – الانتقال الى بيت ابو مسار .

كم يشعر المرء بالخيبة وهو يصل بالطائرة الى مدينة جديدة انها لبعثرة لحب الاستطلاع وضياعاً للأمل حين يضع الانسان قدميه في عالم قد عرفه وقد حدده من الجو وقد رآه تحته خريطة مفروشة واضحة المعالم ومع ذلك فاذا كان الغرض هو تقصير لحظات الوداع المؤلمة حين تأتي النظرة الاخيرة وتذهب بكل الذكريات في وقت واحد . فان الطائرة مناسبة .. ولكن مدينة من مدن الشرق يجب ان تكون نهاية لسفر هادىء بطيء على نفس الطريق التي سلكتها القوافل القديمة . فبهذا وحده تأخذ المدينة قيمتها الانسانية وطابعها الحقيقي .

وصنعاء مدينة خارقة للعادة ، حتى ولو كانت الرؤية من الجو ،فهي مزدحمة محصورة داخل أسوارها ، ولكنها في نظر المسافر الذي قطع الجبال سعياً اليها ، خلابة رائعة فقد قضى أياماً لم ير خلالها الا قرى صغيرة بائسة معلقة على قمم المنحدرات الصخرية وأكواخاً تعسة تنم عن

حياة بدائية وأقل من بدائية ثم فجأة يرى أمامه مدينة ضخمة سكانها ستين ألفاً . في موقع رحب على سهل فسيح ولها كل مظاهر العاصمة الكبيرة ، مدينة لها عماراتها الشاهقة المتلاصقة الفخمة المغطاة بالزخرفة والنقوش البيضاء وتعلوها المنارات العديدة .. ان هذا التناقض يأخذ باللب لكأن هذا المجموع المعاري المتناسق بهذا الغناء وهذه الوفرة برز بفعل السحر في اطار يكاد يكون كله من المعدن ، ان هذه هي الاصالة العميقة لصنعاء وهي التي كونت لها مجدها منذ أزمان طويلة في جنوب الجزيرة العربية.

ولا يثير دهشة الاوروبي أكثر من مدينة عظيمة بلا نهر ، بلا ينابيع على سطح الارض ، ان هذا نوع من التحدي للقوانين الاقتصادية ولكن المياه الجوفية على عمق ثلاثين متراً تغذي الآبار التي لا تنضب طوال العام وبفضلها ظلت صنعاء منذ ألفي سنة مركزاً طبيعياً للعربية السعيدة .

ولكن الماء في هذا الارتفاع لا يخلف ذلك الفيض النباتي الذي نراه في الواحات الاستوائية . فالحقول في نهاية شهر يناير قد حرثت ،والاشجار قد تساقطت أوراقها ، وكانت طريقنا تخترق مقابر صخرية كثيرة تشهد على وجود حياة قديمة جداً وكانت التربة سمراء اللون والجبال المحيطة رمادية وتميل الى الزرقة ، وكلما اقتربنا في هذا المنظر الهادىء برزت صنعاء من فوق أسوارها ، ناصعة البياض ، ساطعة تحت شمس الظهيرة لا وصف ولا أية صورة فوتغرافية كانت قد كشفت لي جمال منظر كهذا .

أسوار من الطين كثيفة وعالية تزينها أبراج ، تحيط المدينة من كل جانب ، أبواب تقفل في الليل ، والباب الرئيسي هو باب اليمن الذي يفتح الى الجنوب ، والذي يجب ان يدخل منه الاجانب ، وهذه قاعدة متبعة بدقة تفسرها خرافة قديمة .. فقد كان في عقد الباب طلسماً أو حجاباً حامياً فاذا اجتازه العدو او الثعبان السام خر لتوه صعقاً .. ولكن الباب العربي القديم قد حل محله للاسف باب تركي .. صنع حديثاً ،

وقد اختفى الطلسم .. فليحفظ الله هذه المدينة ولتحرسها حكمة الامام .:.

ومن المطار يمر المسافرون حول المدينة القديمة حتى يصلوا الى دار الضيافة التي تقع خارج الاسوار ، أما القادم عن طريق البر فانه سيجد العجب العجاب وهو يمر في قلب المدينة . واجتزنا باب اليمن ووقفت السيارة ، وأسرع عساكر الحراسة يرحبون بنا وقد أعجب صلاح ان يكون موضع الاهتمام فأطال لحظات سعادته هذه ، وظل يبحث عن التصريح في ثنايا ثوبه ، وتجمع الناس حولنا وكان الاطفال في الصفوف الاولى وخلفهم الشباب في ثيابهم الفاتحة الاون ونظراتهم الملحة المحبة للاستطلاع ، أما الكبار فقد ظلوا بعيداً محتفظين بوقارهم ، وقد تبينت الحال على الفور من كل هذا .. ان صنعاء ليس فيها من الاوروبيين سوى ثلاثة .

وتخلصنا من الناس وأخذنا طريقنا الى دار الضيافة ، وكانت السيارة تمر بنا في شارع واسع تتفرع منه شوارع ضيقة ، وعلى الجوانب بيوت مؤلفة من خمسة أدوار أو ستة حديثة بل وغريبة ، وعلى واجهاتها نوافذ عديدة ، والجو في صنعاء معتدل دائماً فلا هو حار ولا هو بارد ولا يتعدى ٣٠ درجة مئوية في شمس يونيو ، ولا يقل عن الصفر في بعض ليالي يناير ، ولهذا فالبيوت ليست محكمة القفل ، كما في كثير من البلدان الآسيوية حيث تأخذ الشكل المعروف لجسم هندسي نادر الفتحات واذا كانت درجة الحرارة في هذا الارتفاع لطيفة فان الجو صاف جداً دائماً والرمال كثيرة ، وتفادياً للرمال يرتفع الطابق الارضي ويبنى من الحجارة ولا تفتح فيه نوافذ أما الطوابق التالية فمن الآجر والطابق العلوي كثير النوافذ وهو أكثر الطوابق صحة وسلامة وتشريفاً وزخرفة .

وتظل العين في شوارع صنعاء مأخوذة بهذه العمارات الشاهقة وتشاهد أجمل المناظر من أعلى طابق يطل على المنازل المجاورة . والزخرفة الرئيسية في بيوت صنعاء هي النوافذ الواسعة العالية ، ولا يمكن لاحد ان يتصور

المدينة دون ان يفهم هذه النوافذ . انها تتكون من جزءين : الجزء الاسفل وهو النافذة بمعنى الكلمة ولها عدة مصاريع خشبية ، والجزء العلوي وهو عقد من الزجاج الملون الثابت الذي لا يفتح ، ومن أسلوب صناعته ونوعها يعرف الانسان تاريخ البناء ، وقد عرف اليمنيون كيف يصنعون هذه العقود الزجاجية وكيف يتفادون تراكم الغبار والرمال عليها ، وقد رسموا عليها زخارف عديدة بالزجاج الملون الذي يعكس أشعة الشمس .

ويستطيع الانسان هنا ، لحسن الحظ ان يتنزه وأنفه في السماء . ودون خطر فالشوارع خالية من الدراجات والسيارات ، والارض مفروشة بالرمال النظيفة كممرات قصر من القصور ، وتمر بنا سيارة الجيب برجال يتنزهون وايديهم متشابكة وبهائم تسير بخطوات قصيرة سريعة يسوقها رجال طاعنون في السن هزيلون يضعون على أكتافهم جلد خروف وكأنهم خرجوا لتوهم من الاسفار المقدسة القديمة . أما الخيل الفاخرة الاصيلة فهادئة ساكنة تحيط رقابها عقود من الحرير المقصب ويمتطيها أسياد ذوو هيئة صارمة يحتزمون بالخناجر ، ويشمرون القمصان اللامعة ويرفعونها فوق السرج ، وكأنهم خرجوا مباشرة من احدى قصص ألف ليلة وليلة وقد تأرجح خيالي بين الوصية القديمة وأقاصيص شهرزاد وسبب لي هذا كله دواراً غريباً . قد يجد الانسان ، في بقاع من العالم غير صنعاء حياة غريبة وغير عادية .. الا ان هذه البقاع ستكون بلا شك بعيدة عن الحضارة والمدنية ولكن الانسان يجد في كل بلد متمدين أي أثر للحضارة الاوروبية أما صنعاء فليس فيها شيء على الاطلاق ، ان شيئاً من الغرب لا يعكر هذا السحر وتلك الفتنة . وقد صعب علي ان أهضم كل ما حولي وكان وقع الدهشة والاعجاب بكل هذا كوقع الشحنة الكهربائية لقد ذهلت في اللحظة الاولى ، ولكني بعدئذ أحببت صنعاء من أعماقي :

ودار الضيافة طابق واحد بني أثناء الاحتلال التركي ، وهو يختلف قليلاً عن طريقة العمارة التقليدية .

وتقع في الوسط نافورة وبركة محاطة بالزهور ، والباب الكبير مدهون بالألوان الازرق والاخضر والاحمر ويحرسه نحو عشرة عساكر . وقد وضعت صفوف السرر على جانبي الطريق يقضي عليها العساكر أيامهم جالسين في استرخاء . وفي أيديهم قصبة النارجيلة . وأمامهم نافورة يتأملون هديرها . ويشغل الطابق الارضي المسافرون العاديون أما الطابق العلوي فينزل به الاوروبيون والسفراء . والحجرات موثثة منذ العهد العثماني بالسجاد الفارسي والمناضد المستديرة والكراسي الصلبة العالية الشبيهة بالكراسي الفرنسية في عهد هنري الثاني . وعلى النوافذ ستائر طويلة ضيقة ، ولكن الضيوف قلما يصلون الى صنعاء . وأنا لهذا وحيدة في هذه الدار الواسعة .

وحجرة الاستقبال خاصة بالمناسبات ، وقد كانوا يقدمون لي وجبات الطعام في حجرة طويلة في زواياها خزائن مصبوغة بألوان ذهبت اليها بعد ظهر ذات يوم لأشرب كوباً من الماء ، فسمعت شخيراً خفيفاً خيل الي أنه يأتي من مائدة مغطاة بجوار الحائط في نهاية الحجرة ، وكانت قصبة المداعة (النارجيلة) تتدلى الى الارض ، ورفعت القصبة .. فماذا رأيت ؟ لقد رأيت رئيس السفرجية الذي قدم لي الغداء ، انه يأخذ راحته فوق كومة من الوسائد ، وقد تعود ان يقضي القيلولة في هذه البرودة المنعشة تحت موائد حجرة الطعام .

وقدم لي مدير دار الضيافة شاباً جميلاً طويلاً نحيفاً ، يعلو شفتيه مشروع شنب ، ويرتدي جلباباً طويلاً أحمر اللون ، وعمامته كبيرة دمشقية زرقاء فضية اللون تنتهي عذبتها بأهداب وقد قدمه المدير باهتمام كبير هدية لي .. نعم انه خادمي .. وقد ظللت لحظة مبهورة ، بينما يفتر ثغر أحمد عن ابتسامة خجولة وهو يخفض عينيه في حياء كفتاة يقدمها أبواها ..

أما عبده الذي أصبح مترجمي فيما بعد فقد عرفته .. انه رجل قصير نحيف في نحو الستين من عمره . يضع على رأسه عمامة من الصوف الأسود

ويلبس سترة من الكاكي ويلتحف بشال وردي اللون ، ويحتزم بخنجر جميل جداً ، انه الترجمان المعتاد لكل الفرنسيين في صنعاء ؛ فقد كان سائقاً في شركة فرنسية للملاحة . بل انه تزوج بفتاة فرنسية، وابنة صول في الجيش الفرنسي ، أما زوجته فقد ماتت ، وبعد عودته الى اليمن كوّن عائلة جديدة . وقد حدثوني عنه كثيراً ولا يخلو وجهه المعبر من الطيبة . وقد سألني في أول مقابلة : « هل صحيح ، يا حكيمة أنك رفضت ركوب الطائرة في مطار تعز ..؟ » . وقد قلت له كما قلت لنائب الامام اني لا أستطيع ان أعمل شيئاً بدون حقائبي ، وقد أيدني وأخذ يعدد مزايا السفر براً في العالم كله وفي اليمن بصفة خاصة، وكان يتحدث برقة ومهارة حتى خيل الي اني أستطيع أن أتخذه صديقاً .

كنت أود ان أترك دار الضيافة وان يكون لي بيت ، وان أصبح جزءاً من البلد وقد كلفت عبده ان يستعجل الترتيبات ؛ وقد أخذني حالاً لزيارة البيت الذي كان قد أعد لي ولم يكن بعيداً عن دار الضيافة وهو بيت قديم لحاكم تركي ويطلقون عليه بيت « أبو مسمار » . وقد انتقلت ملكية البيت بعد رحيل الاتراك الى الحكومة اليمنية التي خصصته للاطباء الفرنسيين . وهو بيت طويل ذوطابق واحد وتتوسط الحديقة شجرة الغار الوردية بكل جلالها ولا بد أنها كانت رائعة ممتعة ؛ ولكنها لم تسق منذ رحيل الدكتور ريبوليه .. ولم تعد لهذا السبب سوى كومة من الكلأ الجاف يعبث بها الغزال ، وفي الحديقة حجرة أمامها بركة مربعة ونافورة والمفرج أو قاعة الاستراحة التي يجلس فيها الاصدقاء بعد الظهر ولا يخلو منها أي بيت محترم . وقد خصص جانب من البيت للدكتور ريبوليه ومساعدته ، وتنتظرهما فيه حقائبهما وامتعتهما .

أما أنا فقد أعدوا لي الجانب الذي كان خاصاً بالحريم والذي نزلت فيه الدكتورة جنفيف لانوي في العام الماضي ؛ وجدرانه بيضاء، وتبدو في سقوفه نتوءات بارزة . للاخشاب المصبوغة بالجص ، أما بيت الماء فواسع

مفروش بالبلاط المربع وفيه حوض ماء وموقد للفحم فوقه غلاية لتسخين ماء الاستحمام . وقاع الحجرات من الجص ومفروش بالحصير . وللجص اليمني مزية التماسك والالتصاق النادرة ، فيستطيع الانسان ان يتكيء على الحائط دون ان تتأثر ملابسه ، واذا أثبت مسماراً فلا يحدث شقوقاً ولا تفتتاً .

والابواب الداخلية الخشبية الغليظة في البيوت اليمنية منخفضة ولا شك ان السبب هو ندرة الخشب ، ولكن بعض المصريين يرجعون هذا الى سبب آخر ، فهم يقولون ان في اليمنيين انفة وكبرياء ، وان أحد الائمة القدماء وقد ساءه ان يرى رعاياه هكذا ، أصدر قانوناً بحدد ارتفاع الابواب . وبهذا أرغم كل انسان على التحية والانحناء عند الدخول .

وكما ان جمال البيوت الخارجي يكمن في النوافذ ، فان هذه النوافذ هي أيضاً تتجلى فيها الاناقة والبهاء في الداخل . فهي لا تعلو عن قاع الحجرة الا بنحو ثلاثين سنتيمتراً ، وهذا مناسب حتى يتمكن الجالسون على الفرش والمساند من النظر الى الخارج . وبين النافذة والعقد الرخامي يوجد دائماً رف يضعون فيه كل شيء ، فالغرف خالية من الاثاث ، والعقود الزجاجية ترتفع الى السقف ، وهي تتألف من قطع زجاجية متعددة الألوان يصل بينها شريط من الجص الابيض وتنفذ من العقود الزجاجية أنوار بهيجة مفرحة وتنعكس على الجدران البيضاء . وقد شعرت على الفور في هذه الحجرات الصغيرة الرائعة أني في بيتي .. وقد وافق مدير الضيافة على انتقالي في الحال الى هذا البيت ، وقد اختار لي الاثاث الضروري من مخازن دار الضيافة ، وقام العساكر بنقله وكان كل شيء قد أعد في نفس المساء ، دولاب وسرير في حجرة النوم ، كراسي في سفرة الطعام وحجرة لفحص المرضى الخصوصيين ، وصالون عربي ساحر مؤثث بالوسائد والفرش والسجاد .

وانتهينا من اعداد البيت واحتجت خادمة ، ولكن عبده قال لي عندما

استشرته . ان هذا مستحيل ، فالعرب يرفضون أن تكون نساؤهم خادمات في بيوت الغير ، ولكن أحمد ، خادمي الجميل في دار الضيافة سيقوم بالطبخ والكي ، ولكنه — بكل تأكيد — لن يقبل أن يتنازل ويكنس ويحضر المياه الا انه وجد فتاة في الخامسة عشرة مرحة تفيض حيوية اسمها هاجر .

وفي بيت أبو مسمار مستخدمون ثابتون ، وهم البستاني والحرس . وكان البستاني رجلاً قوياً في سن الاربعين ، استأجر من الحكومة بستان الخضر والفواكه المتصل بالبيت ، ومهمته توفير المياه لنزلاء البيت ، ويظل البعير يصعد وينزل دون توقف في طريق منحن ، حتى يرتفع الماء من البئر العميقة ، وفي كل وقفة يفرغ الدلو ما حمله من ماء ، في حوض مرتفع وتتحرك النافورة وتمتليء البركة التي تفتح كل يومين لسقي البستان ، وكان البستاني يسكن في حجرة بائسة لا نوافذ لها تقع تحت طريق البعير المنحني ، وحياته بائسة تعسة تعتمد على ما يجنيه من الخضراوات والفواكه ومعه زوجته وأولاده وأمه ، وكثيراً ما كنت أزوره فأجده مشغولاً بتغيير السيور الجلدية لحبال رفع المياه ؛ ومشكلته المعتادة هي التفكير فيما اذا كان يستطيع ان يجني محصوله من الخضروات ويبيعه بنفسه ، أم انه سيضطر مقدماً للاستسلام وتقديم الجزر لتاجر كبير من تجار السوق ، وكان سعيداً وهو يرى الازهار الافرنسية تنبت وترتفع الى الدور الثاني وتظل مزهرة ثمانية عشر شهراً دون انقطاع ، وكان أمله ان تكون له آلة رافعة للمياه يوماً ما ..

أما حرس بيت أبو مسمار فقد كانوا ثلاثة من العساكر اثنان لمقصورة ريبوليه ، وواحد لمقصورتي ، وكان لهم مكان صغير عند المدخل يعلقون على جدرانه خناجرهم وبنادقهم . وينامون على الارض فوق الحصير ، أما طعامهم فيطبخونه على الموقد خارج غرفتهم وكانت مهمتهم ادخال المرضى بعد أخذ بقشيش يتناسب مع أهمية الزبون ، وكل ما طلبته

منهم هو الا يأخذوا شيئاً من الفقراء . وكانوا بجانب هذا يحملون الرسائل لأنه ليس في صنعاء بريد داخلي ، وكانوا بدون شك يقومون بالتجسس ولكن جاسوساً تدفع له الحكومة ريالين في الاسبوعين لا يمكن ان تكون له خطورة . ومع ذلك فلم يكن هناك ما يقولونه عني ، كما اني لم أجد ما أشكوه منهم ، وهم في الغالب ، يأتون من الريف ، ويظلون عندنا طوال الفترة التي تعسكر فيها فرقتهم في صنعاء ، وهم لهذا يتغيرون . ونشأ عن هذا أسف متبادل في أغلب الاحوال . وقد شهدت منهم أثناء وجودي شيخاً ذا لحية كثة وابتسامة لطيفة وثانياً ، أبله مسكيناً وشخصاً ثالثاً قلقاً غامض النظرات ، ورابعاً كان قاتلاً ولكنه كان بريئاً رفيقاً . وأخيراً شاباً جميلاً ذكياً ، وقد فصل بسبب هفوات صغيرة وأصبح مباشرة محل ثقة أمير سنتحدث عنه فيما بعد ، وهؤلاء العساكر جندون لخدمة الحكومة اليمنية لعدد غير محدود من السنين ، وليس في استطاعتهم ان يتركوا الجندية بمحض ارادتهم ، بل انهم يعيشون حياة لا طموح فيها ولا أمل ، وهم فقراء الى درجة لا يستطيعون معها ان يكونوا عائلات ، وهم لهذا يقضون أيامهم بطريقتهم الخاصة .

هذا هو بيتي ولا ينقصني الا العربة والسائق ، وقد قدموا لي عبد الله وهو من جنود المدفعية ، فالعربات في اليمن كلها تأتي من الخارج ولا يستطيع قيادتها الا رجال المدفعية ، وكان عبد الله يحمل شارات اختصاصه بكل فخر .. شنباً ولحية دائرية .. وقد بعثت نظراته القوية الجميلة عندي الثقة التي دامت ولم تحدث منه ما يضعف هذه الثقة فيما بعد . وقد كان محظوظاً مرحاً محبوباً عند النساء ، وكان في أكثر أوقاته غارقاً في مغامراته العاطفية ، وفي خلال هذه الاوقات كان أخوه الصغير محمد يقوم بعمله .

وقد جاءني عبده بعد يومين يقول لي والسرور باد على وجهه : « عربتك جاهزة .. يا حكيمة . وسيأتي عبد الله في الحال » وبالفعل

اقترب الركب سريعاً وسط الجلبة والضجة ، ولا بد أن أعترف أنه كان موكباً رائعاً : حصان أسود صغير جميل ، عربة خفيفة أنيقة مجهزة بالوسائد الصغيرة ، ثم عبد الله في ثيابه البيضاء وقد غرس في عمامته أغصان النصر والظفر وتجمع سكان الحي ولا حد لاعجابهم ، ولكن ما ان تحركت العربة حتى أحدثت أصواتاً طائشة مقلقة ، فتوقف عبد الله وشد اليه الزمام وصرخ في الناس ان يفسحوا له الطريق ، وقد التفت الى عبده متسائلاً ، فأجاب بكل هدوء : « هذه يا حكيمة هي المرة الاولى التي يربط فيها هذا الحصان الى عربة ، فهو لم يروض بعد ، وسنذهب إلى المستشفى بمجرد ان يتعلم جر العربة » .

الفصل التاسع

مدينة صنعاء

المدينة القديمة – حي بئر العزب – قاع اليهود –
باب خزيمة – سيف الاسلام علي والاذاعة

كان جوادي الحجاب ذا طبع لطيف ، ولكنه كان في حاجة الى أيام عديدة حتى يتعود على الانتقال . وقد استقبلت في هذه الفترة بعض الزوار الذين وصلوا للترحيب بي ومنهم زميلي الدكتور فيبروني . وكان الدكتور فيبروني هزيلاً في نحو الستين من عمره وهو يقيم منذ زمان طويل في صنعاء في بيت كبير مع خادمين وكلبين .. ويبدو انه لا يحب الحياة الاجتماعية فرغم ان علاقتنا كانت ودية فقد ظلت محصورة في نطاق العمل . أما الميكانيكي جيمنياني وزوجه وأولاده فقد انعزلوا وحيدين ولم تسنح لي الفرص لرؤيتهم كثيراً .. وعلى العكس .. فقد صادقت القاضي محمد راغب بسرعة وهو دبلوماسي تركي قديم بقي في اليمن بعد استقلالها وزيراً للامام يحيى وهو يجيد اللغة الفرنسية . وقد تقدمت به السن فأصبح نصف متقاعد ، ولكن كل هذا لم يؤثر في مزاياه ، وقد جعل منه ذكاؤه الحاد وعطفه وكلمته ودهاؤه دائماً أحسن مستشار للاوروبيين .

وقد كانت الجالية في عهد الامام العجوز أكثر عدداً منهـا اليوم . فقد كان في صنعاء عشرات من الايطاليين ، والانجليز ، وبعثة طبية سوفييتية ، وأول بعثة فرنسية – أما الآن – فالامام مقيم في تعز والعاصمة القديمة نائمة . وكل من فيها يذكر بأسى أيامها الحلوة الماضية .

واذا كان المترددون علي في بيتي قليلين فان الطلبات كانت تنهال علي لزيارة أصحابها في بيوتهم . وبفضل هذه الزيارات عرفت المدينة بسرعة. وصنعاء من الشرق الى الغرب تتكون من أجزاء ثلاثة متميزة تماماً ، المدينة القديمة – حي بئر العزب حيث تقع دار الضيافة وبيت أبو مسمار ثم حي اليهود :

أما المدينة القديمة فهي أقدم أقسام صنعاء وأكثرها اتساعاً ويسكنها قرابة أربعين الفاً ؛ وهي تمتد في الشرق الى سفح جبل نقم الذي يلحظ الانسان في قمته خيال حصن قام على أطلال قصر سام بن نوح ، أبي الساميين جميعاً .. وارتفاع أسوار المدينة عشرة أمتار وتعلوها طريق دائرية ويعززها مائة وثمانية عشر برجاً . وفي هذه الاسوار أبواب ستة ففي الشرق باب القصر ، وفي الشمال باب شعوب ، وباب الشقاديف وفي الغرب جهة حي بئر العزب باب السباح ، وفي الجنوب باب اليمن وباب خزيمة

ولباب خزيمة أسطورة .. فقبل سبعمائة سنة كانت خزيمة شابة مسيحية ابنة أوروبي مارس في صنعاء تجارة البهارات والتوابل ، وقد أشرف على تربيتها طباخ عربي عجوز وعلمها قراءة القرآن ، وبعد ان كوّن هذا التاجر ثروة كبيرة صفّى أملاكه وعاد الى بلاده مع ابنته وخادمهما الذي رغب في السفر معهما .

وقد نشأت خزيمة على الحكمة والرصانة والجمال ، ولم تستطع انتنسى شمس اليمن المشرقة وهواءها المنعش وجبالها الجميلة ، فظلت حزينة ورفضت ان تتزوج وقد مات أبوها ثم مات خادمها الوفي وتركها في وحدة تامة

واخيراً ماتت هي وأوصت بأراضيها وقصرها للفقراء . ورغبت ان تدفن ومعها حقائبها المليئة بالذهب ، وفي يدها رسالة مكتوبة باللغة العربية ، ولم ير الناس في هذا العمل في ذلك الزمان سوى طلسماً شيطانياً .. ولكنهم مع هذا نفذوا وصيتها .

وكان يعيش في صنعاء ، في نفس العصر ، رجل متعبد ، وهب نفسه للصلاة وتلاوة القرآن ، وذات مساء رأى في الحلم خزيمة التي عرفها وهي طفلة ، وكانت ترتدي ثوباً أبيض اللون كأي فتاة مسلمة ومدفونة على نفس الارض بجوار باب من أبواب صنعاء ، وكانت تمسك بيدها رسالة طلبت منه أن يوصلها الى الامام ، وكان الحلم حياً قوياً واضحاً لم يجد معه الرجل أي مجال للتردد .

وفي الصباح ذهب الرجل مسرعاً الى الامام وطلب منه أن يسير وراءه وقد تبين المكان بسرعة ، ولم يحفروا الا قليلاً حتى بدت خزيمة ، لقد كانت موجودة .. جميلة .. نضرة ، ماتت في وطنها البعيد ، ولكنها دفنت بمعجزة في اليمن ، ورقدت على حقائب الذهب ، وكان في يدها رسالة فتحها الامام فوجد ان خزيمة قد قدمت ثروتها للفقراء في صنعاء : أولئك الذين تحب ان تظل بجوارهم الى الابد ، وبهذا الوقت بنى الامام بيوتاً ، وحفر آباراً ، ووزع على البؤساء الاراضي الواقعة في جنوب المدينة ، وكان كل واحد يود ان يدفن الى جوار هذا القبر المعجزة ، ولا يعرف أحد مكان هذا القبر اليوم ، ولكن مقبرة واسعة تمتد بجانب باب خزيمة .

وأقدم أحياء المدينة في الشرق بجوار القصر ، والقصر قلعة ضخمة تقوى أسوار صنعاء على منحدرات جبل نقم . وبين باب اليمن والقصر يسير شارع واسع ترتفع الاشجار على جانبيه ، وتوجد بجوار الاسوار بيوت عالية ويرجع تاريخها الى عدة قرون ، ويعيش فيها كثير من عملائي البارزين بينهم قاضي اليمن الكبير يحيى الشهاري ، ولكن ثلاث

البيوت لا تعرف النوافذ الزجاجية حتى الآن ، فنوافذها صغيرة ، بل ان العقود الزجاجية التي لا غنى عنها فوق أية نافذة في صنعاء ، ليست في هذه البيوت الا عبارة عن لوحين رقيقين من الرخام ، موضوعين الواحد فوق الآخر بصورة فائقة الاناقة والجمال ، ومع هذا فقد يعاد بناء الدور العلوي أحياناً فتصبح نوافذه حديثة جيدة . وحجرة الاستقبال توجد دائماً في الدور العلوي وهي التي يسمونها هنا « المفرج » وهو مفتوح من جهات ثلاث وأمامه شرفة تستطيع النساء ان يتنزهن فيها دون ان يراهن أحد .

ويوجد في الشارع بجانب مدخل البيت الرئيسي بنيان صغير أمامه درجة واحدة وهذا يدل على ورع صاحب البيت وتقاه فقد بناه من أجل المارة الذين قد يحملون شيئاً على ظهورهم ، ويشعرون بالتعب وهم يسيرون به ، فيضعون هنا ما على كاهلهم ويستريحون قليلاً ، ويدعون لصاحب البيت ويشكرون الله .

ويبدو في واجهة البيت شريط من الجبس الابيض يمتد من أعلى البيت الى أسفله ، وهو أكثر اتساعاً في أسفله منه في أعلاه ، وفيه فتحات صغيرة تتصل ببيت الماء في كل طابق وتتدفق منها المياه المستعملة الى الخارج لتصل الى البالوعة في أسفل البيت ، أما المدر الداخلي للمراحيض فيصب في فتحة مكشوفة في الشارع بجانب البالوعة ، ومن المهن الصغيرة في المدينة ، جمع هذه الفضلات من فتحات البيوت ، وصنع السماد منها والمحروقات ، وليس في صنعاء أي وسيلة أخرى للمجاري ، الا أن الهواء الجاف والشمس القوية ، يمنعان انتشار الرائحة الكريهة .

ولم يتغير شيء في هذا الحي منذ زيارة نيبور .

وفي هذا الشارع منذ ثلاثمئة سنة مر ذات يوم موكب الفضيحة والعار فقد تمرد شاب على الامام ، فلطخوه باللون الاحمر وربطوه على ظهر جمل ووجهه الى الوراء ، ومروا به أمام بيته قبل ان ينفذوا فيه الاعدام

واحتجاجاً ومعارضة لهذه الاهانة الموجهة الى شرف الاسرة ، على هذه الصورة المشينة ، ألقت أخت هذا الشاب بنفسها من النافذة ، وتهشمت أمام الموكب . (إرضاء للامام) !!

ولعل مستوى الشارع قد ارتفع منذ تأسيس المدينة ، ويذكر الهمداني المؤرخ اليمني الذي عاش في القرن الثامن ، ان قصر غمدان الذي شيد قبل الميلاد بزمن ، يقع في هذه المنطقة .. وغمدان قصر مؤلف من عشرين دوراً تعلوها شرفة ومفرج سقفه من الرخام ، وكان هذا أول بناء شاهق في صنعاء ، وأول بنيان يشيد بالآجر بدلاً من الطوب النيء، ويقول الهمداني ان هذا الفن الجديد قد جاء الى صنعاء من الشمال ،ومن النصوص القديمة يلمس الانسان ان أسلوب الحارة في صنعاء يرجع الى نفوذ سكان ما بين النهرين ، وان هذه القصور ما هي الا مخلفات بابل .

ويصل الانسان في القصر الى قلب المدينة حيث الاسواق والجامع الكبير . والاسواق مدن صغيرة داخل المدينة الكبيرة ، فلا تزال حتى الآن مركزاً لحرف حية جداً ، ولا تستطيع السيارة المرور فيها ،واذا سار الاوروبي وحيداً فان الزحام يشتد حوله ولا يستطيع ان يرى شيئاً ، وقد ترددت عليها وأنا ممتطية جوادي . وأحياء صنعاء تتخصص في مهن مختلفة فمصانع الانوال بجوار القصر ، وطاحونة الزيت بالقرب من باب اليمن وصقالو الاحجار الكريمة في السائلة ، وبجانب الجامع الكبير يجلدون الكتب.

والجامع الكبير يرجع عهده الى القرن السابع وهو واحد من أكرم مساجد الاسلام ويحتمل ان يكون قد شيد في مكان كنيسة مسيحية ، الا ان النقوش القديمة القليلة لا تسمح الا بمجرد احتمالات ، وهو بناء مربع ضخم مكوّن من رواق مسقوف حول بهو في وسطه بناء شبيه بالكعبة، ولكنه فارغ ، وهو على العموم ، ليس فاخراً ، وأعمدته خشنة ، وأرضه مفروشة بسجاد من الصوف الابيض والاسود ، وله تسعة أبواب أحدها خاص بالامام ، ولم يجتزه أحد منذ اغتيال الامام السابق .

وفي صنعاء نحو اربعين مسجداً . بينها خمسة عشر مسجداً . منارتها جميلة جداً . وأحدث هذه المساجد ما بني منذ أقل من مائتي سنة . وهي تركية وفيها قبة رئيسية محاطة في بعض الاحيان بقباب صغيرة ، أما المساجد الاكثر قدماً فهي تلك التي ترجع الى القرن الحادي عشر . وهي بناء يمني خالص . ومنارتها سميكة اسطوانية الشكل على قاعدة مزدوجة ذات ثمانية أضلاع . ثم مربعة . وهي مزخرفة كالبيوت من أعلاها الى أسفلها بالقرميد النيء المصبوغ باللون الابيض ، والزخرفة في الغالب نقوش دينية وآيات من القرآن ، وتقع المساجد في الغالب في أماكن خلوية مفتوحة . وبعضها تكون في مناطق الحركة والانتعاش كمناطق بيع الحطب واخشاب البناء الذي تأتي به الجمال كل صباح من أماكن بعيدة وتبيعها في نفس اليوم ؛ وأسواق الحيوانات التي يبيعون فيها الابقار والجمال . وهناك أسواق مسقوفة تخصص لبيع البن أو الزبيب كل في موسمه —.

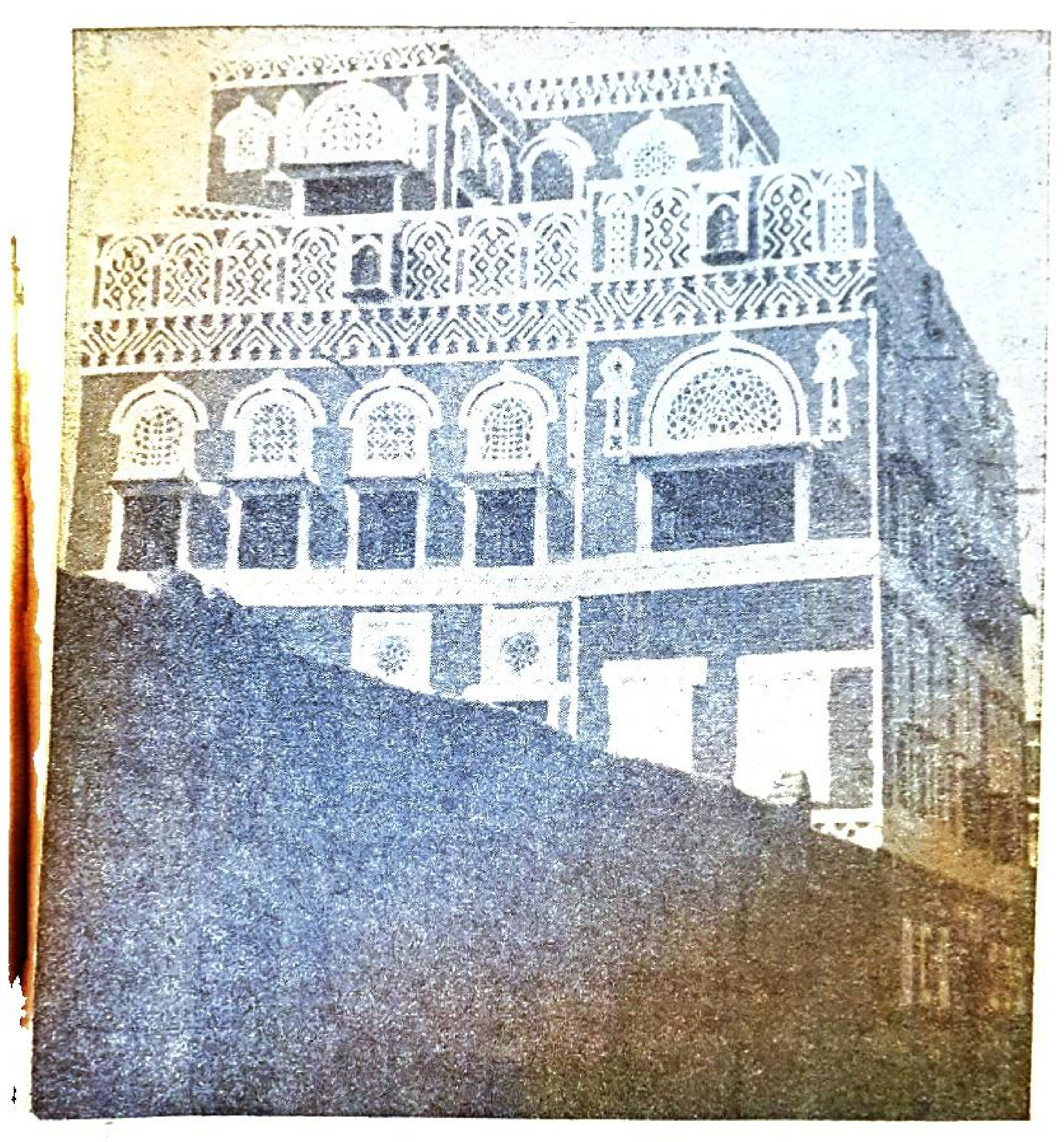
أما الميادين الصغيرة ، فيرى الانسان فيها دائماً أشياء عديدة أولها مكان محاط من كل جانب تأتي اليه النساء لوضع الزبالة والرماد من البيوت المجاورة ، وفي الربيع يفرغ وينقل ما به سماداً للحقول ، كما يرى الانسان مكاناً مخصصاً لحارس الليل ؛ وسبيلاً مزوداً بالماء الصالح للشرب وهذا من أعمال البر أوصى به مسلم فاضل ترك بيته لاحدى العائلات . واشترط عليها ان تزود السبيل المجاور بالماء . واخيراً لا بد ان يرى الانسان المراحيض التي يرجع الفضل في تأسيسها في أوروبا الى الامبراطور فيسباسيان . أما هنا فانها ترجع الى عهد النبي . فالاسلام يتطلب النظافة الشخصية دائماً .

والبيوت الواقعة في وسط المدينة أحدث من تلك الواقعة في المنطقة الشرقية ، فقد تم بناء كثير منها في نهاية القرن الأخير ، ويختلف طابعها قليلاً ، فهي مزينة بالعقود الزجاجية الملونة التي تصنع في المخا ، وفي

مواجهة المفرج ، ترتفع حواجز أنيقة فيها ثقوب وهي من الجص ، أما زخرفة الواجهات فأكثر تنوعاً وجمالاً ودقة ، الا أن النوافذ ضيقة والعقود الزجاجية التي تعلوها ضيقة أيضاً ومرتفعة . ويسكن التجار الاغنياء في أجمل هذه البيوت ، وليس للشوارع أرقام ، وقد يكتب المالك اسمه في واجهة داره ، وبعض التسميات تطلق من صفة قديمة للعائلة مثل : « بيت سمينة » و « بيت الاعرج » وقد أطلقوا على واحد من أشهر هذه البيوت اسم باريس .. بكل بساطة ، ذلك لأنه شاهق مزخرف ، ويعجب به الناس كثيراً ، وقد ظننت أولاً انهم ارادوا بهذا مجاملتي فقط . ولكن كثيرين من المارة كرروا على مسمعي هذا الاسم وهم يبتسمون ابتسامات حلوة ، ولعل اليمنيين الاغنياء كانوا يسافرون بسهولة قبل خمسين سنة أكثر مما يفعلون اليوم .. ولعل سمعة باريس وصلت في ذلك العهد السعيد الى هذا المكان .

وبيوت المدينة القديمة كلها ، فيما عدا قليل منها في الشوارع الرئيسية ، متلاصقة وفي شوارع ضيقة صغيرة ولا تحيط بها أشجار أو نباتات ، الا أن في بعض المناطق توجد منخفضات مزروعة ومنسقة على هيئة حدائق ، وهذه البقاع مربعات قديمة أخذت منها الرمال لصنع لبنات البناء ، أما المياه فمصدرها الوحيد هو الآبار ، وتوجد آبار جماعية في الاحياء الفقيرة ولبيوت الميسورين آبارها الخاصة التي تقع في البهو الداخلي .

ويقطع صنعاء مع هذا من الشمال الى الجنوب نهر يتحدثون عنه كثيراً هنا ، ولكن هذا النهر لا يجري الا بضع ساعات في كل سنة ، وذلك في الصيف موسم الامطار ، أما باقي الوقت فمجراه ليس الا ممراً جافاً واسعاً منخفضاً تقوم على جانبيه أشجار الكافور . ويمر النهر تحت أسوار المدينة في شمالها وجنوبها بقناطر مغلقة بقضبان من الحديد ، وفي وسط مجراه جسر صغير ، يقف الناس فوقه أكثر مما يمرون عليه ، ويطلون يتأملون المياه الراحلة تنساب تحت أقدامهم . ويحيط بالنهر صفان من البيوت



واحد من قصور العائلات في صنعاء شيدوه من دم الشعب و عرقه

الجميلة القديمة وهي شبيهة بالبيوت الواقعة في باب اليمن وهي لبعض عائلات كبار الموظفين ، مثل بيت العمري وبيت الوزير ، والدار التي كان يمتلكها السيد عبد الله الوزير قد نهبت وهدمت وبقيت أثراً للكارثة التي وقعت ، والسيد عبد الله الوزير هو الذي كان ملكاً لليمن أسابيع قليلة بعد مقتل الامام يحيى ، وبعد اعدامه عاشت عائلته التعسة في بعض حجرات المسكن القديم الذي لم يعد فيه أي أثر للماضي المشرق .

وفي الجانب الآخر للنهر نجد سوقاً تجارياً صغيراً ليس فيه صناعات ولا حرف كما وجدنا في الاسواق السابقة ، وتحيط الدكاكين الصغيرة بالميدان الواسع ، وتعلو أبوابها الضيقة سقائف ، وتتقدمها درجات يجلس عليها الزبائن أثناء المساومات الطويلة ، أما البائع فيجثو عند مدخل الدكان وأمامه نارجيلته والبضاعة كلها في متناول يده ، وفي وسط الميدان يأتي المزارعون من الضواحي يحملون الخضار والفواكه وحزم التبن والبرسيم والحطب والكبا وهو وقود من السماد المجفف .

وفي ركن ، مجموعة من الفلاحات يبعن الالبان ، والعسل ، والخبز أما سوق اللحوم فهو في ساحة جانبية ، وهو مكون من نحو ثلاثين دكاناً خشبياً ، وعندما قمت بزيارة الجزارة هذه أشاع عبده المكار انني مكلفة بالتفتيش الصحي ، وقد أحدث هذا قلقاً واضحاً لدى الجزارين المساكين .

ولكل طائفة منظمة ، وأقوى هذه المنظمات هي منظمة الجزارين ، وأثناء إقامتي سقطت بعض أسوار المدينة في موسم الامطار ، وطبقاً لعادة غريبة قديمة يقع على عاتق الجزارين اصلاح هذه الاسوار المنهارة ، وقد رفعوا لهذا السبب ، بطريقة غير مشروعة أسعار اللحوم مما أدى الى اعتقال ممثليهم ، فأضربت الطائفة كلها حالاً ، وبعد ايام قليلة أفرج عن المعتقلين ودفع نائب الامام نفقات اصلاح الاسوار ، ولم ينخفض سعر اللحم .

ونجتاز السوق الصغير . ونصل الى غرب المدينة القديمة فنجد أنفسنا في ميدان واسع هو المركز الاداري في صنعاء ، وللمدينة هنا أبواب ثلاثة هي : باب الشقاديف في الشمال ، باب خزيمة في الجنوب ، وباب السباح في اتجاه بئر العزب . وفي هذا الميدان تقع دار الشكر حيث يقيم نائب الامام . وهي دار ذات أدوار ستة وهي محكمة البناء من الحجر الاسود المقطع ، وفي البستان الذي يقع خلفها توجد دار السعادة حيث يقيم السيف عبد الله . وبعض أعضاء الاسرة المالكة ثم المقام وهو مقر الحكومة . والبرج الذي تعلوه حجرة مربعة صغيرة ، وتنشط الحركة في المسجد المجاور الذي يعتبر ملتقى الكتاب العموميين الذين يتربعون على طول الجدران لكتابة طلبات المراجعين الى نائب الامام .

وفي الجانب الآخر من الميدان يقع بيت المال والسجن والشرطة ، والحمام ، ومن نافذة المقام يشهد نائب الامام العرض العسكري في كل جمعة ، وقد رأيته مرة يتقبل عقيرة ثورين ذبحوهما أمامه في الميدان . فقد تقاتل سيدان في اقليم ناء فأودعا في السجن ثم تصالحا في الحال . وقد تقاسمت القريتان تكاليف الثورين ، وتقدمتا بهما هكذا طلباً لرحمة نائب الامام ، وقد أطلق سراحهما .

وأمام المقام وتد ، وقد رأيت يوماً لصاً شهيراً مربوطاً فيه لأنه كان ينهب المسافرين في أحد جبال الشمال وقد قتل الذين قاوموه وضم الاحياء منهم الى عصابته التي وصلت الى مائة رجل ، وقد دفعته جرأته الى توزيع المنشورات على الجيش وعرض عليهم مرتبات أعلى من المرتبات التي تدفعها لهم الحكومة ، الا أنهم قبضوا عليه ووضعوا يديه في المغلقة الخشبية ، وكان رأسه مرفوعاً وهو يمر أمام الجماهير المستهزئة الساخرة في شجاعة نادرة ، وكان يردد : « لقد كنت سيد نفسي حتى الآن ، أما من الآن ، فاني تحت رحمة الله والامام » وقد نقلته الطائرة الى تعز ليراه الامام ، وتساءل الناس اذا كان الامام سيأمر باعدامه أم سيضمه الى



صنعاء .. العاصمة التي لقى الإمام يحيى فيها نحبه ، والتي تشهد اليوم عمليات الجلد والارهاب

الى أفراد حرسه ، وقد دافع عن نفسه بمهارة فائقة ، وطالب بتطبيق حكم القرآن بكل دقة ، والقرآن يتطلب للحكم بالاعدام شاهدين رأيا بأعينهما القتل ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يثبتوا عليه شيئاً ، وقد رأيته بعد شهور قليلة في تعز ، وقد فقد نظراته الجميلة المتشامخة المتكبرة ، وكان يستجدي في بؤس وتعاسة مع مجموعة من المساجين !

كانت صنعاء قبل مائتي سنة تنتهي هنا ، وكانت قرية اليهود تقع على بعد كيلومترات غرب المدينة وتفصلها عن صنعاء حدائق وبساتين ، ولكن الاتراك أقاموا مساكنهم في هذه البقعة الخضراء ، وفي القرن الاخير أحاطت بالبيوت الجديدة مجموعة من الاسوار موصولة بالاسوار القديمة وأصبح باب السباح باباً داخلياً يصل بين ميدان المقام وميدان شرارة الذي تحيط به دار الضيافة ومكتب البريد والصيدلية ، والمدرسة العلمية، ولهذه الاسوار الجديدة منافذ ثلاثة ؛ ففي الجنوب باب البلقة ، وفي الشمال باب الروم ، ثم باب القاع ، وهو الذي يصل باب العزب بقاع اليهود .

وبئر العزب في صنعاء شبيه بحي نوبالي في باريس .. والحياة فيه أنيقة ممتعة ، والشوارع هادئة وليس فيها دكاكين ، وعلى جوانبها أشجار دائمة الاخضرار تزدان أغصانها في الربيع بالعناقيد المزهرة ، أما دورها الشاهقة فمتباعدة ، وتقوم كل منها وسط بساتين مليئة بأشجار الكروم والمشمش واللوز والخوخ والرمان . وفوق هذه الدور تتمايل هنا وهناك أشجار السرو ، وتبدو جنباً الى جنب مع قمم الجبال المحيطة ، ولا يقطع هدوء الحي إلا صرير الآبار وعجلاتها وحبالها ، ويدل الصرير المتواصل على ان الجمل ينزل في طريقه المنحدر المحدود ثم تفرغ الدلاء ما في جوفها من مياه محدثة هديراً شبيهاً بهدير الشلالات ، أما الصرير التالي فيدل على ان الجمل يصعد ، وفي الاعلى يتوقف قليلاً ونسمع صوت الحادي يغني : « يا إلهي ، أنزل علينا امطارك ، انني مرهق متعب .. وجملي يشاركني

هذا التعب ..! » وتمر الايام وكل شيء على ما يرام ..

هذا الغناء الحزين ، هذه الاصوات ،أصوات الماء ، والعجلات والجمال .. هي التي تؤلف منذ قرون عديدة نفس اللحن الرنان لمناظر صنعاء ومظاهرها ، ولا يستطيع الانسان ان يسمعها دون ان يعترف بحبه للاشياء الرتيبة التي لا تتغير .

وبعد استقلال اليمن ، بنى الامراء والشخصيات الكبيرة دورهم الجديدة هنا ، فللامام أحمد دار في بستان الخير ، ولكنه لم يذهب اليها أبداً ، ولا ينزل بها الا زوجته الرابعة ، واثنتان من أخواته ، ويقيم في القصور الاخرى إخوته سيوف الاسلام ، علي والمطهر والقاسم واسماعيل ، والعباس ، أما السيف عبد الله فبيته قريب من الجامع الكبير في قلب المدينة القديمة ، ولكن الامير لا يذهب اليه لأن الطريق اليه تسير في شوارع ضيقة ملتوية لا تستطيع السيارة المرور فيها ، ولا بد من هدم بيوت اذا أريد توسيعها ، وقد رفض رجل متقدم في السن أن يترك بيته ، ولم يستطع أحد ان يجبره على الانتقال ، وسيظل القصر مهجوراً حتى يموت هذا الرجل .

وبيوت عامل صنعاء ، وأمير الجيش ، وعامل ذمار ، ووزراء الامام يحيى القدماء ، كلها جميلة ، وشبيهة ببيوت الامراء ، فأشكالها متناسقة هندسياً ، وبهيجة ، وواجهاتها مرتبة بمهارة وشرفاتها وسطوحها في أحسن تخطيط ، وفي أحد أركان الدار كثيراً ما يرى الانسان قرن الغزال وقد ثبتوه تيمناً وتبركاً وطلباً للسعادة . ويتصل المفرج الكبير في الداخل غالباً بمفرج في البستان وبينهما ممر مغطى بالبلاط ، وفي وسطه بركة ونافورة جميلة ترتفع منها المياه ، ولا يرتفع هذا عن أرض البستان الا قليلاً ، ولا يفصله عن الاغصان والاشجار المثمرة الا حاجز من الجص المثقب برسوم غاية في السحر والجمال ، الا ان هذا الطابع اليمني الحديث موجود أيضاً في النوافذ التي تميل الى الاتساع شيئاً فشيئاً .. والتي تعلوها العقود

الزجاجية الواسعة المرتفعة في شكل نصف دائرة ، وطريقة البناء في صنعاء تتطور رغم احتفاظها بطابعها الخاص ، وهي طريقة حية دائماً .

ونصل أخيراً الى قاع اليهود ، أو قاع الامام الناصر كما يطلقون عليه اليوم ، وأبوابه الخشبية عالية وكانت تقفل عند مغرب الشمس . أما الآن فهي مفتوحة دائماً ، وهناك ميدان واسع يدرسون فيه الذرة في الخريف ، وبجانبه بيوت اليهود وهي متواضعة منخفضة ولا يجوز ان تتجاوز الدور الثاني ، والعقود التي تعلو نوافذها من الرخام الشفاف والزجاج الملون ، الا أنها من الداخل نظيفة ومقبولة ، ويدهش الانسان حين يجد السطوح والشرفات متصلة هنا وهناك ، ويخيل اليه أنه أمام مناظر مسرحية أعدها وأخرجها جاستون باتي .

وعند هجرة اليهود الى فلسطين اشترى هذه البيوت المسلمون الاغنياء بالجملة ، وقد أعادوا بيع البيوت الجديدة ، أما الكثير منها فلم يجدوا من يشتريها فانهارت أنقاضاً بعد تجريدها من الابواب والشبابيك ، وفي القاع اليوم شوارع كاملة ليس فيها نفس بشرية واحدة ، وما أعجب منظر الشقوق في الاسوار المتفتتة تحت ضوء القمر ، وكان اليهود هنا يعصرون الخمور ، وقد خلفوا المعاصر وراءهم ، وأصبح هذا الحي ملتقى للسكارى وبائعات الهوى .

وتحصن باب القاع ابراج كسائر أبواب صنعاء وبالقرب من هذا الباب تقع مقبرة اليهود ، وترتفع فوقها أعمدة من الصخور السوداء التي تنتشر عليها الكتابة العبرية ، ويتجول فيها آخر يهودي ظل في صنعاء وحيداً ، ورفض مغادرة المدينة ، وحينما يموت لن يأتي أحد الى هذه القبور يضع عليها الحصى في خشوع .

ولا وجود للبيوت وراء الاسوار فلا يرى الانسان الا حقولاً ومقابر ، والمنظر في الجنوب جاف ولا وجود للاشجار فيه ، أما طريق ذمار ففيه الثكنات والاصطبلات وورشة الحكومة ، والسهل في الشمال غني وتجري

فيه القنوات ، وترتفع الاشجار المثمرة ، وتقوم القرى هنا وهناك في شكل أبراج يخزنون الغلال في أسفلها ، ويسكنون حجراً ضيقة في أعلاها ولكنها لا تشبه بيوت صنعاء من قريب أو بعيد ، وتوجد في الشمال محارق الطوب الاحمر ، ومسجد خاص بالاعياد الكبيرة ، وتبدو المرتفعات من الشرق الى الغرب ، ويتمتع الانسان منها بأجمل مناظر صنعاء .

ان منظر هذه المدينة الملفوفة المكتظة داخل أسوارها ، في هذا السهل العاري محير للالباب ، فأشعة الشمس القوية تجعل بيوت صنعاء ناصعة البياض في سفح الجبل ، وعند الغروب يتحول كل شيء الى اللون الوردي والبنفسجي .

الا ان بئر العزب ودورها الشاهقة الشامخة المحاطة بالبساتين والمدينة القديمة وواجهات قصورها ، كل هذا الحشد المتكامل المتجانس معرض لتهديد خطير ، فاليمن تبني الآن محطة للاذاعة قوتها ٤٠ كيلواوات ، وقد بدأوا ينصبون سارياتها وأعمدتها في كل مكان على أبعاد مختلفة . بل ان هذه المؤسسة الهامة ستحتل مناطق داخل الاسوار .

ولا شك ان اهتزازات المولدات الكهربائية ونبضاتها ستعلو على ألحان الحادي في بئر العزب وعشرات الابراج المعدنية العالية التي يبلغ ارتفاع كل منها أربعين متراً كفيلة بأن تشوه الى الابد مناظر صنعاء الخلابة البديعة !

ولم يحدث شيء حتى الآن ، فقد اختاروا للاذاعة أرضاً واسعة قريبة من باب الروم ، ومجاورة لقصر سيف الاسلام علي ، وهو أمير لا يظهر الا نادراً ومزاجه عرضة لتغيرات فجائية سريعة تحير حاشيته وتقلقها ..

والارض في صنعاء غالية ، وقد أبدى السيف علي ادعاءات معينة بخصوص الارض الواسعة المجاورة لقصره ، وأقام بها ستة مراكز ، رتب فيها عدداً من العساكر المسلحين وأعلن ان كل من تسول له نفسه ان

يخطو خطوة واحدة في اقامة ساريات الاذاعة فانه سيصفي معه الحساب في الحال .. ولم يجرؤ أحد على هذه المغامرة بطبيعة الحال ، ويفكر الامام الآن في ابعاد محطة الاذاعة بضعة كيلومترات نحو الشمال .

جنون ظاهر ، وحكمة عميقة ، الا ان السيف علي بهذا التصرف قد عبر أحسن تعبير عن مصلحة المدينة ، فليمكنه الله وليساعده حتى لا يصرف عساكره الساهرين اليقظين .. أما ساريات التقدم هذه وابراج المدنية فليرموها في أي مكان !

الفصل العاشر

اول مرضاي

زيارة بيت نائب الملك – وبيت تاجر غني – عيادات في المستشفى – الفحص بالاشعة – دار سك النقود – المدافع القديمة – مظاهرة بارعة للحصول على مفتاح المعمل .

الاسياد أولاً وقبل كل شيء دائماً .. ففي اليوم التالي لوصولي ، كانت مريضتي الاولى في صنعاء احدى نساء نائب الامام سيف الاسلام الحسن وقد جاءوا من قبلها يبحثون عني في عربة يسوقها جوادان ، ولها غطاء مرتفع ، ويقف في مقدمتها عسكري وفي مؤخرتها عسكري آخر ، وكل بيوت صنعاء الكبيرة تمتلك عربات من هذا النوع ، وقد استوردوها من ايطاليا في أواخر القرن الماضي ، ويستعمل نائب الامام هذه العربة في استعراض يوم الجمعة ، الا ان المعتاد ان يمتطي الرجال ظهور الخيل أما العربات فتستخدمها النساء في تنقلاتهن وزياراتهن .

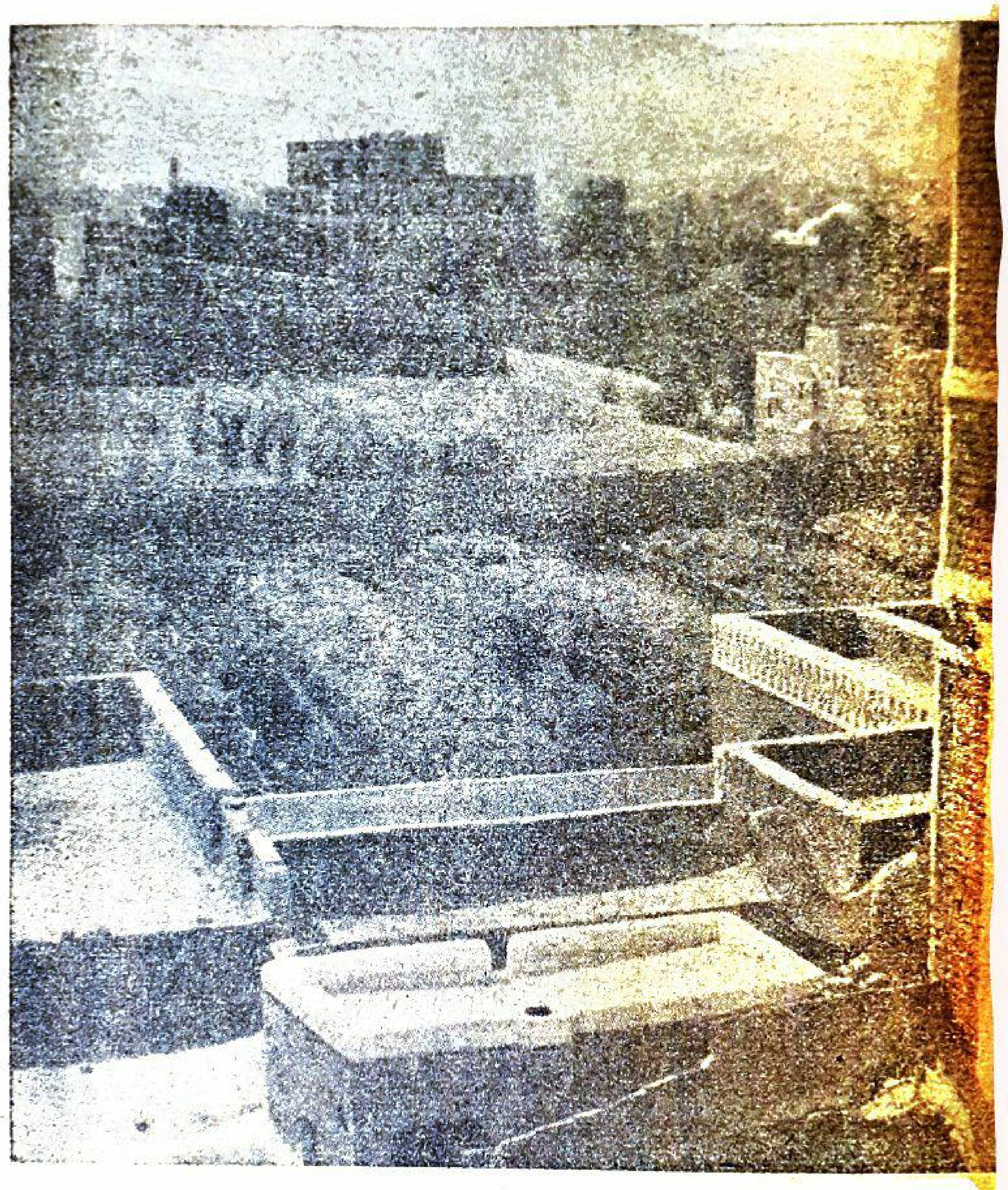
وفي باب دار الشكر أفسح لي الشاويش الطريق لاجتاز الحديقة الصغيرة التي يوجد فيها كرسي الامام يحيى المصنوع من الخيزران ، وقد ضرب

رئيس الحرس المدقة البرونزية بعنف ، ولما سمع وقع أقدام خفيفة تخطو فتح الباب بمفتاح خشبي كبير ، وفي الداخل كان ينتظرني صبي في سن العاشرة ، حمل حقيبتي ، وتقدمني يصعد السلالم ، وهكذا تعرفت « بالدويدار » .

والدويدار طفل صغير حل محل الخصيان الذين كانوا يخدمون الحريم عند العرب قديماً ، وهم الصلة الوحيدة للنساء بالعالم الخارجي ، وهم في الغالب أذكياء جداً ويقومون بمهمتهم بكل حذق ومهارة . ويقصون على سيداتهم كل ما يرونه في المدينة ، ويُغيّرون عندما يبلغون سن الثالثة عشرة ، ويأخذ من خدم منهم في بيوت الامراء مرتبات صغيرة .

دخلت احدى حجرات القصر ، والحجرات في صنعاء مؤثثة كلها على نمط واحد ، فعلى طول الجدران تنتشر الوسائد والمساند المغطاة بالسجاد كما ان أرض الحجرة مفروشة بالسجاد ، ووسط الحجرة خال من كل شيء الا من صحن من النحاس عليه نارجيلات كبيرة قصباتها أو خراطيمها مغطاة بقماش أحمر ومطوية عند عدم استعمالها ، وعلى جوانب الصحن مباصق القات والمباخر ، ورشاشات الكولونيا وماء الورد النحاسية المنقوشة وتختلف اناقة وفخامة هذه الادوات من منزل الى آخر ، ويلمع النحاس عندما يتسلط عليه ضوء النوافذ المنخفضة ، وعلى الجدران البيضاء يرى الانسان . القرآن على غلاف من القماش ، وخناجر معلقة بأحزمتها ، وأحياناً يرى صورة محفورة ملوّنة تمثل صليبياً ممقوتاً يفر أمام ضربات سيف أحد الابطال المسلمين .

كان في انتظاري عشر سيدات والابن الاكبر لنائب الامام ، وهو في سن الثالثة عشرة ، وقد ارتدى ملابس الرجال ، ووضع الخنجر في جانب ، أما الامير الحسن فلا يجلس كثيراً مع النساء — بل يقضي وقته في المفرج البعيد مع بعض جلسائه وأصدقائه ، وحياته قاسية خشنة ، فهو لا يمضغ القات ، وقليلاً ما يلجأ الى التدخين ، ويغيب في رحلات طويلة



كان مستشفى في عهد الحكم العثماني نحوله الإمام الى قصر له

للكشف في الاقاليم والاشراف على الطرق .

استقبلني الابن بلطف وكرم ، وكانوا قد وضعوا لنا في وسط الحجرة كرسيين من كراسي الحدائق العامة الحديدية المصبوغة ، وعلى كل منها وسادة من القطيفة ، وفوطة ، وأحضروا على المائدة طعاماً خفيفاً ، وجلس الامير الصغير أمامي ، أما النساء فقد كن بعيداً عنا ، ولم يشاركننا لا في تناول الطعام ولا في الحديث ، وكان وجهه ينم عن ذكاء حاد ، وقد تأكدت من هذا فيما بعد ، وأيدته الاختبارات النفسية ، وقد يصبح رجلاً ملحوظاً بشرط ألا يزوجوه في سن مبكرة وان يدعوه يتعرف على بلدان أخرى .

لقد كان الحاكم الحقيقي للحريم ، وقد رافقني عند المريضة . وهي زوجة شابة لابيه وضعت أخيراً ، ولا شيء هنا يفصل النساء عن أبناء أزواجهن حتى ولو كانوا بالغين ، وعلى العكس ، لا يظهرن أبداً على إخوة الزوج . وعلى هذا فقد حضر هذا الامير الصغير الفحص . وعلى الرغم من وجود عدد من النساء هن أكبر منه سناً فقد كان عليّ أن أشرح كل شيء له وقرر هو ان يتولى العناية بالمريضة بنفسه ، وهذا ليس أمراً غير عادي ، فأينما ذهبت وجدت مثل هذا الشاب سيداً للحريم أثناء غياب أبيه ، لا سيما اذا كان قد جاوز الثامنة عشرة ، ومن المعلوم أنه لا تفوته أية فرصة أو مناسبة دون ان يمارس هذه السلطة الجديدة ، ويصل هكذا بسرعة الى مركز الرجل .

ولم يكن من الممكن ان يسمح لعبده بالدخول الى بيت أمير تخضع فيه النساء لهذه الاوضاع القاسية الشديدة ، ومع ذلك فقد رافقني مرة الى بيت تاجر كبير أرسل الينا سيارته اللوري الزاهية المزينة بأفريز من المشمع شبيه بما كنا نراه في رفوف مطابخنا في الخارج ، وقد وضعتنا هـــذه العربة الرقورة التي لا تستطيع الدوران في الشوارع الضيقة ، بعيداً عن البيت الذي يقع في قلب المدينة القديمة . ودخول بيت رجل من الطبقة

المتوسطة ليس كدخول بيت أحد الأمراء ، فلم يكن بالباب حرس ، بل ان الباب يفتح من الطابق العلوي بسحب حبل يخترق البيت كله ، حتى يرتفع المزلاج ، وتقدمني عبده يصعد السلم الذي لا ينتهي ، وكان يصيح بين لحظة وأخرى قائلاً : « الله .. الله .. » تنبيهاً للنساء حتى يبتعدن عن طريقنا . وفي الطابق الاسفل المظلم يسكن الخدم ، وينزل الحريم بالطابق الاوسط ، أما الطبيب فيستقبلونه دائماً في الدور العلوي المخصص لرب البيت .. في المفرج .. وقد صعدت أثناء اقامتي في صنعاء سلالم أكثر مما قد فعل أي طبيب في باريس .

كان الزوج ينتظرني عند زوجته الشابة المريضة ، وقد وقف عبده خلف باب مفتوح نصف فتحة ، وبدأت الاسئلة بهدوء وبطء لانفتن اذ ان المرأة المهذبة لا يجوز لها ان تسمع الا صوت زوجها ، والا يسمع صوتها أي رجل غير زوجها ، وبناء عليه فقد كنت أقول اسئلتي بالفرنسية ويتولى عبده المختفي وراء الباب ترجمتها للزوج ، ويأتي الزوج يهمس بها في اذن زوجته ، ويتلقى منها الجواب ، ويبلغه الى عبده الذي يترجمه لي أخيراً .. انتهينا اذن من تشخيص المرض ، ولكن لسوء الحظ بدت مشاكل حساسة عند العلاج .. فقد كان لا بد من اجراء أشياء ذات طبيعة داخلية ، والمرأة اليمنية لم تألف هذا ولم يكن الأمر في حد ذاته مستحيلاً ، فالعرب يعرفون الحقنة الشرجية ، وأحمد حمادي يؤجر جهازاً مقوى بالصفيح ، شبيهاً بتلك التي نراها في نقوش القرن الثامن عشر في فرنسا ، وقد جرت مناقشات حادة بين الزوج وعبده ، وكان الزوج ذا نزعة عصرية حديثة ، ويود ان يعترف بفوائد العلم الحديث ..

وذات صباح جميل ، جاءني عبد الله يخطرني هذه المرة ان الحصان قد أصبح جديراً بثقتي .. وفي العربة وصلنا المستشفى بكل فخر .. والمستشفى بناية شيدوها حديثاً في بستان مجاور لباب البلقة ، ويرى الانسان أمامه بناء مكعب الشكل .. هو ضريح لرجل مات في القرن الماضي أثناء

حصار صنعاء وتعذر دفنه خارج السور .

وعلى عتبة باب المستشفى وقف اثنان من العساكر ينفخ أحدهما في النفير اذا وصل المدير أو الطبيب العربي الذي يعالج الجنود ، ويمكنني ان أحظى بنفس المعاملة اذا دفعت قليلاً من البقشيش .، وقد قال لي هذا عبده ولكني فضلت أن أسير على منوال زميلي الايطالي الذي لم يهتم بهذه الفخفخة .

وكانت مفاجأة سعيدة أن أجد مستشفى صنعاء أحسن كثيراً من مستشفى تعز ، فقد كان واسعاً ، مضاء حسن البناء ، مرتباً بمهارة ، بل وكان نظيفاً (هذا اذا لم نعط هذه الالفاظ معناها عند الغربيين) !

فالمرضى ينامون على سرر حقيقية ، عليها أغطيتها ، وتغذيتهم حسنة فقد كان غذاؤهم اليومي يتألف من ثلاث قطع من الخبز ، وطبق لحم وزبادى ، وفواكه ، وشوربه ، ولم تكن السرر كلها مشغولة ، وكان الفقر متفشياً في صنعاء الى درجة ان الناس كانوا يدخلون المستشفى ليأكلوا .. أما المرضى فلا ينتظرون فيه علاجاً ، فالذين هم في حاجة لاجراء عمليات ينتظرون ان يأتي جراح ، ولكن دون جدوى ، أما الآخرون فالعلاجات نادرة كما هو الحال في مستشفى تعز .

وفي المستشفى خمسة عشر ممرضاً وخادماً ، والممرضون يعملون هنا عدة سنوات ، يتعلمون خلالها على أيدي الاطباء الاوروبيين ، وينالون شهادة في النهاية تسمح لهم بالعمل . وكانت المفاجأة السارة الثانية هي مقدرة هؤلاء الطلبة فقد توفر فيهم ، الذكاء ، وقوة الذاكرة ، والادراك الطبي ، والمهارة الفنية ، وحب المهنة ، والتعطش الى التعلم ، وفي وسع معظمهم الوصول الى كفاءة مذهلة ولا سيما اذا راعينا انهم قد حرموا من كل تعليم ، ومن المؤسف ان أكثرهم جرأة واقداماً لم يكونوا أمهرهم ، وقد خرج أحدهم من السجن لانه كان قد قتل مريضاً عندما حاول ان يجري له عملية فتق ، ويكون العقاب عادة هو وضع القيد

الحديدي في أقدامهم . وتشدد عليهم العقوبة أحياناً فيخصم جزء من مرتباتهم ، ولهذا فهم لا يقدمون على تحمل أية مسؤولية ، وكان أول انتصار لي في صنعاء ليس هو النجاح في استعمال ملقط الجراحة . بل هو ذلك الذي يعد انتصاراً بالفعل ..لقد استطعت ان أقنع احد الممرضين بفتح قاعة العمليات دون موافقة سابقة من المدير .

ولم يكن للاستشارات الخارجية أهمية تذكر . اذ ان قليلين جداً من أوساط الشعب هم الذين يقدرون على شراء الدواء . والحياة اليومية لا تخلف متاعب كثيرة ، ولكن اذا ظهر المرض فقد حلت الكارثة ، فالناس فقراء وليس معهم نقود لشراء الأدوية والبعثة الطبية السوفييتية التي كانت توزع العلاجات مجاناً قد تركت اليمن منذ زمن طويل ، وصيدلية الحكومة خالية من كل العلاجات ، وكل ما يستطيع المرضى عمله . هو أن ينتقلوا من أمير الى أمير يستجدون الصدقة التي يشترون بها العلاج .

وكانت مهمتي العناية بالنساء ، والامور لا تسير بنفس البساطة عندما أكون عند سيدة كبيرة أو تاجرة غنية ، اذ لا يستطيع الممرضون أن يتحدثوا مباشرة الى المرأة المريضة .

وكثيراً ما كان الامراء يستدعون زميلي الطبيب ، فيترك لي أمر عيادة الرجال ، وما ان يقترب المريض حتى يبتدره الممرضون حراس الاخلاق المتشددون بهذا السؤال : « هل ترتدي سروالاً ؟ » فاذا كان المسكين لا يرتدي السروال فعليه ان ينزع عمامته ويلفها ازاراً حول خصره قبل ان يرفع جلبابه ، واذا لم يكن له غطاء للرأس فان أي انسان طيب من الموجودين في غرفة الانتظار يمكن ان يعيره .. ولقد فحصت رجالاً لا يستر عورتهم الا ما يشبه ورقة العنب .. وهذا منظر ذو تأثير عظيم سيتصوره بسهولة أولئك الذين يتذكرون الحلقات الاولى لفيلم القمح الأخضر أو غير الناضج .

وكنت أقوم مقام الطبيب العسكري عندما يمرض الطبيب اليمني

الخاص بالجنود أو بتغيب ، وكان الفحص أحياناً للاستدلال والاستنتاج فقد يتعب جندي من الخدمة العسكرية فيقدم بديلاً عنه ، وكان علي ان اقرر إذا كان الجندي الجديد يساوي الجندي القديم تماماً أو لا .. وقد تكون المعاينة للاعفاء من الخدمة .. فالجنود الفقراء الذين لا يملكون مالا للبدل ، يصابون فجأة بالجنون ، ويطلب مني أن أفحص قواهم العقلية ! وكان السلوك الذي يلجأون اليه في أغلب الحالات للتدليل على جنونهم واختلال عقولهم .. هو خلع الملابس .. هكذا يتجرد الجندي من ملابسه تماماً ! وامام امرأة انه بكل تأكيد مجنون .. ويفهم الممرضون اللعبة فيهجمون على المسكين ويخرجون به ، ولا أجد بداً من أن أسجل ..انه غير لائق للخدمة العسكرية ..

ولم يجد زميلي الايطالي وهو الغارق في العمل ، متسعاً من الوقت لاستعمال المعمل ولا أجهزة الاشعة التي ظلت مغلقة منذ رحيل الاطباء الفرنسيين .. وكانت أجهزة الفحص في المقام تفتح أبوابها إلى ساحة الثكنة ، وهي آلات جيدة، كنت أقوم بالفحص فيها مرة في الاسبوع ، كانت الرسوم تتحدى كل منافسة . وقد حدد لي عبده الاسعار قائلاً : « ريال إذا كان الكشف على الجزء الاعلى .. ولكنه ريالان إذا كشفت على الجزء الاسفل أيضاً » . وكان تجار المدينة الاغنياء يحبون أن يروا أفراد عائلاتهم في وضع شفاف .. ويدفعون طواعية لهذا السبب . وإذاً فقد كان الاقبال عظيماً على الفحص ..وكان موظف المالية يتولى الكشف على الخزانة التي في عهدتي ، ويحضر ابن نائب الامام يساعدني ويتعرف على وظائف الاعضاء .. إلا أن الأوقات المخصصة للأميرات كانت تضرب الرقم القياسي في الروعة والعجب .

وكان الظلام العميق وحده هو الذي يوفق بين مقتضيات العلم الحديث ومقتضيات الأخلاق والتقاليد .. وقد حدث أن أضيئت الانوار فجأة ذات يوم وقد ذهلت الاميرة . وراحت تجري مسرعة ، واختفت في

مكان لا يخطر على البال ، خلف مصباح بين الاسلاك المتشابكة ... وكم كلفني هـذا من جهود مضنية حتى انتزعها وأخرجها من هذا المأزق .

وكانت تنتهي العيادة بالكشف على عساكر الثكنة .. الذين كانوا رداً للجميل يطوفون بي في الاماكن المجاورة .. ففي اليسار نجد مكان سك النقود ، آلة ضخمة تتحرك باليد ، يعمل فيهـا ستة أشخاص .. وكان الرجال أثناء زيارتنا يأخذون راحتهم .. واستطعت في الظل أن أتبينهم فوق الوسائد وأغصان القات حولهم قـد نزعت منها الأوراق ، وقصبة النارجيلة الحمراء الطويلة ممدودة .. وفي ركن النقود اللامعة ، ثمـرة عمل الصباح . أما الحظيرة ففيها مدفع قديم ، وقـد شرح لي الجنود كيف يستعملونه .

وبقيت محرومة من العمل ، والامير الحسن مسافر ، ولا يستطيع أحد أن يقرر شيئاً في غيابه ، ولكن بعض الفحوص كانت عاجلة سريعة ؛ فتحليل الدم وحده هو الذي يبين سبب الحمى المستمرة عند احـدى مريضاتي التي يزداد حالها سوءاً ..

وعبثاً تقدّمتُ بعدة طلبات .. وانقضت نحو عشرة أيام رأيتُ بعدها اني لم أعد أستطيع الانتظـار .. وجاءت الفرصة المرتقبة .. فقد أصيب أمير صغير بتعب خفيف ، ورفضت ان أشخص ألمـه قبل أن أفحص البول .. ولما كانت المسألة تتعلق بأمير .. فقد تلاشت كل الصعوبـات بمعجزة .. واخطروني ان المعمل تحت تصرفي في اليوم التالي .

وهكذا ذهبت وأنا عامرة بالأمل والرجاء ، وفي حقيبتي نوع من دم مريضتي النائمة في المستشفى ..

ولكن يا لخيبة الأمل ..!

لقد كان بانتظاري في باب المعمل .. وزير الصحة العمومية .. ومدير المستشفى .. وسكرتيرهم .. وصيادلة المستشفى .. وصيدلي الاجزاخانة

المركزية .. ونصف دستة من العساكر ، يحمل أحدهم الزجاجةالغالية .. وقد رجوني أن أقوم بالتحليل فوراً أمام أعينهمجميعاً وقالوا لي انالمعمل سيتنقل في الحال .

معمل كئيب .. هجروه منذ عامين .. آلة التقريط المجهري ، مقياس الضوء . فرن التجفيف والتطهير .. لا شيء ينقص ولكن لا شيء يؤدي وظيفته .. واليمنيون ليسوا مسؤولين عن الخطأ .. فهذه الأجهـزة تحتاج إلى تيار كهربائي يختلف عن التيار الذي ينتجـه مولدا المقام .؟ ومع هذا فقد كلفتهم هذه الأجهزة كثيراً .. وهم لهذا يظنون أنفسـهم يمتلكون كنزاً تجب المحافظة عليه بدقة ..

وقد تجولت بين المناضد التي غطاها التراب ابحث يائسة عن الوسيلة التي تعيدني إلى هنا وحيدة .. ومرات كثيرة ...

ترى هل يعرف صيادلة صنعاء كيف يقرأون ما يكتب في البطاقـة على الزجاجات ؟ لقـد وقفت أمام زجاجة الجلوكوز المحلول وكنت مع ضميري في صراع قصير ولكنه عنيف .. لقد حضرت التفاعل .. وطلبت من عبده أن يشرح ما سيحدث إذا كان الامير الصغير مصـاباً بالبول السكري .. واليمنيون يحبون أن يفهموا .. وكانوا عندما يبدو الترسب في أنبوبة الاختبار الموضوعة فوق اللهب يتمتمون باحترام .. « هذا هو السكر ..! »

وأمام الابتسامات ونظرات الاعجاب .. شعرت اني قد كبرت في عيونهم .. واني قد نلت تقديرهم جميعاً .. يا لها من سعادة .. حين يصبح المرء أقوى الآخرين بعد أن كان أضعفهم !

ولم أجد منهم أية معارضة عندما قلت لهم انه منالضروري أن أعود إلى هذا المعمل كل يوم .. وتعبوا من مراقبتي .. فوضعوا الميكرسكوب تحت تصرفي وبهذا فحصت عينة الدم التي كانت معي .. وبعد بضعـة أيام .. أعلنت ان الامير الصغير قد شفي !

وأعترف ان مغزى هذا الحادث جدير بالمناقشة .

أيها القارئ .. هل تضع سكراً في بول أمير ..؟ هـذه مسألة خطيرة .. يقف الانسان أمامهـا اليوم أو غداً ... ولكن يجب أن ننظر إلى الامور كما هي .. ففي جـانب .. شاب مفرط السمنة حرم من السكر خمسة عشر يوماً .. وفي الجانب الآخر .. امرأة كـانت تعاني خطر الموت فشفيت .. وأعترف اني من اولئك الذين يرون أن بعض الغايات تبرر بعض الوسائل .

وإذا سخط أصدقائي العرب وحنقوا عليّ فسأرد عليهم بقول جميل مكتوب في خاتم في صنعاء : « عند الضرورة ، الله وحـده هـو الحكم . »

الفصل الحادي عشر

يوم في صنعاء

كيف تقوم النساء بشئون البيت – المحكمة المتجولة – القات عند عامل صنعاء – استقبال عند الحريم .

تستيقظ صنعاء في الفجر ، على نداء المؤذن ، وهو نداء ليس غناء موزون اللحن ، كما في أي مكان آخر .. بل انه نداء عنيف ، مستبد انه صرخة آمرة لايقاظ الناس أجمعين .. ولا يستطيع الانسان في صنعاء أن يبدأ نهاره ناسياً ان الاله هو الله وان محمداً هو رسوله .

ويمر قليل من الوقت ، أسمع بعده الباب الخارجي يصطك فأعلم ان عساكري قد خرجوا يؤدون صلاة الفجر ومعهم أكثر رجال الحي تقى وتعبداً ..

وتشرق الشمس فتصل الفتاة « هاجر » لترتيب البيت ، فتنثر الروث على السلالم والممرات بدل نشارة الخشب ، حتى لا يثور الغبار .. وترتفع رائحة قوية ، ولكنها ليست كريهة على أي حال.. وتنحني هاجر تكنس بحزمة من الاغصان .

وفي نحو الساعة السابعة .. يأتي أحمد بطعام الافطار .. بيض ::

زبادى .. خبز أو فطائر مرتقة وعليها العسل والسمن .. ولا أطيل البقاء فأمام الباب ينتظرني كثير من المرضى ، يريدون ان يروني في بيتي .. فهم يعرفون اني قد أحضرت معي علاجات من فرنسا .. وكان زوجي واصدقائي .. والمعامل الكبرى .. يبعثون لي الادوية لانهم جميعاً يعلمون اني لا أتاجر فيها .. وكان الفقراء يأملون ان العناية بهم في بيتي ستكون أفضل منها بالمستشفى .. وخلال الاسابيع الاولى كان يغمرني شعور بأن تعاسة الدنيا كلها قد تجمعت حولي .. ولكن الأمر لم يكن يخلو أحياناً من فصول مضحكة ..

فقد جاءني هذا الصباح رجل عجوز وقور ذو لحية كثة ، وكان يلبس سترة طويلة سوداء لا بد أن صاحبها كان يختال بها مزهواً في بداية هذا القرن في احدى عواصم أوروبا .. ولكن صاحبنا الشيخ قد قص منها الكمين ، واخرج أكمام ثوبه الابيض وعقدها كالعادة فوق ظهره وكان يحمل على كتفيه لفافة مغلفة في شال ..وضعها أمامي على الارض وفتحها .. فهل أنتظر ان يكون فيها عقود أو قلائد أو تماثيل حميرية أو طنفسة أيا كانت .. ؟

لقد كان فيها طفل مريض .. !

وانتهي من كل هذا .. وأتوجه الى المستشفى .. ويكون جوادي الحجاب مسرجاً ينتظرني أمام الباب .. أما العربة الجميلة فلم تدم طويلاً فقد ارتخت احدى عجلاتها يوماً وتعطلت .. ولم يكن الحجاب جميلاً فقد كان اذا وقف أحنى رأسه الى الارض في وضع محزن .. واذا مشى تقاطعت قدمه الخلفية اليمنى مع اليسرى ، وخطواته مهزوزة وغير مناسبة أبداً .. وكسائر الخيول العربية .. كان لا يحسن السير بخطوات قصيرة سريعة .. ولكنه كان مدهشاً رائعاً حينما يعدو مسرعاً .. لطيفاً عندما يريد .. سريعاً عندما تجب السرعة .. وكان لا يتعب .

كم كان ممتعاً ذاك الصباح ان أركب في الهواء المنعش والشمس

الساطعة .. وقد بدأ القاضي الذي يسكن في بيت مجاور عمله في الشارع لقد جلس على الارض مستنداً الى جدار بيته وحوله أناس يتحدثون بحركات واشارات كثيرة .. والقضاة في صنعاء يقومون بأعمالهم في الطريق العام وكم التقينا هكذا في الطريق بجماعات صاخبة تلتف حول رجل يمشي في وقار ، فاذا سألت عبده قال لي : « ان هذا هو القاضي المتجول ..! »

وفي الطريق نلتقي أيضاً بقطيع من الماعز .. فلكل بيت عنزة لها زريبة صغيرة في الطابق الارضي . تطلق في الصباح في الشارع عن طريق القطيع . ويخرج بالقطيع راع الى الجبل ويعود به في المساء ليودع في كل بيت عنزته ، وتحمل هذه العنز في الغالب ما يشبه رافعة الصدر .. وهو كيس من الجلد مربوط إلى ظهرها لحماية ثديها من الاذى ، ولبنها من السرقة .

وأمام المستشفى يقف أحمد عواض ، الممرض الرئيسي في انتظاري ، الا اني اليوم لن أفحص أحداً . فقد ابتدرني القاسمي طبيب الجنود المحبوب قائلاً بحزن : « لقد انتهت الملهاة ، اذ لا وجود للعلاج ..ولا قيمة اذن للروشتات »

ولكن أموراً في غاية الاهمية تنتظرني هذا الصباح .. لقد أخذت لفة من الخيوط التمرية وذهبت أصلح السرر المحطمة ، فقد سبق ان اقترحت منذ أيام فصل مرضى السل عن غيرهم ، واستقبل هذا الاقتراح بالحماس بل وبما هو أكثر من الحماس ! ففي اليوم التالي كانت النساء المسكينات يرقدن في فوضى وعدم ترتيب على الارض .. على الاسمنت البارد .. في حجرة كبيرة مهجورة .. واستهدفت لهذا السبب لغارة من اللوم والعتاب المر .. فوعدت ان استحصل على سرير بكل سرعة ، وخلف المستشفى مجموعة من السرر المحطمة .. ليست تالفة نهائياً .. ولكنهم هنا لا يحبون كثيراً تصليح الاشياء .. ذلك لانها ستظل في الورشة ستة أشهر ولهذا طلبت من الممرضين ان يساعدوني .. وقد دهشوا لهذا الطلب ورفضوا ،

فليس من اللائق ان يدخل من يحمل شهادة ما وسط ركام من بقايا السرر المكسرة المهدلة يفتش ويعمل .. ولست بعد قوية في مركزي حتى أستطيع ان أصدر أوامري .. وبناء على كل هذا قمت بالعمل بنفسي يساعدني ثلاث من الخادمات .. وكان الرجال ينظرون الينا في استخفاف ولا يتحركون .. وكنا نحن بدورنا نسخر منهم قليلاً .. .. وعندمـا رأوا ان الخيوط قد نفعت في اصلاح بعض السرر بدأ الأمر يعجبهم .. ويجذب اهتمامهم .. والانسان السوي حتى ولو كان شرقياً لا يستطيع ان يقاوم الميل والانجذاب الى العمل المثمر ، وكانت احدى الخدم .. بلهاء وبكل احتقار تقدم منها أحمد عواض ليقدم لها ارشاداته .. ثم ألقى بها جانباً ، واتخذ مكانها .. ولم يتأخر زملاؤه عن تقليده ، وقد رأينا نحن النساء الجنس الخشن ينشط ، وحينما جاء المدير في اليوم التالي ورأى الحجرة الجديدة ، نال الممرضون النصيب الاوفر من ثنائه !

وفي كل صباح يعطيني المدير قائمة باسماء المرضى الذين يجب علي زيارتهم في المدينة .. وهم أمراء وموظفون وفقراء.. أما التجار وأصحاب الحرف الصغيرة الذين يدفعون أجراً فانهم يتصلون مباشرة بالترجمان ..وفي نحو الساعة الحادية عشرة تبدأ دورتنا . وكان عبده قوي العضلات لا يتعب ، أما السائق الضعيف فقد كان يحمل حقيبتي في ملل وألم .

وهكذا ظللت أكثر من عام أقطع شوارع المدينة من بيت الى بيت فـي أكثر ساعات النهار حيوية .. عندما تفتح الدكاكين أبوابها وحينما يباشر الصناع أعمالهم ..

وكنا في أغلب الاحوال ننظم خط السير بحيث نمر بالاسواق فنقوم باكتشافات لا نهاية لها ولا حد .. فيوماً نمر بمحلات الخزف والفخار حيث يشتري المرء بثمن زهيد القلل والمواقد والمباخر المصنوعة من الطين المحروق .. ويوماً نمر بسوق السلب أو الحبال حيث الزكائب والشوالات البسط وملابس الفلاحين من الصوف المحاك .. ويوماً ثالثاً بمحلات

الجلود حيث السروج والاحذية والنعال الملبسة بقشرة من السيور الجلدية الخضراء الجميلة ، وحيناً نمر بخراطي الخشب ومزخرفي النارجيلات والنجارين الذين يقفون وجهاً لوجه يعملون المنشار في كتل الخشب المثبتة في حفر من الاسمنت .. والسباكين الذين يقومون باعداد العقود الزجاجية وبالحدادين في حوانيتهم الصغيرة المظلمة حيث يحس الانسان بنفحات الكير القوية ، خلف الشرارات الحمراء .. وحيناً نمر بأماكن بيع الاواني النحاسية .. المواقد والمباصق وأباريق القهوة والصواني. ومررنا بمحلات الثياب ومزخرفي الاحزمة والخياطين وبائعي الفراء .. وأخيراً بمحلات الخناجر أو كما يسمونها في اليمن الجنابي .. ممر كامل للصقالين وصانعي المقابض والجراب أو التوزة كما يقولون لها .

من لم يتجول في صنعاء على ظهر حصان ، فليس له ان يفاخر بأنه قد عرف صنعاء .. فحيث يكون الانسان أعلى من الناس يمكنه ان يرى الاشياء المتنوعة .. ويجد الاوروبي نفسه حائراً عاجزاً أمام انتاج الصناعات اليدوية المتنوع التوازن . ومع هذا .. فالمرء جزء من هذا الجمهور يعيش حياته ، ويستطيع ان يفهمه .. والناس هنا حاضرون ، مستعدون يبتسمون ويتطلعون الى المارة .. ويتكلمون فيما بينهم .. وتظهر عليهم السعادة في حياتهم البسيطة . عندهم متسع من الوقت ، فليسوا عجلين ولا مرهقين.. انهم هزيلون في أغلب الاحوال .. ويرتدون ملابس رثة .. ولكنهم ليسوا مستعجلين أبداً ولا يتعبون أبداً ذلك لانهم لا يعملون قليلاً ولا كثيراً .

وعندما سألت متسولاً صغيراً : « ماذا يعمل والدك ؟» أجابني : « يصلي .. ويظل يتجول ويتنزه .. » !

وفي هذا الوسط اذا حدث شيء لاحدهم ولو كان شيئاً تافهاً فـان عشرين شخصاً يهتمون بالامر في الحال .. وهذا تطفل وهو غالباً مـا يضايق .. ولكنه ودي دائماً ، ففي الوسط العربي لا يشعر الانســـان بالوحدة أبداً ..

وفي الظهيرة .. ودون خوف من اللصوص ، يقفل كل تاجر دكانه بخيط خفيف ويذهب يؤدي صلاته في المسجد ، ويلتقي في الطريق برجال قد سربلوا أكمامهم الطويلة لوقاية أيديهم .. وقد تطهروا في بيوتهم تمادياً للزحام في أحواض المساجد .. وهم مستعدون للصلاة .. ويتأخرون في المساجد .. لأن المقاهي محرمة .. والمسجد هو المكان الوحيد للاجتماعات العامة .. وبعد تبادل الاخبار كلها .. يذهب الاغنياء لشراء القات. واليمنيون يحرصون على الراحة كثيراً .. فأوراق القات يمضغونها طازجة وهم لهذا يقطفونها في الصباح المبكر من ضواحي صنعاء وينقلونها الى المدينة في ربط من أوراق الذرة الخضراء حتى لا تجف ويخرج الناس من المساجد ليتزاحموا على أشجار القات .. وكل واحد يريد ان يختار بكل عناية أجمل الباقات .

وتخلو الشوارع فالناس قد ذهبوا للغداء .. وكثيراً ما كنت أقبل دعوات عملائي التي يستحسنها عبده فهو أيضاً يستفيد منها .. وقد يكون الداعي موظفاً في البريد أو مدير مدرسة أو كبير البنائين أو ضابطاً تركياً قديماً أو مزارعاً غنياً .

ومن المدرس والبناء تعرفت شيئاً فشيئاً بصنعاء ولكنني أحببت أيضاً موظف البريد ذا القلب الطيب .. فقد مات له عجل صغير .. وحتى لا تحزن البقرة الوالدة فقد حشا جلده بالتبن .. وكانت البقرة المسكينة تتشممه في حيرة واضطراب ..

أما الضابط التركي فقد كان في سن السبعين .. وهو هزيل . وقد تجعد وجهه .. وهو ذو أدب ولطف وفي استعراض يوم الجمعة يرتدي بدلة عسكرية من القطيفة الوردية ويرافقه خادم يحمل له السيف ولا يقدمه له الا في اللحظة التي يحيي به نائب الامام ..!

أما اليوم فالذي ينتظرنا هو المزارع .. وهو يوزع وقته بين مزرعته التي تبعد ست ساعات بالبغلة في صنعاء .. وبين بيته الذي يقع في حي

قدم من أحياء المدينة ولا تقدم الوجبة أبداً في المفرج .. بل في الطابق الاسفل حيث المطبخ .. ويمكنني في هذا المكان أن أرى الناس قبل الغداء.

وفي الصباح قلما يرى الانسان امرأة في الطريق .. اللهم الا فلاحات في السوق ، أو نساء فقيرات ملفعات بأقمشة سوداء يخرجن لجلب المياه. وعلى رؤوسهن « تنكة » من الصفيح الابيض .. وقد حلت محل القلة القديمة الثقيلة القابلة للكسر .. ولو قدر لعالمنا الغربي ان يختفي فجأة ، فلعل هذه الصفيحة هي الأثر الوحيد له في هذا البلد .. !

وتقوم النساء في الصباح بالتدبير المنزلي فينفضن المفارش ، ويلمعن الاواني النحاسية بالليمون والرماد .. ويغسلن الملابس وينشرنها بعد ذلك في الشرفات وعلى السطوح .. ويقمن باعداد الطعام في مطبخ مظلم ولكنه حسن التهوية ،، ففيه فتحات صغيرة في أعلى الحائط وفوق التنور . وعندما وصلت كانت الصحون على المواقد الفخارية والنار تحتها . أما الخبز الرقيق فانه يخبز في تنور « فرن » . والتنور اسطوانة سميكة من الفخار تتزود بالحرارة من أقراص السباخ « الكبا » وتقوم عجوز بوضع العجينة على جدران التنور بعد ان تغمس يديها في الماء لتتفادى الاحتراق .. وتقوم امرأة أخرى بتحضير الشعيرية .. فتاة صغيرة تسحق الحضرة فوق صخرة قد مهدت لهذا بطول الاستعمال .. تقوم رابعة بهز اللبن في الجرة لتصنع منه نوعاً من الزبدة البيضاء .. نصف زبدة : نصف لبن رائب يستعملونه مذاباً على وجه الخصوص .. وكان مضيفي يسكن مع أمه العجوز وزوجتيه الاثنتين وبناته .. ولكنهن لا يتناولن طعامهن أبداً . بل يقمن على خدمته وينتظرن حتى ينتهي من طعامه ويصعد الى المفرج وبعد هذا يجلس مكانه ويأكلن بدورهن .

ورب البيت في الاربعين من عمره ، ويعيش ومثله أخواه الاثنان ، من دخل أملاكه الزراعية التي تمتلكها أسرته منذ أجيال عديدة .. ويعمل فيها خمسة وعشرون عاملاً زراعياً .. أباً عن جد .. دون ان يكون

هذا بوجه الالزام .. وحياته عاطلة ولكنها ليست مترفة .. ويكاد يكون عمله الوحيد في صنعاء هو بيع الجزء الذي لا يستهلكه من انتاج أراضيه: فواكه وحبوب ومواشي .. وهو راض بعمله ، والدليل على هذا أنه قد جعل أساس منزله من الحجر وهذا دليل الرخاء .. ويحذق البناؤون في صنعاء هذا العمل .. زد على هذا ان مضيفي قد جهز قاعة الحمام الحديثة بالبلاط الابيض .. وأعد المفرج وعقده الزجاجي الملون .. وقد كلفه كل هذا مائتين وخمسين ريالاً .. وقد قدم لي كل التفاصيل التي تهمني .. أما هو فكان يريد مني أمثالاً فرنسية .. واليمنيون يقدرون دائماً هذا اللون الشعبي من الحكمة ، ويحبونه لأنهم يفهمونه بسرعة .

وبعد الغداء .. لا أحد يعمل .. فالصناعات اليدوية ومكاتب الحكومة والورش الصغيرة ، والمحلات التجارية .. كل هذا مغلق .. واذا فتحت بعض الدكاكين من الساعة الرابعة فليس الا تكملة للدخل اليومي الناقص فمثلاً .. أبو الفتاة « هاجر » هو جمال في الصباح .. ولكنه بعد الظهر يبيع الحطب والكاز ..

وبعد الظهيرة يتغير طابع الشوارع ومظهرها كلية ، فالرجال يذهبون الى مجالس القات وقد حملوا معهم ربط القات .. وصناديق التنباك تحت أكمامهم أو على ظهورهم ، أما النساء فيظهرن في الشوارع وقد تغطى الجسم كله من قمة الرأس الى أخمص القدم بملاية هندية ذات رسوم متشابهة وألوان حمراء وزرقاء وخضراء .. وعلى الوجه حجاب أسود شفاف يتلمسن طريقهن من خلاله ، وتزينه دوائر بيضاء وحمراء تعطيه شكلاً غريباً شبيهاً برؤوس الحشرات .

وتشد الانيقة منهن الملاية الملفوفة حول جسدها ، وتسير هكذا في خطوات متهادية .. ويلبسن أحذية ضخمة وذات كعب منبسط على الشكل الاوروبي وهو مصنوع محلياً .. انه أنيق ولكنه ثقيل . وكثيراً ما يخلعنه ويضعنه على رؤوسهن بقية الطريق .

ويغيب بعد الظهر حتى عبده مترجمي .. ولا يقبل على مرافقتي اذا كان لا بد لي من القيام ببعض الزيارات .. ويقول .. « مستحيل يـا حكيمة .. ان الرجال ليسوا موجودين بعد الظهر .. حتى ولو كانوا موجودين فانهم مشغولون بمضغ القات .. » وهو يعني بهذا انه سيحرم من المنحة الصغيرة التي قد يعطونها له .. الا اني اليوم ذاهبة الى بيت عامل صنعاء ولا أريد تأجيل الزيارة الى الغد .

ان العامل لا ينتظرني بكل تأكيد .. ان حوله خمسة عشر أو أكثر من الزوار في المفرج .. وقد نسي تماماً حاجته الى الكشف الطبي .. وبصعوبة تبينت الصنعائي الرقور الذي تعودت ان اراه في الصباح ، لقد أخذ كل واحد منهم راحته فألقوا بالخناجر والعمائم جانباً وشوه القات وجوههم وهم يلوكونه في الحنك الايسر .. أما الرجل العجوز الذي تساقطت أسنانه جميعها فانه يسحق أوراق القات النظيفة بكل عناية في مدق صغير .. وفي القات قليل من المرارة ولكنهم يلطفونها بوضع قطعة من السكر بين القات في أفواههم .. وهم أيضاً يدخنون النارجيلة « المداعة » فيتداولون قصبتها بأدب ويشربون الماء المبخر .. كل هذا مع الاحتفاظ بمضغة القات فـي الفم ساعات طويلة .

وأثر القات لا يكون في أول الجلسة مقبولاً ،إذ هو دوخان وارتجاف وخفقان وارق ، أما بعد ذلك فيصبح الفكر رائقاً نشيطاً ، متفائلاً ، وتغدو الروح سمحة رقيقة ، والجسم هادئاً ، والجنس كامل الصفاء .. ويحب كل واحد ان يتكلم كثيراً وان يقص الكثير في حكايات القات . ويختلف طعم القات وآثاره باختلاف نوعه ومنبته . ويوجد اليوم قات « متنقل » يدفع المرء الى جولات طويلة في الليل .. بدون هدف .. وبشيء من الذهول والنشوة ، وقديماً كان هناك قات دموي يدفع مدمنه الى العنف .. ولكن الائمة الحكماء أمروا باستئصاله .

وكان من العبث سحب عامل صنعاء من انسجامه العميق واسترخائه

وأنا لا أقوم بعد الظهر بزيارات ، ولكن كثيراً ما أدعى الى مجالس النساء فأنا اليوم مثلاً ذاهبة لزيارة زوجة الصيدلي . وللنساء مجالسهن الخاصة ، الا ان الرجال في المناسبات الهامة يتركون لهن المفارج .. وتخلع كل قادمة ملايتها وحذاءها وتضعها فوق اللفات المكدسة في الحجرة .. ثم تدخل وتحيي الجالسات في الغرفة ويتبادلن تقبيل الأيادي .. وثمة نظام دقيق يحدد طريقة التحية وعدد القبلات . ومن يجب ان يبدأ أولاً وفيما اذا كان لا بد من الوقوف .. الخ . وتجد أخيراً مكانها حيث تجلس متربعة لا تتحرك ساعتين أو ثلاثاً ..

والرجال يفضلون المجالس الصغيرة ، حيث لا يزيد العدد عن خمسة عشر شخصاً .. وهذا مناسب للحديث والنقاش .. أما النساء فيعشقن الكثرة .. وقد يصل عددهن أحياناً الى أكثر من مائة سيدة .

وتكون النوافذ مغلقة بالستائر ، بل أحياناً بالسجاد ، والعقود الزجاجية وحدها هي التي تضيء الحجرة ، وفي هذا الظلام الخفيف يتكون من ثياب هؤلاء النسوة الجالسات ، ومن يرافقتهن ، روضة ساحرة جميلة زاخرة بالالوان الصارخة المتعددة ..

ولليمنيات وجوه ممتقعة شاحبة ، وملامح متناسقة ، وهن يستعملن أصباغاً كثيرة .. ولا يكتفين بالروج للشفاه والخدود والاظافر ، بل والكحل أيضاً الذي يجسم الحواجب ، ويضع نقطاً دقيقة ، تحت الفم وعلى الجباه ، أما اليدان والقدمان فتزينهما جدائل سوداء في شكل أكليل من الزهور والخضرة كقفاز من الدانتلا . بل ان بعض النساء يرسمن أشكالاً تزين صدورهن وتنزل الى ما بين النهدين ، ولكن هذه النعمة لا يعرفها الا الزوج والطبيب .. فالنساء يلبسن ويتزين في حدود الحياء تماماً كزوجة الامير التي التقينا بها في حمام علي .. وتفصيل الملابس واحد لا يختلف ، والقماش وحده هو الذي يختلف ..

العجائز يضعن على رؤوسهن خماراً من الشاش المزركش مشدوداً حول

الرأس ويخفي العنق ، ويضعن على الجانبين أغصاناً زكية الرائحة ، عطرة ومشابك طويلة .. وهذه موضة قديمة قد هجرتها الشابات اللائي يفضلن ان تكون عصابة الرأس على الطريقة التركية .. الا أنهن لا يعرفن تجانس الألوان .. أو بالأحرى ان ذوقهن يختلف عن ذوقنا ، وعلى هذا فهن يحببن مجاورة اللون الاحمر القرمزي للاحمر القاني تماماً كالهنديات .. وهذا يبدو لنا قبيحاً ..

وفي هذه المجالس تدخن النساء كثيراً ، واذا كان الزوج كريماً فانهن يتعاطين قليلاً من القات .. وتتحدث كل واحدة همساً مع من تجاورها وقد تقول بعض الجريئات شيئاً يهز ، فتطلق النساء من حولها صرخات الدهشة والعجب .. يوه .. يا اختي ! مع اخفاء وجوههن ..انهن يتكلمن قليلاً ولكنهن يرقصن كثيراً .. ويفسح المجال في الوسط بكل صعوبة وتقف مغنية في يدها الدف .. ثم تنهض امرأة وتدعو احدى زميلاتها .. ويرقصن اثنتين اثنتين .. أو ثلاثاً ثلاثاً .. وأحياناً أربعاً .. وتتقدم الراقصات .. ويدرن وينثنين طبقاً لنظام يبدو لأول وهلة رتيباً مملاً .. ولكنه لا يلبث ان يصبح ساحراً فتاناً عندما يتعود عليه الانسان ..وتخفض النسوة طرفهن .. ولا يبتسمن ويمسكن منديلاً بيد وطرفاً من الثوب ، وبالأخرى تمسك يد زميلتها في الرقص .. ويكمن فن الرقص في أوضاع القدمين المعقدة اللتين تنتقلان على الارض .. وفي حركات الارداف .. وتظل نساء اليمن نحيفات .. طريات العود .. طوال حياتهن ، وهن غير راضيات لهذا .. فالمرأة المثالية في نظر اليمنيين .. هي البيضاء البدينة الجميلة .. وكثيراً ما طلب مني الرجال ان أعمل على ان تصبح نساءهم بدينات ، ولكن دون جدوى للأسف .. والفتيات الصغيرات وجوههن جميلة .. الا انهن لا يحسن الرقص لأن أجسامهن متصلبة ناشفة ..

ويثير اهتمامي ان تقوم للرقص امرأة متقدمة في السن ، ذات وجه أغبر ، تتكلف الدلال والغنج .. انها بكل تأكيد تجيد ذلك الخليط العجيب

من الهز والتماوج الذي يعطي رقصات الشرق ذلك السحر وتلك الفتنة .
وهكذا تقضي النساء أوقات فراغهن ، بعيداً عن الرجال .. في الصباح واثناء الغداء وبعد الظهر .. والمدهش المحير ان هؤلاء النسوة لسن في الدير انهن أنيقات ، مخضبات يرقصن ، ويعرضن مجوهراتهن .. ولكن لا لاسعاد الرجال .. فالرجال لا يشاهدون أبداً هذا البهاء .. وكثيراً ما سألت احداهن : « ولكن هل سيراك زوجك بهذا الجمال وهذه الزينـة .. هذا المساء ، هل رآك ترقصين ؟ » فترد دهشة مستغربة : « كلا ! »
ان البطالة هنا لا تعني الرضا .. ولكنها بكل بساطة تدل على انعدام العمل .. وساعات النهار الهادئة هذه ليست امتيازاً للاغنياء بل ان متوسطي الحال وحتى الفقراء يشاركونهم فيها .. والفرق هو الزينة .. والملابس ونوع القات ..
والقات في العادة يخصص للجمعة والمناسبات الهامة .. أما الايام الأخرى فانهم يدخنون ويضعون في أفواههم « البردقان » أو مسحوق التنباك .
وقد ذهبت مراراً مع « هاجر » عند صديقاتها .. وهن متواضعات الحال مثلها .. وملابسهن تميل الى السواد ، ولا يحملن مجوهرات بطبيعة الحال .. ولا يدفعن شيئاً للمغنيات .. وتشتغل بعض النساء بالتطريز والخياطة لحساب أحد التجار ويدفع أجرهن بالقطعة .. وهن يواصلن العمل في هذه المجالس التي هي أكثر صخباً ومرحاً وحيوية من مجالس نساء الطبقة الراقية .. وفيما عدا هذا فان كل شيء يسير عل نفس الطريقة ..
هذه الحياة الرتيبة الرخوة لن تظل من نصيبي طويلاً .. فقد ازداد المترددون علي في الصباح وكنت أؤجل بعضهم الى ما بعد الظهر .. وعندما يتسع الوقت واشعر انني قد حصلت على ثقة المريض كنت أنتقل به بعد المعاينة الى حجرة الطعام التي تتحول الى مصيدة للاختبارات ولم يكن أحد منهم قد رأى صورة ملونة أو تمثالاً منحوتاً ، أو سمع مقطوعة من الموسيقى الغربية .. ونمضي معاً الى الاسطوانات ونتصفح الالبومات

لنرى القطع الفنية .

فهل حقيقي ان الشرقيين لا يهتمون الا قليلاً بفنوننا ؟ انني أستطيع ان أجيب بالنفي . كل ما عرضته عليهم كان يستقبل بانعكاسات صريحة وكنت أنا دائماً التي أنهي الجلسة وبهذا تمكنت من معرفة أذواقهم ..

فن الزنوج .. فننا الحديث .. فنون مصر .. والصين .. والهند .. كل هذه الفنون أضحكتهم وهزتهم .. أما الفن الكلاسيكي القديم فقد قوبل بدون اكتراث .. انهم يحبون الاعمال الزاخرة بالتفاصيل الدقيقة .. التصويرية .. المعبرة جداً ، ولا سيما فنون النهضة الايطالية أو المدرسة الرومانتيكية الفرنسية .. وفوق كل هذا أعجبهم أسلوب « سان سلبيس » الذي لم يكن معي منه مع الاسف الا نماذج نادرة .

ليس المهم ان يكون للانسان ذوق سليم « المهم أولاً ان يكون له ذوق .. »

في الموسيقى ، ضايقهم باخ وموزارت .. وكانوا يقولون انهم يسمعون « نفس الشيء .. دائماً .. » ولكنهم مشغولون بموسيقى شوبان وليزت والموسيقيين الروس ، ورافل ، وديبوسي وأحبوهم جميعاً ..

وكثيراً ما كنت أتوسع في الاختبارات ، فأفتح النافذة وأرفع الموسيقى حتى يسمعها من بالشارع .. وأراقب وأنا خلف الستارة انعكاسات الناس الذين يتجمعون ..

وكنت أجذب المستمعين بوضع مقطوعتهم المفضلة « الغلام الساحر » ولكنهم يذهبون عندما تنتهي الموسيقى التصويرية فيما عدا الشيوخ في بعض الاحيان .. لقد رأيت رجلاً مسناً يستند بظهره الى الحائط ويتوكأ بعصاه ويظل واقفاً لا يغادر المكان الا بأسف شديد .. عندما انتهت سيمفونية سيزار فرانك .

وكثيراً ما كنت أواصل العمل في المعمل بعد الظهر وكنت التقي بالممرضين الذين يأتون لمساعدتي وللتعلم ولكنهم لم يكونوا يهتمون الا

بدراسة وظائف الاعضاء وكنت من أسئلتهم أدرك مستوى معرفة الصنعائي المتوسط الذي ترك المدرسة في سن الخامسة عشرة .. كل ما معهم هو الاسلام وتاريخ بلاد الاسلام ، ولا يكادون يعلمون ان المانيا قد هزمت في حرب عالمية .. وهم يجهلون كل شيء عن الثورة الروسية وعن مبادىء الاقتصاد والاشتراكية .. ولا يعرفون كيف تقوم الديمقراطية .. ولا كيف تجري عملية الانتخابات .. ولا التصويت بالاغلبية في جمعية. وكانوا يسألونني ان كان لنا في فرنسا ملك طيب .. وعندما كنت أشرح لهم بالحركات والاشارات ما جرى للملك لويس السادس عشر. لم يكونوا يخفون استحسانهم واستصوابهم الحار بل وحماسهم ..

ان حياتهم شاقة عسيرة .. ومرتباتهم لا تكاد تسد نفقات طعامهم وثيابهم .. وهم يتوجعون من الحصار المضروب عليهم ، ومن انهم لا يعرفون ما يجري في العالم .. واذا قدر لليمن أن تتغير فسيكونون هم الذين سيغيرونها .

وفي نحو الساعة الخامسة – يصبح المعمل ، وهو غير مزوّد بالكهرباء مظلماً الى درجة لا يمكن معها مواصلة العمل ، وأختم النهار بنزهة على ظهر حصاني حول صنعاء .. وكما مكنني الحجاب من معرفة الجمهور جيداً جعلني كذلك أذوق حقيقة هذا الريف الذي تنعدم فيه السبل المطروقة وقد ساقني يوماً بالرغم مني الى الاسطبل الذي ولد فيه .. وتعددت زياراتي لهذا المكان من ذلك اليوم .. ويقع هذا الاسطبل على بعد كيلومترات قليلة من صنعاء .. في الجنوب .. وقد استقبلني العساكر مسرورين ، وطافوا بي على الخيل وهي تأخذ راحتها في حظيرة معتمة السقف منخفض ، يقوم على أعمدة ، وبه فتحات يسقط منها قليل من الضوء .. وعلى الارض كومات من التبن ، والخيل غير مربوطة الى الحائط ، بل تتجول بحرية .. وعندها شعور غريب انها في بيتها .. وعلى الرغم من انها كلها غير خصية فانها لا تتقابل أبداً ، بل

تحتفظ حتى الموت ببراءتها وطهرها الاصيل .. أما الفحول ، أو الخيل الطلوق فانها مقاتلة ، وهي لهذا معزولة وحدها .

ويحل الظلام في الساعة السادسة ، فأعود الى صنعاء وقد ارتفع صوت المؤذن يدعو الناس لأداء الصلاة الاخيرة وصنعاء خالية من الآلات ، فلا يرتفع فيها في هذه الساعة الا دوي عجيب .. صرخات ووقع أقدام .. وينسل الحجاب من فتحة الباب الذي يوشك ان يغلق . وتصبح صنعاء مغلقة حتى صباح اليوم التالي .. وتسري الحياة في الشوارع من جديد .. اذ تقف جموع المتسولين أمام أبواب البيوت الكبيرة ويقوم رئيس الخدم بتوزيع الخبز على عملائه .. ويخرج الرجال لأداء الصلاة التي لا تفوتهم الا نادراً .. انها الفاصل الطبيعي بين حياة النهار الاجتماعية ، وحياة الليل العائلية .. وهذه الوقفة النفسية تتم عندنا في أوروبا أمام الكأس .

أما النساء فلا يذهبن الى المساجد ، ولكنهن في مثل هذه الساعة يعدن من مجالسهن الى البيوت في مجموعات صغيرة .. ولما كانت الملايات التي يتلفعن بها على نمط واحد فان الرجل قد يلتقي بزوجته في الطريق ولكنه لا يعرفها .

وبعد كل هذه المتناقضات .. اذهب كل مساء الى ملكة صنعاء ولا يقف حصاني أمام بيت الامام ينتظرني بل يعود بضربة خفيفة على ظهره الى اسطبله بكل هدوء .. ويقف في الطريق أمام النافورة يعب من مائها وهو في سيره يتمهل ويتلفت . .

وهذه العودة المنفردة هي تسلية الحي كله .. ولا يطلب مني حرس القصر أي ايضاح فهم يعرفونني واجتاز الردهتين وأمر بالباب الثالث حيث يصب علي الحارس العجوز فيضاً من بركاته ودعواته ، وأصعد السلالم متحسسة في الظلام .. وافتح باباً .. فأجد الاميرة التي تشرفت بصداقتها في حجرة صغيرة من الطابق الرابع .. والاميرة في سن السابعة والعشرين .. وقد تزوجها الامام قبل خمسة عشر عاماً ولكنه لم يرها

على الاطلاق .. الا ان اقترانها بالامام قد ملأ حياتها .. وهي تشعر نحوه بحب تقي طاهر .. وأجدها تصلي فأجلس في هدوء على الوسائد .. ولعل أجمل لحظات النهار كله هي هذه اللحظات المعدودة التي أمضيها أمام أميرة تؤدي صلاتها وقد ألقت الشمس الغاربة أضواءها على مدينة صنعاء.

وتقف الاميرة وتخلع الرداء الابيض الذي يسبغ عليها مظهر راهبة متنسكة .. وتعود الي باسمة .. انها جميلة وأكثر من هذا .. انها سريعة البديهة .. ماكرة وطيبة .. وقد جمعتنا عاطفة صادقة .. رغم ما يفصل ما بيننا .

وأتركها في وقت متأخر وقد أخلى حراس الليل شوارع المدينة من المارة .. وعلت أصوات الكلاب ، واحتل العساكر مراكز الحراسة ، وأرسلوا صرخاتهم في هذا الظلام الدامس ويقضي الناس أمسياتهم في المفارج العليا ، ومن فوق النوافذ الخشبية المقفلة تشع العقود الزجاجية أشكالا متعددة الالوان .. وكأن صنعاء متوجة بجواهر متلألئة .

الفصل الثاني عشر

عام في صنعاء

رمضان – العيد – شكوى–
ديك عيد الميلاد

تتشابه الايام في سهول اليمن العالية لأن الطقس لا يتغير في مختلف الفصول ، ولكن السنة تتميز بفصل الجفاف الطويل ، وعواصف الربيع وحياة شهر رمضان المعكوسة ، وأفراح الاعياد الكبيرة .

ففي يناير ، وقد حرمت صنعاء من المطر ثلاثة أشهر ، يظهر الجليد في الليل أحياناً ، وتندر الازهار في الحدائق والبساتين ، أما في الصباح فان الاطفال يلعبون بأقراص الثلج ..وتغرب الشمس في نحو الساعة الخامسة وترتفع درجة الحرارة سريعاً . فلا يأتي آخر الشهر حتى تكون الاشجار المثمرة قد تفتحت أزهارها .

وفي فبراير ومارس يزيد الغبار .. ويصاب الناس بالسعال.. ولاتتوقف الآبار عن الصرير .. ويبدأ الحرث في ضواحي صنعاء .. فيسير الرجل بمحراثه في الحقول التي تعتمد على ماء السماء ، تتبعه امرأة تضع البذور حبة حبة وترد عليها الرمال بقدميها ، وتجف تربة الحقول التي سقيت وتصبح قشراً صلبة يضربها الرجال بالفؤوس وتفتتها النساء وراءهم .

أما صنعاء فتأخذ في التأنق والنظافة ، فتفرغ من الرماد والزبالة ، ويقف رجال معلقون في حبال قوية يطلون واجهات البيوت ويبيضونها وتغسل النوافذ الخشبية في برك المفارج وترفع الفرش والسجاجيدفي حجرات المنازل .

ويأتي المطر الذي انتظروه بفارغ الصبر .. والجو في الصباح جميل دائماً ، وفي الظهيرة تنتشر السحب في السماء ، ثم تهب الرياح وتبرق العواصف .. عواصف مزعجة مصحوبة بزوابع مائية تحول الشوارع الى مستنقعات ، وتتسبب احياناً في انهيار المنازل ، وفي المساء تصفو السماء ويخضر كل شيء ، في البساتين .. وتأخذ أحجار الجبال ، وأوراق أشجار الحوائج التي غسلتها الامطار ، وأزالت عنها الغبار ألوانها الحقيقية ويسير الاطفال في الارض الموحلة وهم يرددون الاغاني .. نفس الاغاني على الدوام .. أما بالنسبة للخيل فان هذه فترة رديئة.. فاذا تبللت حوافرها مشت عرجاء ..

ويظل المطر هكذا من ابريل الى أكتوبر .. أمطار قليلة في الربيع ، غزيرة في أغسطس وسبتمبر ، وتفصل بينها ، نظرياً ، فترة سكون ، الا أنها في الحقيقة ليست منتظمة ..

وفي شهر أبريل تمتليء البساتين بالازهار والخضروات والفواكه وتميل السنبلة الى الصفرة .. وتنضج الكروم في يونيو ..

وكان رمضان – أثناء اقامتي في صنعاء – يحل مع حرارة الجو في يونيو .. ولكن الشهور العربية قمرية ، وهي لهذا أقصر من شهورنا ، فيتقدم رمضان والاعياد الكبيرة قليلاً في كل عام ..

والصوم ينتظر بخليط من العواطف .. انه امتحان دون شك ولكنهم يقلبون الحياة رأساً على عقب .. فمن شروق الشمس الى غروبها لا يجوز لهم تناول أي غذاء .. فلا يأكلون ولا يدخنون ولا يمضغون القات ولا يستعملون الحقن . والصوم يُفرض من سن الخامسة عشرة ، ولكن

النساء لا يواصلن الصوم أثناء فترات الحيض ، بل يعوضن الايام التي أفطرن فيها بصوم أيام مماثلة في الشهور التالية .

وقد وجد اليمنيون حلاً لصعوبة رمضان ، فهم يستيقظون الليل وينامون النهار ويسير كل شيء في هدوء . ففي الصباح تخلو الشوارع وتغلق الدكاكين .. ويخرج العساكر من أماكنهم والنوم يداعب جفونهم .. ويذهبون الى المسجد للصلاة .. بل ان المستشفى يخلو من المرضى الذين يرفضون العناية بهم في رمضان .. ولكن الناس أجمعين يتلون القرآن حتى أولئك الذين لم أكن أصدق أنهم يعرفون القراءة .. ويكون السؤال عندما يلتقي الناس في الشوارع هو : « كيف رمضان ؟ » وبعد الظهر تدب الحياة في المدينة بالقدر الذي لا غنى عنه .. وعند الغروب تعلن المدافع انتهاء الصيام .. ويسرع الناس فيشربون ، ويشعلون لفافات التبغ ويتناولون قطعة من الخبز وبعض حبات التين .. ولكن أحداً لا يأكل قبل ان يقتسم اللقمة الأولى مع أول من يلتقي به في الطريق في تلك اللحظة ، وكثيراً ما قدموا لي — انا المسيحية التي لا تصوم — واقتسموا معي أفطارهم .. وهذا دليل على العاطفة الأخوية..ولعل هذا أعظم ما أعتز به ..

ان ثقة الناس قد زادت بسبب جهودي في سبيل ايجادالادوية وتوفيرها لهم .. وقد كان لهذه الثقة قيمتها العظيمة في الاوقات العصيبة .. فقد فقدت في أول الامر عملائي من التجار الاغنياء .. لأني أعالج الفقراء مجاناً وهم يريدون ان أعاملهم كما أعامل الفقراء .. ثم انهم لم يعترفوا لي بأن أنظم زياراتي بناء على خطورة الحالات واهميتها لا على ثراء المريض أو فقره .. وفقدت بعدهم عملائي من الامراء .. فقد كانوا يستدعونني لأتفه الاسباب وفي أي وقت ، وكنت أستجيب لهم .. الا اني وجدت انه من المستحيل ان أضحي من أجلهم بعملي الضروري فكنت أتجاهلهم فيما بعد وأتظاهر بالغباء لقد رفضت ان أكون تسلية لهم ..حتى لقد طردت يوماً أميراً وقحاً من حجرة العيادة ، وكان قد دخلها بحاشية

مكونة من عشرة أشخاص .. وعتذروا عبده للامير وهو في ارتباك وقال له : « هؤلاء الفرنسيون ان رؤوسهم من الحديد .. وهناك أشياء لا يستطيع الانسان ان يجعلهم يفهمونها .. » أما المرضون فقد أدركوا صراعي وعرفوا أني رفضت ان اترك عيادتي المزدحمة بالمرضى استجابة لنزوة أمير ..

وقد رفعت عائلة أحد الامراء شكوى ضدي الى الامام .. لأنهم طلبوا مني أن أنتظر أكثر من ساعة حتى يذهبوا الى الصيدلية يحضرون منهـا حقنة ليست عاجلة .. ورفضت الانتظار لأن أعمالي كانت كثيرة .. وقد قال الامير محتداً : « اذا مرض الامير فعلى المدينة كلها ان تنتظر » وقد دهشت ان أجد أميراً ، يتظاهر بالتدين ، أنانياً يدعي أن من حقه ان يسخر لخدمته الطبيب الوحيد في مدينة كبيرة ..

وعلى كل فقد مر العام بسلام .. وقد تجولت خارج صنعاء ، وأرسلت مراراً عديدة الى مدن نائية كمدينة ذمار ، ومناخه ، ومأرب ، واستعدت عطف الامراء ورضاهم دون ان أضحي بعملي .. وكنت في آخر العام سعيدة لأني لم أعد وحدي ، فمعي في المستشفى مساعدة فرنسية أسلمت وسموها نجيبة ، وهي تعيش في صنعاء منذ مدة سابقة .. وقد جاءت الى صنعاء مع زوجها ولكنها لم تكن راضية ولا سعيدة ، وبفضلها عرفت النساء من الوسط الشعبي .

وفي الفترة نفسها جاء الى صنعاء مهندس لتشييد محطة الاذاعة وهو من عائلة يوغوسلافية تقيم بلبنان منذ زمن طويل .. ويحمل دبلوماً من مدرسة فرنسية كبيرة ويجيد الفرنسية والعربية . وقد أفادتني خبرته الطويلة وفهمه العميق للشرق الذي عمل فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً . وقد قررنا ان نتبادل المعلومات ... أسرار الرجال مقابل أسرار النساء .. وبهذا عرف مني حياة النساء الداخلية وأحوال الفقراء .. وعرفت منه حياة الرجال وشؤون الامراء .. يبدو لي أنه ليس هناك ما هو أفضل من تعاون ودي بين مهندس وطبيبة لفهم بلد ما ودراسته .

وكان للمهندس مشاكله وصراعه .. ولكنها كانت كلها تتذلل وتهون وكان منزله ملتقى أكثر رجال صنعاء تفتحاً وذكاء ..

وانتهت السنة وتوقعنا ان يمر يوم عيد الميلاد كما تمر بقية الايام .. ولكننا ظللنا من الصباح الى المساء نستقبل أصدقاءنا اليمنيين الذين جاءوا يتمنون لنا عيداً سعيداً .. أما سيف الاسلام البدر فقد تذكر عاداتنــــا الغربية فأرسل لنا ديكاً رومياً من الحديدة ولكننا أنقذنا حياته وظل طوال الشهور التالية يتنقل في ارجاء البستان رمزاً حياً للكرم .

وبعد فأني سأتحدث عما قليل عن أولئك الذين عرفتهم هناك ،سأتحدث عن الرجال والنساء والاطفال ، عن الامراء والجنود ، انني لا أدعي اني قد رسمت لهم صوراً كاملة .. فقد قصصت بكل بساطة ما استطعت ان أعرفه من حياتهم ، وفي أي المناسبات التقت حياتهم بحياتي . ولكني قبل ان أتناول تلك الاقاصيص ، أجد من اللائق أن أحيي المؤثر الرئيسي في حياتهم ، ذلك الموجود في كل مكان ، الذي يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .. انه يعرف كل شيء ، ويعلم انه على كل شيء قدير ، انه أكبر من كل شيء متكبر ، غيور ، خبير ، له الحمد والثناء ، كريم للذين يخشون قدرته .. فهل يحب بني الانسان لست واثقة من ذلك ، ولكنه عادل .. ولا يمانع ان يكون رحيماً من حين لآخر ..

فهو بالاجمال ذات تجب معرفة الوصول اليها .. وقد انتهى اليمنيون الى معرفة ذلك انهم يفزعون اليه قبل كل شيء ويحمدونه في السراء والضراء إنه شاهد أبدي ، ورفيق لا يمل ، وهم يرددون اسمه في كل وقت ..وبلا انقطاع .. وقد صنعت صنيعهم ولربما قد التقيت به مرة .. ولكني قليلاً ما أعرفه .. ولا أستطيع ان أتحدث عنه أكثر مما قد فعلت .

الفصل الثالث عشر

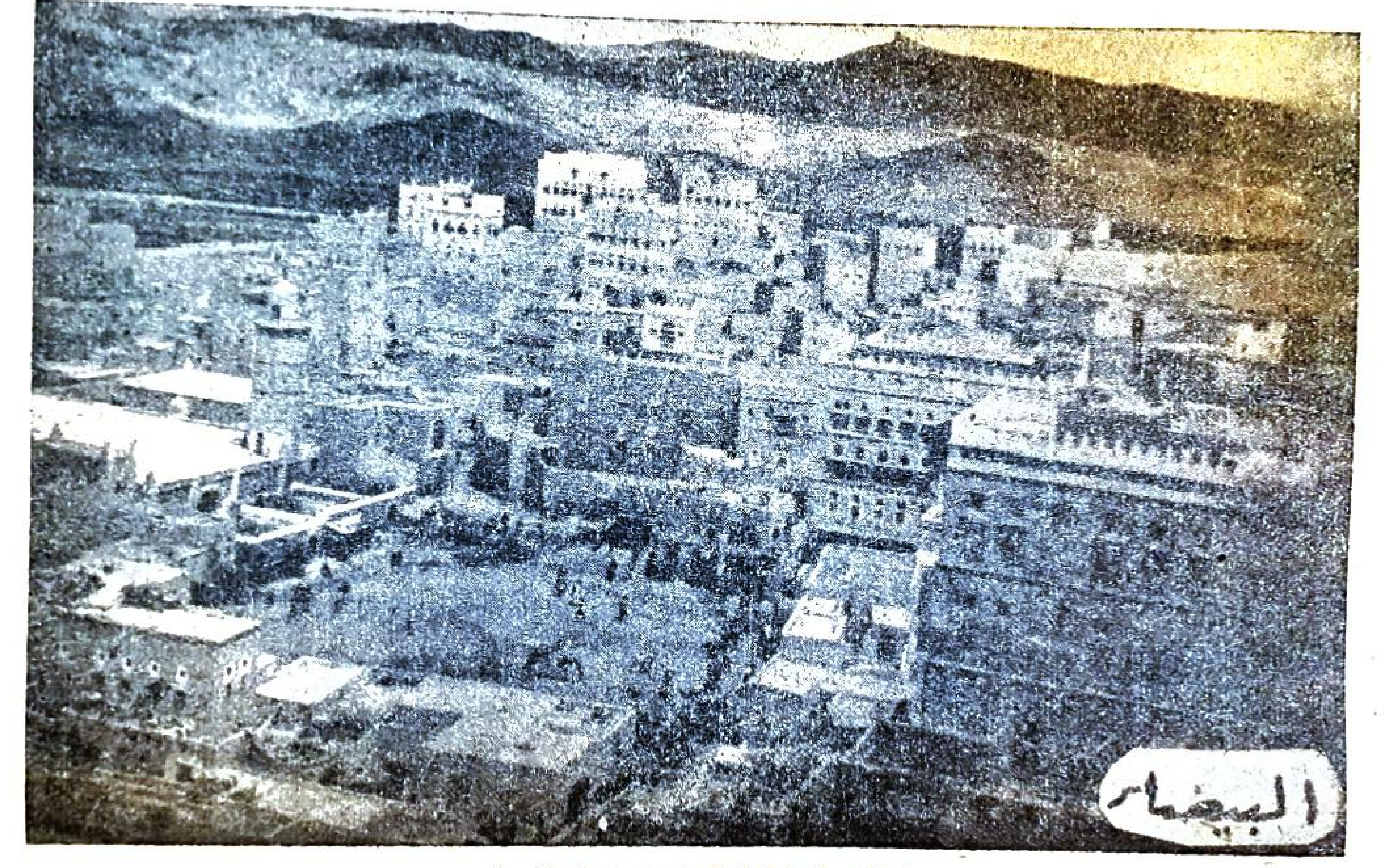
قصص من كل لون

●

فتاة صغيرة تريد ان تتعلم

شريفة في سن الثانية عشرة ، ولطفية في الثامنة من عمرها ، جاءتنا من جبال الشمال .. فقد عرفت الفتاة الكبرى انه بعد موت والديهما لن يجدا في القرية علاجاً لبؤسهما وتعاستهما ، فسحبت أختها الصغيرة وذهبتا الى صنعاء تجربان حظهما . وكانت الرحلة قاسية شاقة استمرت ثلاثة أشهر وصلتا بعدها الى المستشفى .. واستعادتا صحتهما وحيويتهما .. ولكن شريفة خرجت من مغامرتها ببرود مصطنع . وغير الطبيعي بالنسبة لفتاة في مثل سنها لم يعد ينظر اليها على انها طفلة .

وحينما عرف المرضى اني قد أحضرت معي علاجاً ، تزاحموا على المستشفى وكثر عددهم فأردت ان أخلي السريرين اللذين تحتلهما الفتاتان شريفة ولطفية لانهما لم تعودا بحاجة الى العلاج ، ولكني عندما تحدثت عن اخراجهما توسل الي كثيرون ان احتفظ بهما ، وقد وصف لي عبده الملجأ الواقع خارج المدينة الذي يجمعون فيه العاجزين واليتامى وكان هذا ما ينتظرهما ، وهو أمر فظيع ، وقد تصورت هذا بسهولة ولم تسعفني



البيضاء .. المدينة العزلاء التي تتعرض لهجمات الاستعمار

الشجاعة لزيارة هذا المكان .. واذن فما العمل ؟

ان سيدة فلسطينية تدير مدرسة وتعلم فيها عشرين فتاة الخياطة وقراءة القرآن .. وشريفة حادة الذكاء ويمكن المراهنة على مستقبلها وقد أبديت استعدادي الدفع نفقاتهما ليعيشا عند احدى العائلات على ان يذهبا الى المدرسة كل صباح .. وقبلت شريفة بتحفظ واتخذنا كل الاجراءات .. في اليوم المحدد منعهما المدير من الخروج .. وحجته ان الاعتماد على مسيحية في كفالة صغيرتين مسلمتين مادياً ومعنوياً أمر له خطره وأهميته ولا يجرؤ المدير على البت في هذا الموضوع .. ولا بد من الكتابة الى الامام .. ولكن الامام أبداً لا يرد .. وظلت الفتاتان تسرحان في أرجاء المستشفى .. وبدأت شريفة تدرك ان ملاطفة العساكر يمكن أن يأتيها ببعض النقود .

والمدير في سن الثانية والعشرين وهو يشغل هذه الوظيفة برغم حداثة سنه لأنه من أسرة كبيرة مخلصة للامام .. ولما كان عديم الخبرة فقد عينوا له مساعداً يكبره ببضع سنوات .. ولا يكاد المدير يفارق مساعده وقد ذهبت مرة لزيارة أسرته في بيته الجميل في النهرين .. وأردت ان التقط بعض الصور .. فوقف الرجلان أمام الكاميرا واحتضن المساعد صديقه المدير واخذا يتبادلان القبل والعناق وكنت أشجعهما والتقط الصور الواحدة بعد الأخرى .. وتملكني احساس مبهم ان هذه الصور قد تنفعني يوماً ما .. وفعلاً .. استدعاني المدير في اليوم الثاني وكان يبدو متضايقاً منزعجاً ولعله فكر في الامام وفي ما يمكن ان يقوله عن مسلمين وقورين يمزحان وطلب مني المدير ان أسلمه الفيلم فأجبت ، وهل تعطيني الفتاتين ؟ وضحكنا لهذه الدعابة وألقيت السلاح الذي في يدي بتردد وارسلت له الفيلم كله ولكن العربي يحترم كلامه .. ولهذا فقد وجدت الفتاتين في منزلي في اليوم التالي ..

ونزلا أولاً في منزل بائس .. ثم وجدت شريفة عائلة مناسبة تعاني

صعوبات مادية ، وترحب بالفتاتين .. واستقرت الفتاتان وبدأت شريفة تنضج وتلبس الخمار ، وتصبغ يديها وتتعلم الرقص ولا تأتيني الا عندما تكون في حاجة الى شيء .. ولا تبتسم الا تعبيراً عن الشكر .. ولكنها كانت تتقدم في دراستها بصورة مدهشة وكنت أتلقى التهاني من مدرساتها.

وجاء موسم العنب فتغير كل شيء .. خرجت الاسرة الى الوادي كأغلب سكان صنعاء لقضاء الموسم .. ولكن شريفة تريد ان تبقى في المدرسة ، فأنزلتها عند نجيبة الفرنسية التي أعلنت اسلامها عندما تزوجها يمني في فرنسا .. وتحرك الحساد وجاء العساكر يوماً يبحثون عنها ، فوقعت طريحة الفراش من هول الصدمة ، ولكن الامير الحسن رفض ان يتولى أجنبية تربية الفتاة . ولما تدخلت في الموضوع ، سمح لها بالبقاء في المدرسة وتولى هو الصرف عليها ، وانزلها عند زوجة أحد الجنود .

وبدأت تعاسة شريفة .. فقد أحالت الزوجة حياتها جحيماً ، وكانت غير راضية عن مشاغلها غير العادية وعن عدم مساعدتها لها في العمل طول النهار .. وكان على الطالبات ان يحضرن وجبة الغداء معهن الى المدرسة ، ولكن زوجة العسكري لم تكن تعطيها شيئاً .. وكانت تهددها بأنها لن تذهب الى المدرسة بعد سفر الطبيبة .. وكان جواب شريفة هو أريد ان أتعلم القراءة حتى لا أكون غبية ..

واختفت شريفة ولم أعثر لها على أثر .. فقد رأى الامير الحسن أنها قد وصلت سن العمل فأخذها هي وأختها خادمتين في قصر بعيد .. وظلت الفتاة ماثلة في فكري .. وبعد شهور وقفت متسولة صغيرة على باب منزلي انها لطفية .. غير مكترثة ، قذرة ، جاءت تقول لي ان شريفة في السجن في صنعاء ، والحديد في قدميها وهي في ظروف قاسية مزرية .. كل هذا لانها رفضت زوجاً .. !

ويبدو ان شريفة أساءت التصرف مع العساكر ، فقد أراد خادم عجوز حريص على عفتها وطهارتها أن يتزوجها ويسير بها في الطريق المستقيم ..

ولما رفضت حبسوها .. وعندما ذهبت لزيارتها جاءتني عجوز بشعة هي حارسة السجن ، وطلبت مني مبلغاً كبيراً لشريفة ورفضت ان تسمح لي برؤيتها رغم المنحة التي قدمتها لها .

ورأى عبده ان الوسيلة الوحيدة لخروجها من السجن هي وجود زوج طيب يوافق عليه الامير ، وقدم عبد الله سائق عربتي نفسه للقيام بهذه المهمة ، ولكني أبديت له عدم اطمئناني ورضاي لانه لن يدعها تواصل دراستها ، وقد وافقني بروح طيبة ورشح رجلاً هادئاً من تجار الضواحي ولكن هل سيسمح هذا الرجل لزوجته بالذهاب الى المدرسة !

ولكن قبل هذا لا بد من الحصول على موافقة الامير الحسن .. وقد توجهت أولاً الى أحد عملائي أتوسط به .. وكان رجلاً وقوراً عطوفاً من أقارب الأمام .. وقد أصغى الي ولكنه لم يفعل شيئاً بل قال .. اذهبي هادئة راضية فالله يحكم على الناس من خلال نواياهم أكثر من نجاحهم .. وقد أدركت في تعبيرات عينيه الزيف .. وفهم كل منا الآخر فهمت انه مخادع ، وفهم هو اني روح شريرة خطرة على راحته ، وكان جوابي : « انه يستوي لدي أن تكون لي حسنات عند الله أو لا تكون ما دامت شريفة لا تزال في السجن » .

وهنا أصبحت نظراته قاسية .. وانصرفت ، وفقد البيت في نظري هالته وجلاله .. وكلما ذهبت اليه بعدئذ خيل إليّ اني اسمع صرير السلاسل في قدمي شريفة ...

ولم يعد أمامي سوى السيد أحمد الهجوه الصديق الحميم لنائب الملك ، وهو شاب في سن الخامسة والعشرين .. ذو وجه وسيم وروح صافية وقلب طيب وكانت ثقتي فيه عظيمة .. وقد اولى المسألة اهتمامه ووعدني أن يعمل ما في وسعه .. وعاد أخيراً ليقول لي ان السيف الحسن كان كعادته عنيداً لا يلين ...

وتخليت عن شريفة التي أرادت أن تتعلم .. ولن تتعلم .

دفتريا .. بلا أمصال

كنت أتناول عشائي في دار الضيافـة عندما أحضروا إلى حجرتي طفلاً يكاد يختنق ، إنه مصاب بالتهاب حاد في الحنجرة أو بذبحة الزور وقد أعطيتُ تعليماتي وطلبت ان يستدعوني إذا ساءت الحال ، ومرت الليلة وفي اليوم التالي ذهبت لعيادة مريضي الصغير ، وكان قد مات قبل أن يتناول الدواء .

ومضتْ بضعة أيام وأحضروا إليّ طفلاً ثانياً . ولم أعتمد عليهم هذه المرة ، بل احتطت واشرفت بنفسي إشرافـاً دقيقـاً وعملت كل ما يمكن عمله ، وبحثت عن المصل في كل مكان ولكن دون جدوى ... ومات الطفل .

أما الطفل الثالث فقد جـاء من إحدى الضواحي ، وقد حمله أبوه على ظهره عـدّة ساعات وجاءني ممتطياً فرساً .. ولم أجد مصلاً فكتبت إلى الامام ورجوته أن يستغيث بالراديو إذا دعت الحاجـة .. ولكن الامام لم يرد .

كانت الادوية الـتي تحت يدي لا أثر لهـا ، وكان الجراح الدكتور ريبوليه في تعز .. ولم نجد بداً ، أنا وزميلي ، من أن نجري العملية الجراحية . وحاول الاب ان يحمل الطفل على ظهره إلى المستشفى .. ولكن الطفل المسكين قـد ساءت حالته ولن يحتمل هذا الوضع وقـد وضعته أمامي .. وبرغم عذابه وآلامه فقد أخذ الزمام من يدي وكأنه يقوم بآخر ألعابه ومرحه .. ولكن أنفاسه كانت مأساة محزنة ، فقد كان المارة يغنون ويرفعون أصواتهم بالدعاء إلى الله .. بل ان بعضهم لحقوا بنا إلى المستشفى ليعرفوا المصير ..

وفي المستشفى قطعت الجزء المعقوف من ساعتي وصنعت منهـا ماسورة للحقنة .. وامتلأت قاعة العمليات بأنفاس الطفل اللاهثـة ؛

وكان أحياناً ينهك ويستسلم ويهدأ .. فنظن أنه قد مات .. وبعد « البنج » ببضع دقائق لم نجد أمامنا إلا جثة صغيرة مذبوحة .. وخيم على القاعة صمت رهيب ، ودخل الأب واقترب من ابنه ، وظل ينظر اليه طويلاً .. وكان يظنه ينعم بنوم أو غيبوبة قصيرة ، ولم يجرؤ أحد على أن يذكر له الحقيقة .. وأدرك الأمر فوقع على الارض يبكي ويصرخ في أسى وحسرة ...

وعند الخروج لا بدّ من المرور أمام اولئك الذين ينتظرون في الخارج .. وهم هنا يحبون من ينجح لأن عناية الله معه ، أما من يفشل فانهم لا يلومونه بل يشفقون عليه ويتفادون النظر اليه خجلاً ورحمة .

وغادرت المستشفى من الباب الرئيسي ، وكنت أحس فوق بطني بدفء الطفل وكأن مكانه لا يزال شاغراً يخنقني ويكتم أنفاسي .. ولحق بي فارس وسيم كنت أعرفه من قبل وقد رآني ذاهبة إلى المستشفى وانتظرني حتى خرجت ، وسألني : « والولد ؟ » فقلت له : « مات » . وتقدمني على ظهر جوادي في صمت حزين ، وسار الجواد بخطوات جنائزية كئيبة ثم جرى مسرعاً وتبعته فرسي ، وأنساني وقع سنابكها حنقي وغضبي من اني لست جراحة .. ومن اني لست إلاّ طبيبة بدون أدوية ..

وقمنا معاً بدورة كاملة حول المدينة ، ودّعني بعدها هذا الصديق بابتسامة وديّة رقيقة .

وكان الطفل الرابع بنيّة صغيرة في سن السادسة .. وفي هذه المرة حصلنا بمعجزة على المصل . فقد وجدنا علبة فيها اثني عشرة زجاجة ، لم تكن قد تلفت ، وهذا لا يكفي إلا لمريض واحد . وقد كلّفتُ الممرض بإعطاء هذه الحقن وذهبتُ غير قلقة ، وفي اليوم التالي كانت الصبية قد ماتت .. ما الذي جرى ؟ لقد وجدت العلبة ولم يكن قد نقص منها سوى زجاجة واحدة !.. إنها مهزلة .. ومع ذلك فقد

كان لدى الممرض الشجاعة الكافية ليقول لي ان الدكتور فيروني قد أوصى بعلاج آخر !.. واستوضحت الامر فوجدت هذا محض افتراء .. ولكن الممرض لم يجرؤ على اعطاء هذه الكمية الثمينة لطفل واحد ..!

أما الطفل الخامس فلن يفلت من يدي ، إنه ولد صغير من الريف جاء به أثناء الليل عشرة أشخاص غلاظ لا يفهمون شيئاً . وقد رابطوا في ممرات المنزل ولم يمنحوني الفرصة للانفراد بالطفل .. ولكن هل يتركوني أعطيه الكمية اللازمة من الحقن ؟ إن هذا أمر ضروري وقد فتحت الزجاجات التسع الباقية معاً . واخترت من المجموعة امرأة غليظة قاسية تساعدني .. وفي الصباح كان الطفل حياً ، وفي المساء تحسنت صحته ، وفي اليوم التالي كان قد شفي .

لقد انتهى المصل ، ولم تبق إلا عناية الله الرحيم

فـــاطمة

يستحيل أن تقول لك كم عمرها ، إن لها قامة فتاة في سن الثانية عشرة ، وهي زوجة منذ زمان طويل لعسكري كالشيطان .. طويل ونحيف وكئيب ، وفقير ، وقد وضعت منه ولداً ، ولكن الولادة أصبحت غير ممكنةبسبب الامراض التي شوهت منطقة الحوض ؛ وأجرى لها الدكتور ريبوليه عملية جراحية وأخرج الجنين من البطن ، وذات يوم ، جاءني بها زوجها وقد انتفخ بطنها بجنين جديد ...

وفي احدى أمسيات يونيو سنة ١٩٥١ وأنا داخلة من باب القلاع على ظهر جوادي أوقفني عشرة أشخاص وانهوا إليّ خبر موت الدكتور ريبوليه وأبدوا لي حزنهم وأسفهم .. وخلت صنعاء من طبيب جراح .. وتكررت نداءاتي لارسال جراح آخر .. ولكن دون جدوى .

وإذن فعلي أن أواجه حالة فاطمة بمفردي هذه المرة .. وقد كتبت إلى الامام أتوسّل اليه ان ينقل فاطمة بالطائرة إلى تعز حيث يوجد جراح إيطالي .. ولكن الامام أبداً لا يرد ... وأفزعت هذه الحالة المفجعة المستشفى كله . وظل كل من فيه ينتظر مع المرأة الطفلة الصامتة ...

ومررتُ يوماً أمام حجرة العمليات ، فقال لي الممرض والفرشاة في يده : « إنني يا حكيمة اجدد الدهن من أجل الجراح الكبير الذي سيأتي يجري عمليات لكل مرضانا » .. وأطلق ضحكة حادّة مريرة لو وصلت إلى الجراح الشاب الذي ربما يكون في نفس اللحظة يقرأ الاعلان الذي نشرته في لوحة الاعلانات في كلية الطب في باريس ما تأخر عن الحضور والعمل في اليمن .. ولكن طبيباً واحداً ، لم يلب الطلب .. ولعل ذلك راجع إلى سلسلة المقالات السيئة التي نشرتها مجلة فرنسية كبيرة عن اليمن :

وعرفتُ أخيراً ان في تعز جراحاً فرنسياً ، ولكن هل يبقى طويلاً ؟ لا ، للأسف ، فهو أستاذ شهير في مستشفيات باريس ، وقد استدعوه من أجل شخص الامام .. كتبتُ أطالب حضوره إلى صنعاء ، فقالوا لي انه سيأتي قريباً ، وزال الضيق واستعاد المستشفى الامل ، وبدأ الاستعداد لاستقباله ... ولكن هل يصل في الوقت المناسب ؟ ولمعت الطائرة ذات صباح في سماء صنعاء ، وحلّقتْ فوق المستشفى وتابعها المرضى ، وكانوا يلفتون نظر فاطمة اليها .. وقالت فاطمة : « إذا كان الجراح في هذه الطائرة فقد أعيش .. وإذا لم يكن بها فسأموت ... والموت من الله . »

وجاء الجراح ، وكان جميلاً ، أشقر ، يرتدي بنطلونا قصيراً ، وقد اغتسل في حجرة العمليات .. وهمستْ عجوز من العاملات : « هل هم هكذا في فرنسا ..؟ »

وأجريتْ العملية ، وبذل كل فرد كل ما في وسعه ، ومع ذلك فقد أكلتْ فاطمة قبل العملية رغم المنع .. وكان التخدير عسيراً ، وعندما فتحنا العلبة الثانية للكمادات ، هل كانت حقيقة قد تعقمت ؟ وهل كان جهاز تطهير وتعقيم عدّة الجراحة صالحاً يؤدي وظيفته ؟ إن هذا كله مشكوك فيه ، ولكن العملية قد بدأت ولا بدّ من الاستمرار فيها.. وقد سار كل شيء على ما يرام .. ولد الطفل وصحتْ الأم ، وسعد الناس جميعاً ، وللمرة الأولى لم أعد أسمعهم يتحدثون عن الله .. فالجراح انسان ، والذين صنعوا الطائرة رجال ..

ومرّت الايام .. ولم تكن صحة فاطمة سيئة .. ولكنها لم تكن مرضية تماماً .. وكانت مستلقية غير مكترثة .. ولم تكن تتكلم ولا تتحرك ، ولا رغبة لها في الطعام .. وطفلها مع ذلك جميل ، وكنا نذهب لرؤيته في مسكن في القاع ، وقد أخذتْ أخت فاطمة ، التي تخدم في بيت أحد الامراء ، إجازة لبضعة أيام حتى تعنى بابن اختها .

وعاد القلق شيئاً فشيئاً ، ثم الحسرة والعذاب ، فقد عاد الجراح إلى تعز ، اما الممرضون فلم يتركوها لا ليلاً ولا نهاراً .. ولم يدخر شيء من أجلها ، وكان المستشفى لا يفكر إلاّ فيها ، وفي المدينة يتساءل الناس عنها ويتناقلون أخبارها ... هل كان هذا مجرد حب استطلاع ؟.. كلا .. بالتأكيد ، فحب الاستطلاع لا يفسر ذلك التضامن القوي .. ولكن فاطمة قد أصبحت شيئاً أكثر من جسم صغير ناقص لا يستطيع حتى مجرد الاحتفاظ بحياته .. إنها في سريرها في المستشفى ، تمثال سلّطتْ عليه الاضواء القوية .. لقد أصبحتْ رمزاً .. إن حياتها قد غدت رهاناً لصراع لعل هؤلاء الناس قد أدركوه وفهموه.. بعد أن كانوا اتكاليين مستسلمين .. إنه صراع الناس جميعاً ضدّ كل مصيبة تنزل بأحدهم ... كنتُ أتردد عليها بعد الظهر .. وذات مساء ناديتُها ، وكانت تعبيرات وجهها مخيفة مفزعة ، كنتُ

أريدها أن تتكلّم ، وقــد فعلتْ ، ولكنها لم تقل إلاّ كلمة واحدة.. الموت ..

تركتُها وخرجتُ من المدينة ، ووجدتُ نفسي في مقبرة اليهود القديمة ، إن التفكير في مصير الانسان يدور في الاتجاهات المعروفة .. يدور في حلقة .. في نفس الدائرة التي في مركزها « الغرض الآلهي » ولكنه هذه المرة لا يطاق ولا يمكن المدافعة عنه .. ليس هذا تشامخاً وإعجاباً بالنفس .. كلا بكل تأكيد .. وليس هذا أيضاً من أجل فاطمة. فحياتها واي حياة مهما كانت : ليست ذات أهمية كبيرة ، ولكن من أجل اولئك الذين يحيطون بها .. اولئك الذين وقفوا بجانبها بجهودهم غير المغرضة ، بآمالهم ، بحميتهم وحماسهم .. وبحبهم .. إحساناً يقول البعض ، وتضامناً يقول الآخرون ...

ان تنطفئ هذه الشعلة التي هي أجمل من الحياة ،

ان تسقط هذه الوثبة في حزن وفي قنوط .. ذلك كله هو الالم وهو الشر .. وهذا لا يحتمل . من جانبي قد قمتُ بكل ما أستطيع .. ولم يبق أمامي إلاّ الصلاة .. وقد استسلمتُ لهذه الرغبة العميقة .. لقــد عانيت هذا الاحساس مرتين .. وإذا كان من الضروري فعلاً ان اصلي فليكن .. ولأصلّ ..

حدث كل هذا وأنا خارج الزمن .. ولكن شيئاً غريباً أعــاد إليّ نفسي .. فمن وسط الغيوم الداكنة التي تخيم على الجبال ، بزغ شعاع أبيض ، كثيف ، قوي ، كان إشارة واضحة ، وجواباً سريعاً ، هل يمكن أن تكون هناك قوة قادرة على تمزيق السماوات قد سمعتني في صمتي ؟ ازاء هذه الخاطرة تبينت في أعماقي الاعراض القديمة للخوف المقدس ...

وكان جوادي تائهاً مثلي ، كان يتقدم ويتراجع ، ولا يدري أين يذهب .. وغريزياً ، فتشتُ حولي عن الناس ، ولكني لم أجد أحداً ..

على طول الطريق التي تحيط بصنعاء . لا أحد في الطريق التي ترتفع إلى الوادي .. وزاد ضيقي وأنا أفكر .. إن الوحدة من خصائص العبادة ، أما الشعاع فقد استقر على جبل أعرفه .. أعرفه لأني قد تسلقته .. انه كتلة من الصخور السوداء .. وقد حول الشعاع هذا السواد تحت السماء القاتمة إلى لون أبيض ، ولكنه ليس لامعاً ، بل كامداً غير متألق ، كاون الجبس ، خارقاً للطبيعة ومخيفاً ، ثم دار الشعاع رويداً وقطع السهل الجنوبي حتى وصل جبل نقم فأضاءه لحظة ، ثم اختفى .. وقد ترددت ان اتحدث عن هذا .. وإذا كنت قد تحدثت فلأن التجربة المخلصة قد تكون لها معان عند الناس غير معناها عندي .. أما عندي فذلك لا يدل إلا على شيء واحد هو قوة العقيدة تلك القوة الخلاقة المعدية ..

ولو أجابني أحد من بين هذه القبور اليهودية فلن يكون إله المسيحيين الذي يصبح الحب بجواره هو المخلص ، والذي قد يغفر لمن يحبه لأنه يحب كل مخلوقاته ، بل سيكون إله العهد القديم ، ذلك الإله الغيور الذي يهز بعنف .. الانسان المعلق على أغصان شجرة المعرفة .. معرفة الخير والشر ..

وكان الجواب هو الرفض ..

وعدت إلى المنزل .. وأنا أشعر بالخجل والعار .. الأني قد آمنت لحظة بوجود إله ؟ أم لأني لم أسجد له في الحال ؟ وحتى اليوم .. لست أستطيع جواباً ..

وفي المنزل وجدت صديقي المهندس ، وقضينا السهرة جنباً إلى جنب .. وبيننا مصباح متقد تذيب شعلته كل القيود.. وحولنا على الاثير موزارت وباخ خيطاننا وهذه الارض التعسة بهالة من الانغام المسحورة .. وكان يكفي أن نضغط زراً ، وكل شيء لنا .

وفي الايام التالية أخذت فاطمة في الانهيار ، تركنا الناس جميعاً

وبقيت وحدي إلى جوارها . واستعاد المستشفى مظهره الحزين . وفي الزوايا من جديد بدأوا يرددون اسم الله .. أما الادوية التي كنت أعطيها فكنت أجدها في الادراج سليمة لم تمس ، وكانت نجيبة تنقل إلي ما يدور في أذهان الناس .. وهذا الرجل المخلص أحمد عواض الذي كان يقضي الليالي بجوار مرضاه يقرأ لهم القرآن عندما لا يجد ما يخفف به عنهم .. حتى أحمد هذا قال : « إذا شفيت فاطمة بعد كل الذي فعلته الحكيمة .. فذلك لأن الله يريد لها أن تعيش » .

وفي غرفة فاطمة تربعت نساء طاعنات في السن على طول الجدران هادئات لا يتحركن . وحينما كنت أدخل أزيارتها ، كنت أشعر بنظراتهن نظرات اللوم والشفقة .. الشفقة علي أيضاً .. أنا التعسة التي لا تفهم !

وذات صباح أخبروني ان الطفل قد مات .. لقد كان بالأمس في صحة جيدة .. ولكن خالته كان عليها أن تعود إلى عملها في القصر الكبير .. والعناية بطفل في هذه السن المبكرة لا تسمو إلى مستوى الخدمة في قصر الأمير .. ومات الطفل .

وبعد أيام كنت أمر أمام غرفة فاطمة .. فوجدتها وقد غادرتهـا العجائز .. وغطي السرير بغطاء جديد .. ولم يقل لي المرضون شيئاً ، ولم يحدثني أحد في هذا الموضوع على الاطلاق ..

محمد .. الصغير

ذات صباح دعيت إلى مسكن فقير لأرى طفلاً صغيراً في سن الخامسة عشرة مصاباً بالتيفوس . وقد اعتبره اهلوه في عداد الموتى واستسلموا .. وغاب الطفل عن وعيه ولم يعد يشعر بالعذاب .. ولعله من الافضل للمرء إذا سار في اتجاه ان يستمر إلى النهاية .. ولكن إذا كان في امكاني أن أوقفه ، ثم تخليت عن هذه المحاولة ، فهل أستطيع

بعد ذلك أن أصغي إلى موزارت راضية هادئة ؟

وعند عودتي من جولة طويلة في اليوم التالي وجدت ثلاثة أشخاص أمام بيتي .. إنهم من أقارب محمد .. الصغير ، وقد قدموا إليّ زجاجة فيها اثنتي عشرة كبسولة صفراء ، وهو علاج جديد ثمنه يساوي هنا مرتب الجندي في شهرين .. وقالوا لي : « خذيه يا حكيمة .. إننا نعلم انك تشترينه ، وانه غال جداً .. احتفظي به لمريض آخر .. أما محمد فلا داعي للتفكير فيه .. إنه قد أشرف على الموت .. »

هذا الرفض .. لا يمكن تفسيره بنقص في الثقة .. إذ في هذه الحالة تمكنهم أن يضعوا الدواء جانباً .. إنه إحساس بالهوان .. إن حياتهم في نظرهم لا تساوي كثيراً .. ولا يجوز أن تكون سبباً للعثرة والتبذير . إن حياتهم في نظرهم لا تساوي الخطأ في حق الطبيبة .. ولهذا فقد توجهوا إليّ في وفد وانتظروا طويلاً أمام بابي !..

لقد ضيعوا أربعاً وعشرين ساعة ! وضعت الاوريوميسين في جيبي وانطلقت .. أين من يمتطون الخيل ويطلقونها في غابة بولونيا ! هل لا يزال كثيرون في الدنيا هم اولئك الذين يركبون الخيل ، ويسيرون مسرعين دون رغبة .. اولئك الذين يتمايلون على ظهر الخيل ذاهلين بقلب كئيب ، وجسد مرهق ، لا تخامرهم إلا فكرة واحدة .. هي أن يسيروا مسرعين دون أن يصدموا أحداً ؟

وفي الجانب الآخر من المدينة ، كانت عجائز الموت قد اجتمعن وجلسن يترقبن في هدوء .. ولكن الطفل لا يزال حياً .. لقد كانت هؤلاء النسوة ينظرن إليّ باهتمام .. وكل ملعقة تصطدم بأسنان الطفل المصطكة تعني ضياع ريال .. في كل مرة ..

أبداً لم تر صنعاء مثيلاً لهذا ، لقد شفي الطفل .. وبعد أيام قليلة كان محمد ينتظرني أمام الباب ، كان هزيلاً .. كان هيكلاً عظمياً ليس إلا .. وكانت تعلو وجهه بسمة ناصعة .. وبدأ من تلقاء نفسه يقوم

بخدمتي .. فأصبح مساعداً لمساعد السائق .

اني أدين له بالكثير .. لقد كنت أبحث عن ابتسامته التي تفيض مرحاً وعرفاناً بالجميل كلما ضاقت بي الاحوال .. ولم تكن ابتسامته بعيدة عني .. وعندما كنت أجدها كان يتغير كل شيء .

خيرية

في احد البيوت في الاحياء القديمة ، كانت خيرية زوجة الجندي ، ترقد على قطعة واحدة من جلد الماعز في غرفة خالية من الوسائد والفرش وكانت تقذف دماء ، إنها حامل وقد أنجبت قبل هذا طفلين .. قدمتُ لها ما يوقف النزيف .. وفحصتها بالاشعة بعد أيام فوجدتها مصابة بالسل. ولكني لا أجد ما أعالجها به ، ودواء الاستربتوميسين يكلف هنا مرتب العسكري لشهور أربعة .

كان زوجها يحبها ولا يستسلم لفقدها وقد سعى بعناية خارقة للعادة ، ولكن دون جدوى .. فقد ضاعت ريالاته إلى الكتاب العموميين الذين حرروا استرحاماته التي رفعها إلى الأمراء ، لقد استعطف الأمراء واحداً واحداً واستجداهم ولكن أحداً منهم لم يقبل مساعدته .

وأخيراً .. جاءتني خيرية وزوجها ومعهما زجاجات الدواء الثمينة ! فبدافع اليأس والقنوط .. لجأ الرجل إلى أغنى تجار المدينة والقى بنفسه بين قدميه وقال له : « إن الحكيمة قد أعطتني العلاجات الأولية.. وهي ليست غنية .. بل وهي مسيحية .. وأنت الثري المسلم المتدين .. ألا تستطيع أن تفعل شيئاً ؟ »

وتأثر التاجر بهذا النداء ، واشترى الاستربتوميسين وشفيت خيرية .. ووضعت ولداً جميلاً ...

وكلما مررت بهذا الشارع رفعت النساء حجابهن الاسود ومنحنني

خديجة

وهذه قصة مشابهة .. امرأة جاءها المخاض .. ومنطقة الحوض متقلصة.
مات الجنين في بطن أمه .. وليس في صنعاء جراح .. وجازفنا زميلي
وأنا وقررنا أن نتدخل ..

وفي الطريق إلى المستشفى أوقفني أحدهم وقال لي ان الدكتور فيتروني
قد غادر صنعاء !

لقد استدعاه حاكم حجة وأصدر الامام أمره إلى نائبه لنقل الطبيب
إلى حجة .. ولكن السيف الحسن الذي لا يهتم بشيء قدر اهتمامه بالمال .
أصم أذنيه حتى أعلن الامام انه سيدفع هو تكاليف رحلة الطبيب ...
ووجدوا سيارة حملت الدكتور فيتروني في الحال .

لقد أصبت بالدوار وأنا أسمع هذا الخبر .. ان في المستشفى ثلاثمئة
سرير .. وأنا الطبيبة الوحيدة المكلفة بالسهر عليهم أسابيع عديدة .. ان
هذا كثير .. ولا يطاق !

ومن حقي ذاك الصباح ان استقبل بصوت النفير .. ولكن لم تكن
عندي رغبة في الضحك ..

وكانت المسكينة تنتظرني في غرفة العمليات .. ولم أفكر في فتح
بطنها ، بل حاولت إخراج الجنين من أسفل .. وكان الطفل قد مات
منذ وقت مضى .. وقد سهل هذا عملي .. توصلت إلى اخراج الأطراف
والجذع قطعة قطعة .. وكانت الرائحة منفرة إلى حد تركني فيه كل من
في الحجرة .. أما الجمجمة فالأمر يختلف ، فالوقت يمضي وهذا الجسم
الدائري الصلب ينسل من قبضتي ويتوارى .. هل أتخلى وأتوقف ؟
إن في هذا الموت لخديجة .. وقد تملكتني فكرة شاذة وسيطرت علي ..

إن حياة هذه المسكينة متوقفة عليّ ، على إدني ، وعلى يدي ، تماماً كما لو كنت قد أوقفتها أمام مسدس وصوبته اليها . وأمسكت أخيراً بالقطعة العظمية ..

وانقذت خديجة .. وإلى أن تحمل من جديد ... لا أستطيع أن أنسى هذا .. وكثيراً ما أتصور حياة انسانية مكورة ازجة تتهرب وتنسل من بين أصابعي .

امينــــة

لم تكد تضع طفلها حتى دخلت المستشفى مصابة بالسل الرئوي ... وساء زوجها ان تكون امرأته مريضة بالسل وأراد أن يتخلص منها ، ولم يكن معها سوى أمها التي تنام الليل على الارض بجوار سرير ابنتها .. ولم يكن معي شيء اعالجها به ..

وتلقيت من أحد معامل باريس الكبيرة طرداً من الاستربتوميسين يكفي لعلاج مريض واحد .. واحد فقط .. وعندي خمسة وعشرون مريضة ينتظرون .. ولا بدّ اذن من الاختيار .. اختيار ليس أشدّهن مرضاً .. بل أكثرهن حظاً في الشفاء وفي السعادة فيما بعد .. وكانت أمينة في سن العشرين .. ولم يكن بعيداً أن تستعيد سعادتها .. ووقع اختياري عليها ..

ولكن المريضات الاخريات لا بدّ ان يتقبلن الامر راضيات والا فان اختياري لها لن يكون بالنسبة لهن إلا يأساً جديداً ، وقد أدرك هذا عبده ، وعندما حملت معي زجاجات العلاج ودخلت بها إلى حجرة المريضات .. عرف تماماً ما يقول .. واستمعت اليه المريضات فوق سررهن في صمت وانتهى من كلامه ، وشكرنني جميعهن .. من تلقاء أنفسهن .. فلا مرارة ، ولا غيرة ولا أي ظل للأنانية ، لا في هـذه

اللحظة القصيرة ، ولا في الاسابيع التالية .. لم أسمع شكوى .. ولم أتلق احتجاجاً .. ولم افاجأ بنظرة فيها حقد أو ضغينة أو حسد ..

وتحسنت صحة أمينة .. أما اولئك اللائي يتعذبن في صمت ولا علاج فقد كن ينظرن اليها صورة للحظ السعيد ..

وجاء زوجها وأخذها جميلة كالصباح .

صديقتي الأميرة بدر الدين

كان اسمها في طفولتها مطيعة ، ولما تزوجها الامام أطلقوا عليها كما تقضي التقاليد اسماً أكثر بهاء هو « بدر الدين » . وأبوها صانع قماش من دمشق جاء صنعاء للتجارة ، ولما فشل أصبح موظفاً في الحكومة اليمنية .. وكانت مطيعة معروفة منذ صباها بين حريم المدينة ببياضها الناصع وجمالها النادر .. وقالوا ان الامير أحمد ولي العهد رآها صدفة وهي في سن الاربعين فأحبها وأغرم بها ولكنه كان بعيداً عن صنعاء حينما بدأت محادثات الزواج . وكان الزفاف والافراح المعتادة بالوكالة في غياب الامير الذي كان يأمل ان يلتقي بزوجته في وقت قريب .. وظل القدر يعمل على البعاد ، فاصطدمت سيارة الامير بعنف ولكنه خرج منها سالماً .. ثم مرض مرضاً خطيراً ، واخيراً اغتيل والده ونشبت الثورة ، ومنذ ذلك اليوم والامام الجديد لا يرغب في العودة إلى صنعاء .. اتراه يعرف لغة القدر ؟

لقد ظلت الاميرة بدر الدين اربعة عشر عاماً تنتظره .. ولم يلتقيا أبداً .. وأخيراً اقترح عليها الطلاق .. ولكنها بعد هذه السنوات الطويلة فضلت أن تبقى زوجة لامام بعيد .

وهي تعيش في بستان الخير في حي بئر العزب ولا تخرج منه إلا

لزيارة أهلها في منزل مجاور حيث تقضي معهم اسبوعاً كل شهر وقد التقيت بها هناك .

إنها رائعة الجمال ، ممتلئة الجسم ، ناعمة ، ذات وجه صبوح تلمع فيه عينان ساحرتان ، وتضيئه ابتسامة جميلة .. امها سورية محبوبة ذات شعر أحمر مصبوغ ، مهتمة بصحة ابنتها ، وخبيرة في صناعة الحلويات. أما أبوها فشيخ ذكي أديب ، كنت أشعر بجواره بالاسف لأني لا أحسن فهم اللغة العربية . وبفضله أصبحت الأميرة أكثر نساء صنعاء ، ثقافة ومعرفة .. لقد قرأت عشرات الكتب في التاريخ وتفسير القرآن وهي كل الكتب الموجودة في مكتبة الامام ، وكنت سعيدة حين عرفت انها تعرف بعض الكلمات الفرنسية ، تعلمتها من الآنسة « هرمن » مساعدة الدكتور « ريبوليه » . وكانت في حاجة إلى عنايتي بها في الايام الاولى لوصولي إلى صنعاء .. وقد أصبحت صديقتي وتحب أن تراني كثيراً .

وهي رغم عزلتها تعرف أحوال اليمن جيداً ، فمعها « دويدار » أو خادم صغير ، تحت سن الثانية عشرة ، من أذكى أطفال صنعاء ، ويلتقي به الانسان في الشوارع أكثر مما يجده في القصر ، وهو يحشر أنفه في كل شيء ، فيجلس في حجرات دار الضيافة إذا جاء زائر أجنبي .. وإذا انتظروا أحداً في المطار فانه يتعلق خلف أول سيارة ، ويكون أول الموجودين بالمطار .. بل انه يبدو فجأة في أخص المجالس ويقص بعد كل هذا على سيدته كل ما سمعه أو أبصره ..

وهذا الجاسوس الصغير لا يثير احداً ، فالولد ساحر ، مضحك جميل ، والناس يعرفون ان الاميرة لا تسيء استغلال هذه المعلومات ، بل انها تتصل بالمسؤولين عندما ترى ان هناك ظلماً ... وهي على اتصال مستمر بالامام الذي يقدم لها الهدايا الفاخرة من آن لآخر .

أمير يشرح لي سر القهوة

قدّم لي الأمير قدحاً من قهوة البن في مفرجه الفاخر الذي تتدلى من سقفه ثريا ، بطاقة الثمن مثبتة فيها دائماً للدلالة على انها اشتريت جديدة !.. ووضع الأمير في قدحي ملعقة صغيرة من مربى أسود هو عنبر من سمك المحيط الهندي .. مقوٍ وحلو المذاق ، وتكلف الملعقة الصغيرة خمسة ريالات .. وبينما كنا نرشف هذا المشروب النادر ، تحدثنا عن المخطوطات القديمة المحفوظة في دار السعادة ، وفي الجامع الكبير ، وكانت البعثة المصرية تستعد لتصويرها بالميكروفيلم لتدرس في القاهرة وتكتشف اسرارها .

وتحدثنا عن زراعة البن الذي يكوّن مع تجارة الجلود الثروة الرئيسية لليمن .. وشرح لي الأمير طريقة زراعة البن .. وقال ان المزارع مهدت منذ القدم على مسطحات الجبال .. وتملكها المزارعون الصغار ، ويشتري المحصول تجار الجملة الذين يبيعونه إلى المصدرين في الحديدة ، وقال ان الجمل يحمل زكيبتين في كل واحدة تسعون كيلو .. وثمنها حوالى مائة ريال ..

وسألته :

— « وبكم يشترونها من المزارع ؟ »

قال الأمير :

— « بعشرين ريالاً . »

قلت :

— « ولكن ، لماذا لا يذهب المزارع إلى الحديدة لبيع محصوله هناك ؟.. »

قال :

— « إنه لا يستطيع .. فالتاجر الكبير يدفع له في كل سنة نقوداً

من ثمن المحصول مقدماً ، ولا يتبقى له عند التسليم إلا عشر ريالات عن كل زكيبة . »

قلت :

— « ولماذا يقترض المزارعون بهذا الشكل ..؟ »

وكان عبده وقد خلا وجهه من كل تعبير هو الذي ينقل الحديث بيننا .. والسذاجة ليست وسيلة سيئة للاستجواب .

ومع ذلك فقد كنت أعرف ان الربا يتفشّى هنا كما يتفشى في سائر أرجاء الشرق .. ولكن الامير لم يكن غافلاً ، فما ان وصلنا إلى هذا الحد من التحقيق حتّى تحرك في فراشه وضاعت ابتسامته وقطع الحديث بفظاظة .

بيضاء يبيعونها بسبعمائة جنيه

نزل سفير للمملكة العربية السعودية في دار الضيافة في صنعاء ، وأراد ان يشتري جارية بيضاء من أحد امراء صنعاء ليقدّمها هدية إلى سيده الامير ابن سعود ، وجاءني واحد من خدم دار الضيافة ونقل إليّ الخبر في تكتم شديد بل وأحضر معه العقد الذي وقعوه ، والثمن الذي اتفقوا عليه وهو ألف وثمانمائة ريال .. ولكن الصفقة متوقفة على الفحص الطبي الذي سأقوم به .

وإذا كانت الفتاة تكلف هذا المبلغ الكبير فلأنها من الجنس الأبيض . أما الجواري الأخريات اللائي أعرفهن فأنهن من أصل افريقي ، فواحدة من اخوات الامام تملك امرأة في سن الثلاثين ، منحت لها عندما كانت في الخامسة من عمرها .. وكان أحد عبيد الامام يحيى مقداماً ومخلصاً فجعله سيده أميراً وهو من أخلص خدم ابنه الآن .

وجاء عبده في اليوم التالي يدعوني للذهاب إلى بيت الأمير لرؤية

الجارية .:. أحضروا الفتاة إلى احدى حجرات القصر ،وكانت في حوالى الخامسة عشرة من عمرها .. وقد خيبت ظني .. فجسمها جميل ولكن وجهها عبوس صارم لا نعومة فيه .. ولا يبدو انها تساوي سبعمائة جنيه! وكانت نظراتها تتجه إلى الأمير تستعطفه وتسترحمه .. وقد تركتني أولاً أفحصها .. ولما عرفت الأمر عارضت واحتجت .. وحاول الأمير أن يقنعها ولكن دون جدوى ولما لم تقتنع أخذها بالقوة .. طلبوا مني أن أفحصها فحصاً باطنياً دقيقاً حتى يتأكدوا من أنها خالية من كل أثر للأمراض التناسلية .. وفي ذعر واحساس بالعار هاجت وحاولت التخلص ولكن الأمير كان يخضعها بالقوة .. لقد كان مشهداً جارحاً مؤلماً .. وإذا تحدثت عنه اليوم خارقة بذلك قسم هيبوقراط فما ذلك إلا بفعل نظراتها في تلك اللحظات الرهيبة .

كانت الفتاة في صحة جيدة ولكن بعض الحبات تبدو في ساقيها وذراعيها نتيجة لعدم تعادل الفيتامينات في الغذاء .. وقد ذكرت هذا في الشهادة بكل دقة .

وما أن وصلت داري حتى اخطرت بزيارة الامير اليمني والامير السعودي وقريب الامام الذي استقبله في صنعاء .. إنهم قلقون جداً .:. وقد ارهقوني باسئلتهم : هل الفتاة مصابة بالزهري ؟ هل هو مرض معد ؟ هل هو قابل للشفاء ؟ في كم من الوقت ؟ هل هو قابل للانتكاس ؟ وبلهجة مهدئة للروع ذكرت لهم تفاصيل شنيعة عن أعراض المرض الجلدي المعدي المستعصي .. وخرجوا من عندي ..

وغادر الأمير السعودي المطار .. ولم يأخذ معه جسماً محجباً صغيراً بعيداً عن وطنه ..

إن على أصدقائي اليمنيين أن يدركوا ان الانسان ليس حيواناً يباع .:.

عند وزير الصحة ...

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظت على قرعات عنيفة تهز الباب الخارجي هزاً ، ولم أكد ارفع شعلةالمصباح حتى اندفع إلى غرفتي اربعة عساكر يتقدمهم أحد الامراء .. والامراء لا يعرفون الانتظار !

كنت في المساء قد غسلت شعري قبل النوم وقد تدلى في جدائل كثيبة .. لقد أحسست بالهوان .

دعوني للذهاب إلى بيت الامير وزير الصحة ! فليكن اخرجوا من غرفتي .. صرخت وأشرت اليهم من فوق سريري أن يدعوني ارتدي ثيابي ولكن دون جدوى .. لم يتحرك احد منهم .. وكانت الدكتورة جنفييف لانسوي قد قالت لي ان احدهم سألها إذا كانت الحكيمة امرأة كاحدى نسائهم ؟.. والآن ها هم أمام فرنسية في سريرها .. إن هذا شيء لا يرونه كل يوم ..! وقد قمت من سريري ودفعتهم خارج غرفتي دون أن أدعهم وقتاً أطول .. ولكن لباس النوم كان لائقاً ومناسباً ...

وفي هذه الساعة المتأخرة لا بدّ أن يكون الامر متصلاً بالحريم ، ولما لم أجد القدرة على ارتداء ملابسي فقد اكتفيت بالمعطف الأزرق وركبت معهم سيارة الجيب ولكنهم لم يسوقوني إلى الحريم .. بل إلى المفرج .. وتغير مزاجي وشعرت بالقلق والاضطراب وأنا أجد نفسي في جمع كبير من الرجال ..

كنا في رمضان وهم هنا يسهرون الليل وينامون النهار ، وقد خلع هؤلاء السادة عمائمهم وغطوا الارض باغصان القات وأوراقه .. وعلى المساند يتربع خمسة عشر رجلاً يتصدرهم الأمير أمام طاولة منخفضة شبيهة بتلك التي توضع عندنا فوق سرر المرضى يتناولون عليها طعامهم ، وأمام الامير أعدوا لي كرسياً وحيداً ؛

وتحت الضوء الساطع .. وفي « الروب دي شامبر » وعلى هذا الكرسي لم أعد أتمالك نفسي .. ماذا تعني هذه المحاكمة ؟.. ثم تجرأت ونظرت إلى من حولي فخفف قلقي واضطرابي .. ان بين هؤلاء الحاضرين وجوهاً صديقة أعرفها ..

وببرود طلب الامير رأيي في سير المستشفى !! وكان يبتسم !!.. أجل .. تقديم تقرير اداري .. بدون مترجم .. وفي منتصف الليل .. ولم يهبط عليَّ الوحي ، ولمس الامير ضيقي وارتباكي ودعاني بلطف إلى الجلوس بجواره .. وسار الحديث سيراً حسناً . ثم انهى المزاح فجأة وتكلم بلهجة جادة قائلاً : « ليس لهذا دعوتك يا حكيمة .. لقد عملنا كثيراً هذه الليلة .. وأشعر بألم خفيف في الرأس .. هل تعرفين لي علاجاً ؟ »

ينزعونني من سريري في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لألم خفيف في رأس الأمير .. بكل بساطة .. لقد أرادوا ان يتسلوا في ليل طويل .. وكانت هذه النكتة .. ما جدوى غضبي ؟.. إنهم لن يفهموه .. ولكن شعري المبلل يصرخ في ان انتقم .. وقد اذعنت لهذه الرغبة .. وانتقمت انتقاماً بريئاً لعله يساوي ما نالني من ضرر .. سحب الصيدلي شميسل قلمه من عمامته وكتب بحروف افرنجية كبيرة وباهتمام .. اسم العلاج وعنوان المعمل .. وتخيّل إليّ ان معملاً فرنسياً كبيراً تلقى من المملكة اليمنية رسالة تحمل طابع بريد نادر .. تطلب مسحوق برلمبتين !

قصتي مع الامير الوسيم

الأمير ع. شاب جميل يفيض حرارة ، وقد عرف أكبر فنادق أوروبا حيث تقدم للاسياد الشرقيين أجمل نساء العالم . وباختصار اعجبته الحكيمة. وقد لاحظت ذلك حينما جاءوا يوماً من لديه يبحثون عني .

كنت منهمكة في فحص مرضاي بالاشعة .. ولا يزال أمامي عدد منهم .. ووقفت سيارة أميركية فاختفى المرضى على الفور .. إنها سيارة الامير ب . الذي ينزل ضيفاً على صديقه الامير ع. في صنعاء خلال أسابيع قليلة .. وكان هذا الأمير أيضاً شاباً وسيماً ولكنه كان أكبر مقاماً لدى الملك .. وأوامره لا تناقش .. ولا أملك إلا تنفيذها .

لم يكن الامير ع . مصاباً بمرض خطير .. فلم يكن به سوى خدش في القدم ، ولم يسمحوا لمترجم بالصعود معي .. ولكني تمكنت من التعبير بسهولة .. وكان الحديث مع الاميرين حساساً . فقد فتح أحدهما خزانة في الحائط فوقعت عيني على مجموعة كاملة من الخمور ، شمبانيا ، بورتو ، ويسكي ، كونياك ماركة الثلاث نجمات .. إنها مجموعة تدير الرؤوس . وكانت طائرات الامام في تلك الايام متوقفة عن العمل .. وكانت صنعاء تخضع لنظام جاف منذ شهور ثلاثة .. وقد خطر على بالي ان صديقي المهندس يستطيع أن يتمتع بهذه النعمة والحظ السعيد ..

أمرني الامير أن أرفع قبعتي وأن أبقى لتناول الغداء..فعارضت وقلت ان في بيتي من ينتظرني .. تبادل الاميران نظرة فيها ضيق ، وادارا ظهريهما نحو النافذة وتواطآ على شر ، وخرج الامير يرسل سيارته الاميركية تأتي بالمهندس من البيت ..

وهنا تقدم الامير ع . مني وقد كشف ذراعيه القويتين ، ووضحت نواياه . ولكني تملصت من تحت ذراعه الأيمن بحركة مفاجئة ، ولذت بالخروج في سرعة البرق . وكانت هذه الحركة رشيقة إلى درجة عالية ولا يقوم بها نجوم السينما في حالة كهذه إلا نادراً ..

وكانت الممرات خارج الغرفة خالية . حاولت أن ألجأ إلى الحريم ولكن الابواب كانت موصدة .. هبطت السلالم فوجدت الباب مغلقاً من الخارج .. وانتظرت في البهو بفارغ الصبر . ووصل المهندس

وقصصت عليه ما جرى ، وصعدنا السلالم ، وكان دخولنا إلى الحجرة مهيباً ..

وبكل خفة وأناقة .. طلب الامير ع . من صديقي أن ينقل إليّ اعتذاره عن ما حدث في لحظة ارتباكه واضطرابه.. وطلب أن يتحسس خدودي .. وقال ان هذا هو الدليل على الصفح .

سألت صديقي المهندس : « وهل يحدث هذا فعلاً في البلاد العربية ؟» : فقال : « نعم .. يبدو ان مثل هذا يحدث .. »

وجاء الامير يربت على خدي ويتحسس وجهي كله في الطف وأناة وعيني في عينه .. ولم يدم هذا طويلاً .. إنها ذكرى غريبة .. مداعبة وتحسس في احتفال هكذا .. امام رجال صامتين !

وبدأ الطعام ، وافرغت الكؤوس . وبدأت أشعر بالقلق ، وأخذ الامير المرح يتحدث عن جواريه الشابات ، وقرر فجأة أن يستدعيهن ؟ وهنا بدأت المناورة تتكشف .. هجوم على المهندس أولاً .. وقد أقع أنا بعد ذلك .. كنا حول مائدة منخفضة محملة بوجبة دسمة .. ولم يعد امامنا من المشروبات إلا مشروب كحولي مخيف مصنوع في صنعاء .. ولكني لحسن الحظ قاومت الخمرة كما قاومها صديقي ..

دخلت الجارية الأولى ، وكانت فتاة صغيرة ممتلئة الجسم قليلاً ذات وجه منتعش ساذج سليم ، وقد هيأها الامير للموضوع بشيء من التلطف والمداعبة ثم قدمها للمهندس .. وصمد المهندس لهذا الهجوم وقاومه بتجلد وعزم شديدين .. وجاءوا بالجارية الثانية ، وكانت هي تلك التي أجريت لها الفحص حينما أرادوا بيعها من الامير السعودي والتي كان تقريري عن صحتها سبباً في عدم تمام البيع .. وكانت عابسة .. تنظر إلى الامير نفس النظرات القاتمة العاتبة .. وأرسلها الامير إلى المهندس أيضاً .. ولكن المهندس ظل جامداً لا يتحرك .. وكانت الفتاة نافرة ، وقد اغتنمتْ أول فرصة وخرجت . وبعد لحظات رأيتها خلف الباب

وما ان التقت عينانا حتى ارسلت لي ابتسامة كلها فرح وبهجة واختفت .. لعلها كانت تشكرني ..

ودعانا الامير ع . بعد الغداء للانتقال إلى المفرج ، واكنه قبل هذا تركني وحدي مع الامير ب . وأخذ معه المهندس إلى مقر الحريم !.. أجل إلى الحريم .. مسكين المهندس .. إنه شارد الفكر ، تائه بوضوح .. ولكن شكراً لله ها هو قد عاد وهمس في اذني قائلاً : « بعد ثلاثين سنة قضيتها في الشرق .. أرى شيئاً كهذا .. »

وصف لي ما رأى فيما بعد .. فقال : ساقني الامير إلى الحجرة المجاورة وفيها ثلاثة سُرُر كبيرة .. وكنا أمام الزوجات الشرعيات وهن في أجمل ثيابهن وكامل زينتهن ، وقد زاغت عيونهن .. وكن مستعدات لكل شيء ... عدا أصغرهن !.. فقد خانتها شجاعتها امام هذا الرجل الغريب ففرت واختفت تحت السرير ..

ولم نكد نستقر في المفرج حتى دخل الأمير والمهندس وهما مشتبكان في نقاش حاد .. فالامير قد ضاعت منه ابتسامته ، وظلت عيناه مصوبتين نحوي .. وحاولت بمرارة أن أعرف موضوع الحديث المعقد .. سألت المهندس فأجابني بلهجة هادئة لا تتفق مع خطر ما قال لي .. لقد طلب مني أن أصمت « بحق السماء » وان أدعو الله ان يخرجنا سالمين من وكر الزنابير ..

ورأيته يقوم بأشياء غير مفهومة .. كان يأخذ يد الامير ، ويمسك اصابعه الواحدة بعد الأخرى .. اما الامير الذي ظل هادئاً لا يتحرك فقد نهض واقترب مني وحياني أعمق تحية ، وافتر ثغره عن ابتسامة تقدير .. ولم يقل إلا كلمة واحدة : « جميل » .. وأذن لنا بالانصراف ..

وبعد برهة وجدنا أنفسنا في الفضاء الرحب .. ورؤوسنا تدور ونحن في ذهول ..

ولم يعد لنا الحق في استعمال السيارة الاميركية .. ولا بدّ من الانتظار حتى تقوم بنا العربة المكشوفة القديمة المحطمة .. ومع رجات العربة واهتزاز العجلات .. شرح لي صديقي ما حدث .. قال له الامير : « دبر لنا « الحكيمة » .. وتستطيع أن تختار من تشاء ... من حريمنا » . وكان المهندس يعرف الشرق معرفة عميقة .. فأجاب على الأمير : « إن أصابع يدك الخمس كلها من اللحم والعظم والجلد والدم .. ومع ذلك فليست في طول واحد .. ولكل منها وظيفة خاصة .. والنساء هكذا .. هذه الحكيمة ليست كالأخريات .. فالنساء لا يمكن الانتفاع بهن على نمط واحد ..! »

وأطلقوا سراحنا بعد هذا .. ونجونا من الفخ ..!

وقد تحسست مسدساً كان صديقي يخفيه تحت قميصه .. وأدركت ان رشاقته وخفته أثناء النقاش كان وراءها تصميم وعزم خطير ...

وكان بعد الظهر صامتاً كئيباً حزيناً.. أما خيالنا فقد ظل معلقاً بالسرر الثلاثة الكبيرة التي ترقد عليها نساء الأمير ..

مرة ثانيــة

جاء الامير نفسه يسوق سيارة جيب ومعه حرسه .. ودعاني لزيارة واحدة من نسائه ، ولمس اني مترددة فدعا المهندس للقيام بالترجمة .. وكان يقود سيارته بسورة وحدّة .. ولولا ان المهندس أمسك بعجلة القيادة في الوقت المناسب لكنا قد وقعنا ضحايا اصطدام عنيف .. وها نحن للمرة الثانية في الطابق العلوي .. في البيت الكبير ..

كانت نساء الأمير في غليان وفوران .. وقد رقدت سيدة عارية فوق احدى السرر الثلاثة ، والقت أخرى بنفسها في احضاني وتعلقت برقبتي وهمست في أذني : « كونياك » ... طبعاً كونياك .. هكذا دائماً

طلب الامير أن أفحص المريضة . ودعا المهندس للدخول إلى الغرفة. بل وطلب من المهندس أن يفحص المريضة بعدي ... ولم تكن مصابة بشيء على الاطلاق .. ولكن لا جدوى من تقرير هذا للامير ..

وضاقت النسوة وارتبكن حين وقف أمامهن رجل غريب .. وكن يجرين في كل جانب ، وترتفع صرخاتهن ويحاولن اخفاء وجوههن .. ولكن الامير كان يمسك بهن .. ويعرضهن بالقوة على المهندس .. وكان يقول : « يا للشيطان .. اننا متدينون .. » وقد أفقد الخجل والعار صواب احداهن ، فكانت تتشبث بكل واحد وبكل شيء .. ثم فضلت ان تتعلق برقبة المهندس .. واعترف ، وأنا صريحة دائماً .. ان تصرفها هذا قد هيج أعصابي .. فلتخرج اذن .. إذا كانت هكذا خجولة خائفة ..! لقد أمسكت بها من منتصف جسمها ، وأشرت لها بالخروج ولكنها تشبثت بالمهندس ، وأظهرت قوة تفوق التصور .. وكان علي ان أنتزعها منه انتزاعاً .. وقد ألقت بنفسها بعدئذ في أحضان الأمير .. وخرجنا من هذه المعركة .. نظيفين كما كنا ..

وفي المرة الثالثة ، استدعاني الامير من أجل إحدى نسائه أيضاً ، ولم أفكر في اخراج المهندس معي في هذه الساعة المتأخرة من الليل . فكنت أفضل ان ادخره لأحداث جديدة .. ولهذا فقد أرسلت لمساعدتي نجيبة في المستشفى .. ولكن نجيبة المسكينة .. ماذا تستطيع أن تفعل من أجلي في مثل هذه الظروف العسيرة .. فلتكن شاهداً .. وحضورها على كل حال يمنحني الثقة والاطمئنان .. وقد ارسل لنا الامير عربته المكشوفة .. وعندما وصلنا — نجيبة وأنا — استقبلنا بغضب ، ولكن هل غضب لأنني تأخرت ..؟ أم لأنه رآني هكذا ومعي رفيقة .. ؟ ولم يكن بزوجته شيء .. ولكنني كنت استحق غضبه مع ذلك .. لقد رفع صوته قائلاً : « أيوه .. يمكن أن يموت الانسان .. دون أن يكلف الطبيب نفسه عناء الحضور .. ولكن هذا لن يستمر طويلاً .. غداً سأتصل بالامام وانقل

له كل شيء .. » وقد اجبت عليه : « ان الطبيب في الساعة العاشرة مساء من حتمه أن يكون في لباس النوم .. وان يتأخر لذلك نصف ساعة .. ومع هذا فأنا لست الطبيبة الوحيدة في المدينة .. » وذهل الامير لجوابي .. وقال لزوجته : « هل تسمعين كيف ترد علي الحكيمة ؟ » ، ولكنها نصحته ألا يرد بشيء .. وافترقنا ونحن على اسوأ ما نكون ..

وأحضر لي زوجته في اليوم التالي للكشف عليها بالأشعة .. وكان يبدو غير راض .. لقد كان ساخطاً من نفسه لا مني أنا .. ولم يقدم شكواه إلى الامام ..

وفي المرة الرابعة والأخيرة .. ارسلت لمترجمي عبده — فقد استدعوني هذه المرة بعد الظهر في ساعة القيلولة — وجاءني عبده مسرعاً وقال : « ولكنك تعرفين يا حكيمة انهم لا يريدون أمثالي في البيوت الكبيرة .. فلماذا تصرين على حضوري ..؟ » وكانت معارضته شكلية .. فهو يعلم جيداً أني أحتاجه .. وأمام البيت الكبير .. وقفتْ شرذمة من العساكر وفتحوا الباب ، ولكنهم منعوا عبده من الدخول .. فالامير ليس في حاجة اليه .. ورفضت أنا الدخول .. ووقفنا معاً صامتين لا نتحرك . وأخذ العساكر يناقشون المسألة ، فوافق بعضهم على دخول عبده ورفض آخرون ..

ورجعوا يستشيرون الامير .. وأطل الامير من النافذة .. ولا بدّ انه كان يرقبنا .. كان في ثياب القيلولة .. عاري الرأس يرتدي جلباباً فقط ، أمرني بالصعود ، فأجبت عليه .. وطلبت من عبده أن يترجم له ما أقول .. وبرع عبده في تحوير اجاباتي بصورة دبلوماسية . ولكني كنت أطلب منه أن يترجم كلامي كلمة كلمة .. قلت له : « اني قد أشرفت على ولادة .. وأنا متعبة جداً ، وقد نسيت كل ما معي من كلمات عربية .. وانه إذا لم يصعد عبده ، فلن أستطيع أن أعمل

شيئاً .. »

إني لا أزال اتخيل وجه عبده في تلك اللحظات .. لقد كان يبدو على وجهه الازدراء الذي يكذب اللهجة المؤدبة التي ينقل بها كلماتي .. وفتحوا الباب على مصراعيه .. ودخلنا معاً .

وكان المريض ابن احدى الخادمات .. طفلاً في العاشرة يشعر بألم خفيف في المعدة .. وقد تجاهلت كلماتي العربية .. وكان عبده في نهاية الحجرة .. لقد كان المسكين .. صغيراً .. صغيراً جداً .. ضئيلاً .. لو استطاع أن يتبخر في الجو لفعل بكل تأكيد ..!

أما الامير وأنا فقد جلسنا بجوار الطفل نتبادل الحديث المعتاد عن المريض .. ولكن هل تصدقون أنه لم يكن لدينا سوى رغبة عارمة في الضحك ؟ لقد كان التناقض مضحكاً للغاية .. بين هذا الوضع .. والوضع الذي كان يمكن أن يكون ! فلم يكن هذا بالنسبة للامير إلاّ لعباً ..!

وقد انتهى الفصل .. وخسره الامير .. وسأترك صنعاء بعد أيام .. ولكن الامير لاعب ممتاز .. وهو ذكي .. وقد شد على يدي بروح رياضية وقال مداعباً مازحاً : « إذا عدتِ إلى اليمن ، يا حكيمة ، فجيئني بابنتكِ .. وسأتزوجها ..! »

الفصل الرابع عشر

الحياة العائلية

الاطفـال - زواج الصغيرات -
تعدد الزوجات - الشيخوخة .

في صنعاء يبدأ الطفل حياته المدرسية في سن السادسة.. ويتعلم القرآن والتاريخ الاسلامي .. وقليلاً من الجغرافيا ومبادئ الحساب .. وللمدرسين سياط يلوّحون بها في الهواء .. وعقاب التلاميذ وضع القيود الحديدية في أقدامهم ..

ويختم الطفل قراءة القرآن في سن الثامنة .. ويقدم إلى أقاربه في حفل جميل لوحه الموشى بالشرائط ..وقد التقيت مرة بأمير صغير يسير وحيداً في عربة مزينة بالازهار وفي يده اللوح الاردوازي ، والعساكر يسيرون إلى جواره حاملين أسلحتهم على أكتافهم ..

وقد عرفت صفات اليمنيين الصغار وخواصهم بفضل القاضي عبد الرحمن مدير المدرسة الذكي الذي أتاح لي ان اجري بعض الاختبارات في فصول مدرسته الثلاثة .. وكانت النتائج بوجه عام شبيهة بما يمكن الوصول اليه في إحدى مدارس باريس .. فقد أقبل الاطفال

على الاختبارات بحماس عظيم ، وعندما انتهينا حيوني باحدى أناشيدهم الحلوة ..

وبنات العائلات الموسرة لا يذهبن إلى المدرسة بل يبقين في أوساط الحريم .. يلعبن بقطع القماش ، وتكتسي وجوههن بسرعة فائقة بتعبير جامد غير مكترث حزين ، ويغلب عليهن الحياء والخجل العنيف من سن الخامسة عشرة .. ولا يخرجن من البيت إلاّ عندما يرافقن امهاتهن في الزيارات حيث يبقين ساعات طويلة متربعات على الارض لا يبدين حراكاً .. تماماً كالكبيرات .. وهن في البيت يلبسن نفس الثياب التي ترتديها النساء فيما عدا غطاء الرأس الذي يظل حتى الزواج نوعاً آخر يقولون له « القرقوش » ، ولا يخرجن من سن العاشرة إلاّ محجبات ..

أما بنات الطبقة الفقيرة والمتوسطة فهن أكثر حرية إذ يلعبن مع الاولاد في الشوارع حتى سن السادسة .. ويعرفن جيداً كيف يأخذن مكانتهن .. وهن مثلهم ذكيات مرحات .. وتنتهي الحرية حين يطلب منهن حمل الاطفال والمساعدة في التدبير المنزلي .

وأطفال الاسرة الواحدة متحدون متضامنون والكبار منهم يشرفون على الصغار وعلى اخواتهم ، وسلطتهم لا تنازع .. وكثيراً ما كنتُ أتبيّن ، وأنا دهشة مستغربة ، ان اخوة متحدين هم في الواقع من أمهات مختلفات . فالأصل ان المجتمع الذي يسود فيه نظام الزوجة الواحدة .. إذا حدث ولم يكن الاطفال من أمّ واحدة فان مثل هذه الحالات تثير كثيراً من المشاكل .. فالطفل الذي ليس له إلاّ والد واحد تتولّد في نفسه الغيرة ضد أخيه من أحد أبويه الذي له أب وأم ، ولكن المجتمع الذي يعترف بتعدد الزوجات ينعم فيه الاخوة الذين من أب واحد وامهات مختلفات بحب والديهم معاً .. وإذا كان ثمة متاعب فبسبب الامهات اللائي لا يكنّ في وفاق ، فتحرّض كل

واحدة منهن بنيها ضد أبناء الأخرى ، وقد يؤدي هذا إلى مأساة ..

لقد رأيتُ ولداً في سن العاشرة طعن أمه بالخنجر في ظهرها ، وعرفتُ صبياً في السادسة عشرة كان سلاحه شيئاً آخر .. لقد أغوى زوجة أبيه الجديدة الشابة يوماً بعد يوم ... وكان يقص علينا انتصاراته ... ويبدو ان متعته الرئيسية ولذته هي الانتقام لأمه ..

وهذه حالات شاذة .. أما في أغلب الأحوال فان الابناء على صلات طيبة مع زوجات آبائهم الأخريات ..

وهذا التوازن راجع إلى ان الأمّ بالنسبة للطفل في صنعاء ليست لها الاهمية المعطاة للأب ... فالحب الابوي هنا طاغٍ متأجّج إلى درجة لا نتصورها .. إنه يسلب الأمّ جزءاً من أولويتها المعترف لها به في الغرب .. فالأب يأخذ معه في نزهاته الطويلة وفسحه طفلاً لا يكاد يحسن المشي .. ولا يستغرب أحد هذا بل على النقيض من ذلك !.. ولعل الأب يكون أكثر اعتزازاً بابنه ، ولكنه أيضاً يحب ابنته . وإذا مرض الطفل فليست أمه هي التي تعنى به بل هو الأب ، فقد كانت تختفي الام بمجرد وصولي ويقف الاب يعطيني أخص المعلومات عن ابنه وأدقها . وإذا تألم الولد فانه يهفو إلى أحضان أبيه لا أمه .. فالمرأة ضرورية لولادة الطفل ، أما بعد ذلك فانها لا تعتبر دائماً أهلاً لتربيته وحضانته .. والعرب يعرفون قدر الحب الأبوي ويسعدون بالابناء ولا يتخلون عن هذا حتى بعد الموت .. ففي جنة الله مكان خاص باولئك الذين يحبّون الاطفال ويتوقون اليهم .. وهذا الحبّ الابوي يبدو من خصائص العائلة المسلمة .. مثل تعدد الزوجات .. فهل الامران مرتبطان ؟ هل هذا راجع إلى الفراغ الذي يكتنف حياة الرجال ؟ لا أظن ذلك ، فعندنا هنا في باريس ، نجد العامل من شمال افريقيا الذي ليست له إلاّ زوجة واحدة .. والذي يعمل عشر ساعات يومياً في المصنع .. ويتناول علاوات عائلية ... أجل نجد

هذا العامل أباً ممتازاً .. ويجد الانسان نفسه مضطراً إذن للاعتراف بأن هذه العاطفة الابوية الفياضة عامل سلالي كأي شيء آخر .. وحب الطفولة عام ، ورجال العرب أكثر من الغربيين سهولة ويسراً في ولعهم بأطفال ليسوا أبناءهم ، فأبناء الزوجة التي توفي عنها زوجها يجدون عند زوجها الثاني الحب الذي يجعلهم كما لو كانوا ابناء حقيقيين له .. وكم يندم ويحزن اولئك الفقراء الذين لا يقدرون على الزواج ...

كان لطباخي أحمد بنت في الشهر السابع من عمرها .. وخلال إقامتي كان عساكري هم الذين يتولون تنشئتها وكل ما هو ضروري لها .. يأتون بها في الصباح ويعيدونها إلى أمها في وقت متأخر من الليل .. يغذونها وينظفونهاويفسحونها طوال ساعات النهار .ويستشيرونني فيما يتعلق بصحتها .. وقد طلبت مرة من الحارس أن يحضر لي الجواد في الساعة الثامنة مساء إلى بيت بعيد كنت سأقضي فيه بقية النهار ، وقد جاءني بالحصان وخديجة متعلقة به ، ولما سألته : لماذا تخرجها في هذا الوقت المتأخر ؟.. أجابني : لقد كانت تبكي .. وقد رفضت أن تتركني ..!

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، وفي احتفال عائلي ، يغيّر الولد الطاقية ويضع على رأسه العمامة .. ومن هذه السن يبدأ بصوم رمضان ، ويدخل في سن الزواج ... وأثناء إقامتي في صنعاء أصدر السيف الحسن قراراً يفرض الزواج الاجباري على كل من جاوز الخامسة عشرة ، وذلك حتى تتفادى الشبيبة الوقوع في الدعارة والفجور. وكان هذا القرار مثار تهكم مرير من الممرضين في المستشفى الذين لا تسمح لهم رواتبهم الضئيلة بالزواج .

وتكاليف الزواج باهظة ، فالزوج يقدّم لزوجته المهر خاصاً لها ويتعهد بتقديم مبلغ معين إذا طلقها ، وعليه أيضاً تكاليف العرس

والولادة والوفيات لا تسجّل .. أمـا الزواج فـان قاضي المنطقة يحتفظ بالعقد لديه .. وتكلف المرأة من العائلات الفقيرة عشرين ريالاً إذا كانت في سن العشرين ولم تتزوج إلاّ مرة واحدة .. ويتعهد الزوج بدفع عشرين ريالاً أخرى في حـالة الطلاق .. أما العذراء التي بلغت الرابعة عشرة فان الزواج منها يكلف خمسين ريالاً عند الزواج وخمسين إذا وقع الطلاق .. وتصل التكاليف إلى ثلاثمئة ريال في العـائـلات الغنية .. أما إذا كان الزوج شخصية كبيرة فقد يصل مـا يقدّمـه إلى ثمانمائة ريال ..

وفي هذا البلد الذي تنعدم فيه وسائل التسلية يكون للزواج أهميته الكبرى .. ويتمّ « الفرح » في الليل ، فيتوجـه العريس وأصدقاؤه في الساعة السادسة إلى المسجد لأداء الصلاة .. ويعود إلى البيت وقد حمل على كتفيه سيفاً ، ويلبس حلة جميلة يستعيرها في الغـالب من صديق غني ، ويكون وجه العريس مكشوفـاً إذا كان زواجه هو الأول .. أما إذا كان يتزوج للمرة الثـانية فـانه يخفي عينه اليمنى بطرف الثوب . وإذا كان الزواج هو الثالث أو ما بعد الثالث فـانه يخفي عينيه الاثنتين . ويسير مع العريس أفراد اسرته يرسلون الطلقات النارية في الهواء .. وينشرون الاضواء ابعاداً للارواح الشريرة. ويتقدم الركب أكبر الأقارب سناً .. وكثيراً مـا يقفون ليتيحوا الفرصة للراقصين ، وإذا وصلوا تناولوا طعـام العشاء .. وانتظروا وصول العروس وهم يمضغون القات ويسمعون الاغاني ..

في هذا الوقت تستعد العروس في بيتهـا ، فترتدي ثوباً طويلاً من القماش المذهّب ، وأكبر قدر من المجوهرات ، وتغطـي رأسـها بأغصان مجدولة مغشاة بالقماش الاسود .. وتغرس المرأة التي تشرف على تجهيز العروس أزهاراً ومجوهرات في شكل شبيه بالتاج .. والاميرات ونساء الأغنياء هنّ وحدهنّ يمتلكن ثوب الزفاف .. أمـا الأخريات

فيكتفين باستعارته ..

وفي اليوم الأول تخضب العروس بنقطة واحدة على الخدين ، وتغطى العروس بستارة كبيرة وتسير إلى زوجها ، وتقطع المسافة عبر المدينة في الساعة الحادية عشرة مساء على عربة تجرها الجياد إن أمكن .. وكثيراً ما استعاروا عربتي لهذه المناسبة . ويجلس إلى جوار الفتاة أقرب العصبات من الذكور ويرافقها جميع أقاربها بالاغاني والرقصات والمشاعل والالعاب النارية ، أما النساء فلا يسرن في الموكب .. بل يلتحقن سريعاً بنساء عائلة الزوج ..

وأمام بيتها الجديد ، تقف الزوجة .. وعلى عتبة الباب تكسر بيضة . رمزاً لإنجاب الأطفال .. ويظل الزوج في مكانه .. أما أصدقاؤه فيخرجون لاستقبالها ، وهي تصعد درجات السلّم ببطء وسط الاغاني والاهازيج .. ويوصلونها إلى مقر النساء ، ويعود الرجال إلى مجلسهم ...

وفي هذه الافراح ، كنت أنا وحدي التي أستطيع الانتقال بين الجنسين .. وتفيض سهرة النساء مرحاً وصخباً .. وتقوم بعض العجائز بأداء أدوار مسلية للغاية .. وبعضهن محبوبات للغاية ، وتقدّم لهن النساء هدايا صغيرة تقديراً ومكافأة .. وقد أظهرت احداهن مرةً موهبة مدهشة في الفكاهة والاضحاك .. فقد تنكّرتْ في زي رجل واشتركت معها إمرأة ثرثارة ، ومثّلتْ أمامنا مشاهد كلها تنديد بالرجال ونقد لحياتهم .. منها مشهد عن رجل ذبح خروفاً وأراد أن يقدّم أفضل قطع اللحم لمحبوبته لولا ان زوجته كانت ترقبه عن قرب .. ومشهد آخر عن رجل أراد الذهاب إلى مكة لأداء الحج وهو في الحقيقة يريد أن يتمتع بأوقات سعيدة ، فاشتبكت معه زوجته وحاصرته . ومشهد ثالث عن ذلك الذي أراد في مكة أن يعلم الآخرين الصلاة .. وقد مثّلتْ هذا المشهد بواقعية مشينة جداً ..

وتأتي اللحظة الهامة وهي تقديم العروس إلى العريس ... الشابة جالسة على الارض في حجرة جانبية وهي كلها مغطاة بالستارة وليس معها إلا اثنتين أو ثلاثاً من قريباتها .. ويدخل العريس، ويقترب منها، ويرفع عنها الحجاب .. ويضع قدمه على قدمها ، ويده على جبينها وهي مغمضة العينين ، ويتلو بعض الآيات والادعية بصوت خفيض .. وتفتح عينيها ، وتنظر اليه .. ولكنها لا تقدر بعد على الابتسام أو الكلام .. ويدوم هذا دقائق معدودة ، يعود بعدها الرجل إلى أصدقائه .. وتنتهي السهرة في ساعة متأخرة من الليل ، ويترك الزوجان لشأنهما .. وفي اليوم الثالث يستقبل الزوجان أصدقاءهما في آن واحد ، وتكون الزوجة في أجمل ملابسها ، ولكن نقطتين لا نقطة واحدة تعلوان وجنتيها ، وتتحدث وتبتسم ، ويأتي زوجها كثيراً لرؤيتها ..

أما أبناء الاسر الغنية فيتزوجون مبكرين بنساء يكبرنهم في السن عادة ولسن أبكاراً ، ويكون الطلاق سريعاً .. وهو زواج هادئ لأنه مجرد احتياط ووقاية وابعاد للشباب عن ارتكاب حماقات في المدينة .. ولكن الزواج الاول للفتاة هو الفرصة المناسبة للافراح والاحتفالات ..

وقد لا تتعدى الزوجة سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وتعيش مع زوجها .. فهل زواج الفتاة الصغيرة جريمة ..؟

لقد عرفتُ الكثيرات من صغيرات السن مزوجات ومخطوبات .. ولم أتبين ان لذلك ضرراً .. ويندر ان تحمل الفتاة خلال المرحلة الأولى لبلوغها .. وعسر الولادة ينتج عن سوء التغذية أكثر مما ينتج عن النمو الجسدي غير الكامل للأم الشابة .. وفي نظام الحريم تعد الفتيات الصغيرات إعداداً نفسياً ممتازاً .. ويعرف الازواج كيف يحصلون على ما يريدونه من متع ولذات .. ولم أعرف أثناء إقامتي في اليمن إلا



استثناءً واحداً .. وهو أن فتاة صغيرة كانت تشعر نحو زوجها بخوف وهلع .. وقد قالت لي : « إنه لطيف ، وأنا أحبّه كثيراً .. ولكن ما ان يقترب مني حتى أرتجف ... » وطلبوا مني أن أعطيها شهادة طبية حتى تعود هذه الطفلة لبعض الوقت إلى عائلتها دون أن ترجع المهر .. وقد طلبت حضور الزوج ، وكان شاباً بسيطاً صارماً في سن الخامسة والعشرين .. وقد حزن وفجع لهذه الحال فعلاً ولكنه كان بدون شك جائعاً ومحتاجاً لما هو أكثر من هذه البنيّة .. وان يقتنع بفاتحة الشهية أو مقدمات الطعام ..! وكانت الصغيرة يتيمة وقد تم هذا الزواج بدون بصيرة ، وقد اتفقت مع المرأة المجاورة ، كأمهات ، على أنه يجب ايجاد زوجة للرجل في مثل سنه انتظاراً لنضوج عروسه الصغيرة ..

وبالمقابلة .. هاتان صورتان لفتاتين متزوجتين .. الاولى زوجة صديقي مدير المدرسة الذي بلغ سن الاربعين .. مرضت الصغيرة .. وبينما كنت أفحصها كان زوجها واقفاً على حافة الفراش وقد أغمض عينيه ورفع صوته يطلب رحمة الله وعونه حتى توفق جهودي في تخفيف آلام زوجته .. وبينما هو يدعو الله هكذا كانت هي تتأمله بخليط مؤثر من الوله والاحترام والثقة .. وقد ترددت عليها كثيراً .. ولم ألحظ إلاّ إنسجاماً كاملاً وتوافقاً حقيقياً .. ولكن هل هذا التوافق زائل ؟.. ربما .. وعلى كل فهذا لا يغير شيئاً من قيمة الحاضر .

أما الاخرى فهي فتاة في الثالثة عشرة مزوجة من شاب في السادسة عشرة ، وكان اجتماعهما تنفيذاً لرغبة ودية قديمة اتفق عليها أبواهما قبل أن يريا النور .. وقد دعيت ذات مساء لعيادة الزوج الذي أصيب بألم خفيف .. ووصلتُ فوجدتُ عدداً من رجال الأسرة قد التفوا حوله .. ورحتُ أبحث في جوانب الغرفة عن وسادة فاكتشفت زوجته الشابة في ثيابها المرسلة الحلوة وقد أخفت نفسها في كوة النافذة عندما

فوجئت بوصول الرجال .. وقد ابتسمتْ وأشارت لي ألا أقول شيئاً يكشف عن وجودها .. ويبدو ان صحة زوجها لم تكن تقلقها كثيراً .. لقد كانت تفيض فرحاً ودهاء ورشاقة وتفتحاً جنسياً سعيداً ..

يا لتعاسة فتياتنا الغربيات اللائي تمتقع ألوانهن في هذه السن على مقاعد الدرس ..! واللائي إذا عشن كنساء ففي الخفاء وفي العذاب والندم ..!

وزواج الفتاة الصغيرة ليس فيه خطر من الناحية الجسمية .. بل إنه جاذب فتّان في غالب الاحوال .. إلا ان هناك أمراً آخر في غاية الاهمية ، ذلك ان وضع الفتيات تحت رعاية الرجال وهن في سن مبكرة .. يحول بينهن وبين النمو العقلي المتكامل .. وقد أثبتت هذا الاختبارات التي قمت بها في أوساط النساء .. تردد ، رفض عدم مواظبة ، سوء تلاؤم مع الواقع ، كل هذا يدل على اختلالات عميقة في الشخصية ..

ثم ما هي فرص السعادة أمام هذين الزوجين الشابين ؟

الاب في الظاهر هو الذي يقرر في شؤون الزواج .. ولكن الحقيقة ان النساء هن اللائي يقمن بعقد الزواج ، فالشاب يعلق أهمية كبرى على رأي أمّه وأخواته لأنهن يعرفن الزوجة المقترحة ، وفي يوم العرس وعندما يرفع عن زوجته الحجاب يكون هذا هو أول فرصة يرى فيها زوجته .. اما الفتاة فالزوج غير مجهول عندها . فهي قد رأته قبل ذلك ... من خلف الباب ، أو من وراء شباك النافذة ، بل لعلها قد سمعت صوته وهو يقول : « الله » حين يصعد درجات السلم .. اما إذا كان قد تزوج قبل هذا ، فانها ستعرف تفاصيل حياته الخاصة من ثرثرة النساء في مجالس الحريم ... وهكذا يتوقف الزواج على مدى حكمة نساء الاسرة ، ولكن هذا لا ينفي سعادة الزواج الذي يعد إعداداً حسناً والذي تقويه العاطفة المخلصة فيما بعد .. كما ان هذا

لا ينفي أيضاً الحب من أول نظرة .. ولو ان هـذا نادر ... إن الخطيبين محرومان من كل وسيلة للاختيار الحقيقي .. وهما محرومان من الحب ..

وحوادث الطلاق كثيرة ولا سيما عندما تكون الزوجة لا أطفـال لها ، ولكن الزوجة لا تستطيع الحصول على الطلاق إلاّ إذا أثبتـت خطأً في حق الزواج .. كعلاقة غير شرعية أو مبالغة في البخل والتقتير. وهي عندما تريد الطلاق تترك بيت الزوجية وتعيش عند أهلهـا ، وتكلف من يناقش الموضوع مع الزوج .. وكانت سمعة زوج نجيبة الذي كان عاملاً كهربائياً في فرنسا طيبة كمدافع عن النساء .. وبفضله تتبعت كثيراً من القضـايا الدقيقة .. والقاضي في الحالات الخطيرة لا يعارض التفريق بينهما .. ولكنه في كثير من الحـالات يفرض علـى الزوج ترضية لزوجته .. فيقدّم لهـا ثياباً .. ولكنها تبقى حانقة لا تخرج من اعتكافهـا إلا وهي ترتدي ثياباً جديدة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ..

ومن جهة أخرى يصبح الزواج غير قابل للانفصام عملياً إذا وجد الاطفال .. فالطلاق طبقاً للشريعة ممكن دائماً ، ولكن الاب يحب أبناءه حباً لا يستطيع معه ان يفارقهم ولا أن يحرمهم من أمهم .. كمـا أن الناس جميعاً في مجالسهم سيلومونه لومـاً عنيفاً .. ولم أعرف خـلال إقامتي إلا حادثاً واحداً وقع الطلاق فيه على أمّ .. فقد كانت حماتهـا تكرهها .. واحتفظ الزوج بالطفل ..

وعندما تصبح المرأة أمّـاً .. يصبح الزواج قوياً متيناً ، وتستطيـع المرأة حينئذ في صراعهـا الزوجي أن تلجـأ إلى التصرفـات العـادية المزعجة ... وهي هنا لا تضع في اهتمامهـا إلا أن تجد لهـا زوجـاً افضل .. وأحسن الزوجات لا تضيّـع هذه الفرصة وإذا جاءت فليس هناك ما يردعهن ..

وإذا توفرت الامكانيات فان واحداً من كل رجلين تتعدد زوجاته ، إذ إن أرجح الازواج عقلاً وحنكة ، يشعرون وهم في سن الاربعين بحنين ورغبة إلى جسد بض جديد ، وزوجاتهم يعرفن كل هذا ويتقبلنه كما لا تتقبله المرأة في أيّ بلد آخر .. ذلك لأن الاسلام يقره أولاً ، ولأن كرامة الزوجة لن تمس ، فهذا الزواج تماماً كزواجها هي ليس نتيجة للحب .. إنها لا تخشى العواصف التي تقلب الحياة العائلية رأساً على عقب في البلاد التي يتعارف فيها الرجال بالنساء .. وهي أخيراً .. ستجد صديقة حبيبة تساعدها وتأخذ عنها جزءاً من العمل المنزلي ومن ترصد الحماة واعتراضاتها ومتاعبها .. أما الزوجة الجديدة فتحترم ضرتها الاولى ، وشبابها يضمن لها أفضلية مناسبة ، وإذا لم تتفق الزوجتان فان الزوج يتخلص ممن لا أولاد لها .. فإذا كان لهما أولاد وكان الرجل موسراً فانه يعد لكل واحدة سكناً خاصاً .. اما إذا كان الزوج فقيراً .. فانه الجحيم بعينه .. وقد عرفت رجلاً معسراً وقع في هذا المأزق فكان في معظم الاوقات يعيش في بيت أخيه ...

ويبدو ان النساء ، بصفة عامة ، لا يتنافرن .. والبلدان التي ترتفع نسبة الوفيات فيها بين الاطفال تضمّ دائماً نساء أكثر من الرجال .. ذلك لأن البنات الصغيرات أكثر مقاومة من الاطفال .. ولهذا فالنساء هنا كثيرات .. ومن العسير على المرء أن يميّز بين الزوجات والاخوات والخالات المطلقات وبنات العم غير المتزوجات .. وهن يقضين معاً أوقاتاً ممتعة ، ففي الصباح يتلهفن على خروج الرجال من البيت ،وعودتهم في المساء تأتي معها بنوع من الضغط والضيق .. ويندر ان يكون للرجل في وقت واحد عدّة زوجات شابات إلاّ إذا كان أميراً أو موظفاً كبيراً في الاقاليم ، والنساء في مثل هذه الحالات يجدن صعوبة في إظهار رقتهن ولطفهن . فهن في الدور يقضين الليل مع الزوج ..

وكنتُ أقابل بالسخط والحنق إذا سألتهن عما إذا كن مجتمعات قد قضين الليل مع زوجهن .. والاسلام لا يسمح للرجل بأكثر من أربع .. ولكن يندر أن يصل الرجل إلى هذا الرقم .. وتتفاوت أعمار الزوجات في أغلب الحالات .. إذ إن البيت المثالي لرجل توفر له المال . والعمر وحسن التدبير . يضم عجوزاً في مثل سنه وهذه هي صديقة عمره يناقشها ويحادثها ، وزوجة أخرى قوية في العقد الرابع من العمر .. هذه تعنى بالبيت وشؤون البيت .. أما الثالثة فهي شابة للمتعة والصحة ، وهذه الاخيرة هي التي تمنحه العزة والفخر بانجاب آخر أبنائه ..

ومغامرات الرجال بعيداً عن زوجاتهم ممكنة ، بل وكثيرة الوقوع ، ففي صنعاء بيوت ستة للمواعيد الغرامية تسير على النظام الآتي :
ارملة فاضلة تجمع حولها فتيات جميلات وهي تفعل هذا في الظاهر لتفرج عن نفسها في سنواتها الاخيرة ...وفي البيت المجاور رجل شائب حكيم هو الوسيط الذي يأتي بمجموعة من أصدقائه المحترمين.. ويكون الاتصال بين البيتين .. وتسير القافلة .. وإذا عرفت هذا الشرطة قفلت المؤسسة أبوابها وانتقلت إلى حي آخر ...

كيف يتم الجمع بين كل اثنين ؟

يحتمل أن تقوم بهذه المهمة الارملة الفاضلة والرجل العجوز .. ولكن الغالب ان تختار المرأة عاشقها ... فمن وراء الحجاب تختار الرجل الذي يسعدها ... ومن السهل أن تتردد على نسائه في بيته .. وبالمهارة والحظ تلتقي في طريقها بهذا المرشح السعيد في السلم .. وابتسامة ينثر عنها ثغرها وهي ترفع الخمار عن وجهها تدير رأسه وتجعله ثملاً سكران تماماً كلباس البحر الفاضح المتهتك .. وقليلون جداً هم الذين يقاومون .. وما دامت قد جذبت اهتمامه فان كل شيء سيسير سيراً حسناً ، وخاصة إذا حصلت ، وهذا بمقابل طبعاً ، على مساعدة خالة أو اخت للمجنى

عليه .. ويحدد موعد اللقاء بسرعة ...

وتبدي نساء صنعاء جرأة وشجاعة في المغامرات العاطفية .. فقد سلمت عجوز يوماً لصديقي المهندس عود ثقاب وسيجارة وكعكة وقطعة من الحلوى وزهرة .. وهمست العجوز حاملة الهدية في أذنه قائلة « لقد بعثتها لك امرأة .. عليك تفكر فيها .. » وأعطته عنوان المكان الذي يمكن فيه الحصول على ما تبقى ...

ولكن صديقي خشية الوقوع في فخ .. اعتذر عن قبول الدعوة .. وفي مناسبة أخرى عالجتُ رجلاً خائر القوى ، متعباً ، وقد شرح فيما بعد للمهندس سرّ إرهاقه وانهيار صحته .. فقبل أيام ، جذب إلى بيت صغير .. كانت تنتظره فيه ثلاث نساء .. يانعة وشابتان يبدو عليهن الثراء .. عطور ، طعام شهي .. ولا شيء ينقص الفرح .. وحتى اليوم الثاني لم تكن المرأة الناضجة قد اطفأت غلتها ،، واشبعت نهمها ... أما الفتاتان فقد انسحبتا وأرسلتا صديقتين تحلان محلهما .. وبعد ثلاثة أيام اطلق سراح صاحبنا « التعس » خائراً منهوك القوى .. وكان عليَّ أن أعالجه ..

وأكثر النساء انطلاقاً ، الارامل والمطلقات ومن يغيب عنهن أزواجهن زمناً طويلاً .. وهن كثيرات .. انهن لا يخشين شيئاً .. فاذا حملن .. فسيظل الطفل راقداً ويلتحق بآخر زوج .. والمجربة الخبيرة إذا وقع اختيارها على رجل فانها تعرف كيف ترغبه وكيف تقوده إلى الزواج بها .. وعندهم مثل يقول .. ان الاهل يأتون بالزوج الأول .. اما الازواج الآخرون فالمرأة هي التي تجذبهم ..

وهذا كلّه لا يُتاح للفتيات الصغيرات ولا للزوجات الخاضعات للازواج .. فالصغيرة .. أقاربها مسؤولون عن سلوكها وهم يأخذون احتياطاتهم في الوقت المناسب .. فيستعملون دواء قوياً مجهضاً ينجم عنه تسمم خطير .. وقد عرفت فتيات صغيرات وهن حبالى .. ولكن لم

ألحظ بعد ذلك أيّ تطور للحمل .. أما النساء اللائي يعشن مع أزواجهن .. فنادراً ما يفكّر الزوج في إعلان الفضيحة كما حدث مرة في صالة بمدينة تعز .. والنساء يخشين غيرة أزواجهن المميتة .. إذْ لو عرف الزوج ان لزوجته حبيباً أو عشيقاً فانه لا يتردد عن قتلها بالسم أو بالخنجر .. وهم هنا لا يحققون أسباب الوفاة ، ولا يقيدون الدفن بضرورة الحصول على تصريح من الحكومة .. ولهذا تظل المآسي دائماً مجهولة ...

وما دامت الزوجات محرومات من الحرية والحب فانهن يلجأن إلى تبادل التعاون وتبادل المعلومات والمشورة ... وكثيراً ما سألت : « وما الذي يحدث لو اتخذت الزوجة لنفسها عشيقةً بدلاً من عشيق ... وعرف الزوج ..؟ » والجواب هو ان الأمر هنا يكون أقل خطورة ...

ومع مراعاة كل اعتبار .. فان حالة المرأة في نظام الحريم ليست سيئة إلى الحد الذي يُخيّل الينا .. إذْ يوفر لها الحجاب حرية التصرف بصورة ما كنتُ أتوقعها .. وتعدد الزوجات يحمي إلى حد كبير استقرار البيوت التي يوجد بها أطفال .. فلا وجود هنا للبيوت المنهارة ، ذلك التعبير الذي يظهر والذي هو في تزايد مستمر في ملفاتنا العلاجية الخاصة بالأطفال المرضى أو المعسرين .. ولعل المرأة الغربية التي هجرها زوجها والتي تبحث عبثاً عن نفقتها من زوج هارب وليس عندها ما تعيش به ، لعل مثل هذه المرأة تكون أقلّ تعاسة في مجتمع فيه تعدد زوجات .. ولا سيما والاب هو الذي يتكفل دائماً بنفقة الاولاد وتنشئتهم ..

وهناك أمر آخر أكثر خطورة وأهمية .. فحرمان المرأة من التعليم ، وبعدها عن ممارسة أي دور في الحياة الاجتماعية ، وارجاع مكانتها في الأسرة إلى الحيلة والدهاء .. كل هذا جعلها وليس لها إلا

مشاغل تافهة صغيرة .. بل وعواطف سفلية وضيعة ..

والمرأة هنا تحسد المرأة الغربية وتنفس عليها تمتعها بالمحلات التجارية ودور السينما .. ولكنها لا تطمع في حياة أكثر صراحة . وأكثر امتلاء . وأكثر فائدة ..

لقد خضبت النساء ذات يوم قدمي بأشكال صغيرة سوداء على الطريقة اليمنية .. وأقدام النساء هنا ناعمة كخد طفل وليد .. أما قدماي فقد كانتا ، لسوء الحظ ، خشنتين .. كقدمي أي عاملة شريفة .. وكانت .. دهشة ، واشمئزاز ، ورحمة . ورغم اني شرحت لهن انني أنا التي أحيا ولسن هن .. واني أنا التي أعيش في صميم الحياة .. أما هن فعلى هامشها .. فلم يأسفن على شيء .. ولم تجعل لي حياتي النشيطة كطبيبة أية مكانة بين هؤلاء الحريم .. لقد كن يسألنني عن الاشياء الفرنسية السطحية .. عن الموضة والاغاني .. وعن طريقة تقديم الطعام في الولائم الكبيرة .. أما عن شؤون القلب فلم يكن يحسدننا على احتكارنا المشروع لزوج حبيب .. والرجال يستخدمونهن هنا كسلعة .. سلعة للذة والتسلية .. أو آلات لانتاج الاطفال .. والشيء الذي يعامل كسلعة يصبح شيئاً وضيعاً ..

ورغم ان الرجال قد لا يجهلون هذا فان بقايا الجيل القديم يصرون على هذا .. وفي البلاد الاسلامية حيث بدأت المرأة تتعلم .. أصبح الرجال والنساء أصدقاء ، ولم يعد لعشق الجنس أثر يذكر .. ويختفي كذلك تعدد الزوجات تلقائياً .. وهذا دون شك هو ما يخشونه من التعليم هنا ..

وقصة الفتاة شريفة التي ذكرتها سابقاً دليل على هذا .. وقد أردت قبل مغادرتي صنعاء أن أختبر تلميذات مدرسة البنات العشرين حيث لا يتعلمن سوى الحياكة والتطريز .. وقد منعني من هذا القاضي الانسي .. وهو شيخ وقور في الثانية والتسعين من عمره ، وهو يقوم

بجميع وظائف السيف اسماعيل وزير الصحة والسيف علي وزير المعارف ، والسيف القاسم وزير المواصلات والبرق والبريد . وقد اشتعلتُ غضباً هذه المرة . وصرختُ فيهم :

— « أما عن الاختبارات ، فقد حصلتُ عليها . لقد أجريتُ اختباراتي على نسائكم .. في بيوتكم .. ومما يرثى له ان أبناءكم أذكياء أذكياء جداً ... »

ولا يزال في ذهني مجلس نائب الامام الذي وقع فيه الحادث ، لا أزال أتخيلُ اولئك الرجال الطاعنين في السن الذين يحتقرون كل شيء ... والذين قالوا لي : « هكذا نريد أن تكون نساءنا .. »

ومن حسن الحظ ان السن تتقدم بالنساء ، فترتسم الشجاعة على وجوههن فلا يعدن يصلحن سلعة للمتعة .. ولا مصنعاً لإنتاج الأطفال .. انهن أخيراً يصبحن كائنات بشرية جديرة باسم الانسان.. فحب الطفولة، وتسامح الرجال ، واحترام الشيخوخة ، كلها عواطف عميقة هنا .. ويستفيد الجنس اللطيف بعاطفتين منها ؛ وقد تنتقم العجوز من زوجات بنيها لكل ما قاسته وتحملته في صباها ولكن هذا لا يكون إلا نادراً . والمرأة الطاعنة في السن تكتسب وزناً ومكانة لم تكن لها في الماضي.. وتستطيع إذا أرادتْ أن تجلس في المفرج مع الزائرين .. وهي لا تحمل الحجاب .. بل تجلس مرحة تسأل وتتحدث في الشؤون العامة .. وقد عرفتُ كثيرات أصبحن صديقات لأزواجهن ، وهذا التطور يلطف كثيراً حزن الشيخوخة وآلامها ..

الفصل الخامس عشر

مهمات خارج صنعاء

كان عبده منذ مدة طويلة يحدثني عن ذمار ، مسقط رأسه ، التي تقع جنوب صنعاء على بعد ثلاثة أيام سيراً بالاقدام .. وقد وصف لي بيوتها ومسجدها المشهور . وضريح الائمة السابقين والقبور الحميرية في ضواحيها وأطلال القرية المسيحية التي لم يقم احد بزيارتها .. وقد بذل عبده كل ما في وسعه لاثارة اهتمامي ورغبتي . وذلك لأن رحلتنا إلى ذمار ستتيح له الفرصة لزيارة عائلته .. ولهذا كله فقد تحدث باعجاب عن كفاءتي ومهارتي كطبيبة مع عامل ذمار : الرجل الشيخ الذي يقيم في صنعاء بعض الوقت ، وقد طلب العامل من الامام ان يأذن بانتقالي إلى ذمار لمعالجة مرضاها .

وكانوا قد رفضوا ان يسمحوا للدكتور ريبوليه بالذهاب إلى ذمار .. ولم يمر بهـا أحد من الاجانب بعد المهندس الفرنسي جوران الذي كلفه الامام قبـل ست سنوات بالقيـام بابحاث جيولوجية .. ولا يقيم فيها أي طبيب رغم ان سكانها يقربون من خمسة عشر الفاً .. واذن الامام بعد عدة شهور بسفري اليها .

وذمار تقع على الطريق القديمة بين صنعاء وتعز التي تخترق جبالاً شاهقة بين إب ويريم ، ولا تمرّ بها إلا البغال .. وقد هجروا هذه الطريق منذ وجدت طريق اخرى تمر بالحديدة .. وتعيش ذمار ومدينة يريم المجاورة لها في عزلة تامة بعيدتين عن الشريان التجاري الرئيسي ، وقد عرف سكانها بعدم ترحيبهم بالاجانب .

وقد خرجنا من صنعاء في صباح يوم من أيام شهر سبتمبر في سيارة فورد .. وعندما تكون السيارة قديمة والطريق غير ممهدة فان تقلب أحوال السفر في البلاد الجبلية لا يتباين كثيراً .. وقد توقفنا قليلاً في قريـة صغيرة تقع على سفح مرتفع عظيم .. ومنها أشاروا إلى قبور حميرية ، وهي مغارات تبدو مداخلها من منتصف الهضبة .. وقد وعدني أحمد ابن عامل ذمار الذي يقود السيارة ان نزورها عند العودة ، أما الآن فاننا متأخرون وقد توقفنا ثلاث مرات متتالية كان آخرها بسبب نقص البنزين ، وقد أرسلنا شخصاً إلى ذمار قطع المسافة سيراً على الاقدام .. وجاءنا بعد ساعة فارس يعدو بجواده والصفيحة الثانية في يده .. وبعد منتصف الليل وصلنا ذمار .. وتعلق بالسيارة عسكري يضيء لنا الطريق بمصباحي الكهربائي .. أما البطارية فقد تشققت من اثر الهزات ، وكنا مهددين في كل لحظة بتوقف الاضاءة ..

ولا يستطيع الأوروبي بعد رحلة قاسية في الظلام أن يمنع نفسه من الاحساس الغامض بالمرارة وهو يدخل دار الحكومة .. لقد شعرت اني في أرض لا زالت تعيش في عصر الحروب .. ان كل شيء فيها يعيد للاذهان القرون الوسطى المظلمة التي عرفتها أوروبا .. فلا ينقص القلعة المحصنة بالابراج الكثيرة إلا الخنادق المليئة بالمياه ، والحراسة مشددة على الابواب .. والطرق مسدودة بقطع ضخمة من جذوع الاشجار يرفعها العساكر عند مرورنا ..

والطابق الارضي مليء بالطعام المخزون والسلاح والذخيرة .. وفي

الطابق الأول قاعة الحرس المضاءة بمصابيح الغاز المثبتة في الجدران .. وتختفي السقف فوقنا في الظلام .. ويتوقع الانسان أن يرى ومضات الرماح والخوذ والعدد الحربية .. وقد كنت محاطة بالقمصان البيضاء الراسمة والعمائم والخناجر والبنادق والرجال الذين ينظرون إليّ بعيونهم الكحيلة ووجوههم الغريبة الداكنة .

وإذا استشعر طبيب فرنسي في ظروف مشابهة هذا النزع الرهيب وظن انه قد تناول مخدراً في وجبته السابقة .. فان احداً ممن خبروا أوضاع اليمن يرد قائلاً : « كلا .. إنهما فقط اليمن .. قد وضعت يديهما حول عنقك ... » وإذا كان هناك شيء يمكن أن يعمله الانسان في احوال كهذه فهو ألا يشغل باله ، وان يسيطر على هواجسه وتصوراته .. وان ينتظر صابراً نور الصباح ..

وقد انتظرت الضوء هادئة في حجرتي في الطابق الثالث .. وهي حجرة طويلة علقت البنادق على جدرانها ووضعوا وسطها أكراماً لي كرسياً مريحاً وطاولة من الخيزران ..

وقد تجولت في اليوم التالي بالمدينة .. وذمار مدينة مفتوحة لا أسوار لها . وموقعها أقل جمالاً من صنعاء ، فالسهل أكثر اتساعاً ، والجبال أكثر بعداً .. وأغلب منازلها من الطوب .. وهي منخفضة نوعاً ما .. ولكن بعض دورها ولا سيما دور التجار الاغنياء ، مرتفعة ومزخرفة تماماً كأجمل الدور في صنعاء ، وأسواق ذمار منتعشة . ففيها المنتجات الزراعية المتنوعة ، ومنتجات الصناع الصغار كالصوف والجلود ، وفي ذمار سجاجيد كبيرة بيضاء وسوداء ، وهي من أشهر أنواع السجاد .. ولا يجد المرء السلع الاوروبية في دكاكينها إلاّ نادراً . ولم تحتل الصفيحة مكان القلة القديمة الفخارية .. وفي ذمار كما في صنعاء آبار كثيرة .. وقد لاحظت في أسواق ذمار طريقة ظريفة للاعلانات .. فبعض التجار يقيمون بجوار محلاتهم التجارية أكشاكاً حجرية يزودونها

بالمياه العذبة ، ويثبتون الاكواب المعدنية في سلسلة يربطونها في الدكان .. ويمر العطشان وقبل ان يشرب لا بد ان يبادلهم الحديث .. وقد يصبح بعد هذا زبوناً ..

وفي ذمار عدد كبير من المساجد . اثنان منهما قديمان وجميلان .. واحدهما كان بناء مربعاً ضخماً دفنوا فيه في القرون العشرة الأخيرة كثيراً من أئمة الزيدية .. وكنت أود زيارة هذه القبور ..

وقد أخذني أحمد إلى حظائر الخيل حيث يربون أحسن جياد اليمن وكان يشغلها قديماً الجنود الاتراك .. وقد قاموا أمامي باستعراض رائع .. فكانت تصل الجياد اثنين اثنين عدواً وبينهما جندي يمسك بيديه الزمام ، إنها جياد ممتازة هيفاء ملساء وثمينة جداً .. ويكون الحراس بأقدامهم الحافية ، وسواعدهم العارية ، وشعورهم التي تعبث بها الريح والجياد أيضاً صورة للجمال الطبيعي المتكبر .. واستعد أحمد للثأر .. وأخطرني وأنا في غاية الحماس ان السيارة في حاجة إلى كشف عام ولن تكون تحت تصرفي ، وان عليّ ان اختار واحداً من هذه الجياد لتنقلاتي .

وقد رجوت أن يأتوني بجواد لبن العريكة ولو لم يكن جميل الطلعة وقد ارتسمت على شفتي أحمد ابتسامة خبيثة وكأنه يقول : « المدام تريد ان تتشبه بالرجال .. حسناً .. سنرى .. » وقد أجابني أحمد بأن جواداً لين العريكة .. لا وجود له في ذمار ، وأخذ أصدقاؤه من حوله يغرقون في الضحك والتهكم .. وقد خلعت القفازات وطلبت منه أن يختار الجواد بنفسه . ومرت أمامنا الجياد من جديد . ولكني هذه المرة كلما رأيت الجياد نشيطة خفيفة تملكتني المرارة والغم . وقد اختار احمد فرساً عمرها ثلاث سنوات يتجلى في عينيها الذعر والخوف وكان مزاجها عصبياً .. وقد تذكرت جوادي « الحجاب » الهادئ بمزيج من الاسف وتوقع الشر ..

ولم يكتفوا بهذا بل وخصصوا لي بجانب الحصان اكره عسكري قد عرفته .. إنه شاب فظ مستهتر لا يرحم ولم يعمل اي شيء لتخفيف الصعوبات التي واجهتها ..

ومع هذين الرفيقين كانت إقامتي في ذمار مرهقة، ولكني مدين مع كل هذا ، لذلك الجواد بساعة من المجد ، قليل من الاوروبيين يستطيعون المباهاة بأنهم قد تمتعوا بمثلها ...

فقد غادر العامل جامع ذمار بعد صلاة الجمعة يحيط به الاعيان والعساكر .. وحتى اشهد المنظر ، اتخذت مكاني في بيت مجاور ، وما ان غادر الموكب الجامع حتى امتطيت جوادي عائدة إلى بيتي ، ولكنهم رأوني .. فتوقفت سيارة العامل وأشار لي بالاقتراب ، ولعله كان راضياً ان أدخل في مدينته الطيبة هذا المنظر النادر .. والتحقت بالركب ، وكانت تصرفات جوادي طيبة للغاية فهو معقود على الاستعراضات العسكرية .. لقد تذوقت ذلك الاحساس المخدر وأنا في قلب الجزيرة العربية ضمن حاشية الشرف لأحد النبلاء المسلمين ..

ولكن جوادي الذي ظل هادئاً وديعاً في الاستعراض ، ولم يكن يحتمل زحام الناس الذين يتجمعون حولنا .. وما كانت صرخات العساكر لابعاد الجمهور تزيده إلا رعونة وجنوناً .. ولعل ذمار لم تشهد منذ عهد « نيبور » عشرين أجنبياً .. بل ولعل الزحام الذي كان حولنا هو نفس الزحام الذي كان حول نيبور قبل مائتي سنة ولكن هل أسير على الاقدام ؟ ان هذا مستحيل .. إذ لو فقد الانسان هنا هيبته واعتباره فقد فقد كل شيء ..

كان المرضى يقدمون طلباتهم لزيارتي لهم إلى العامل ، وكان هذا يحول إلى عبده ما يوافق عليه منها ، وكان يوافق طبعاً على الطلبات التي يتقدم بها أعيان المدينة .. وقد ظللت في الايام الاولى اتنقل بين البيوت الكبيرة ، وكان أكثر الناس طمعاً في رؤيتي تاجر غني جد

ينافس العامل في القوة والنفوذ ، وكان بيته مريحاً بهيجاً كبيوت صنعاء ذلك لأنه قد تجول في داخل البلاد وتعرف باوروبيين قبلي .. ولكني دعيت أيضاً من عائلات مقفلة جداً وقد تركت احدى هذه الزيارات ذكرى مؤثرة في نفسي ..

كان ذلك عند رجل غني أيضاً ولكنه من ملاك الاراضي ، ولم يكن قد غادر ذمار اطلاقاً .. دعاني للكشف على نسائه.. وحضرت. وبدلاً من ان يسوقوني إلى مقر النساء . اخطروني ان رب المنزل ينتظرني .. وما ان دخلت المفرج الفخم حتى خلت نفسي في حلم، حجرة ضيقة يدخلها النور من نوافذ ضيقة .. مفروشة بالسجاد العجمي ، ويتوسطها صحن نحاسي واسع رصت عليه المدائع «النارجيلات» والمباصق والمباخر .. وجلس على المراتب عشرة أشخاص في حلل زاهية من الساتان المقلم صارخة الالوان ، وتربع رب المنزل في مجلس يعلو عن مجالسهم، ووراءه سجادة تغطي الجدار ، وكان شاباً ذا ملامح سامية بحتة ، له لحية سوداء ويلبس حلة فخمة ، وفي حزامه خنجر طويل من الطراز القديم في جراب من الفضة المحفورة .

ولم يرفع نظره إليّ عندما دخلت .. ولم تصدر منه أية حركة للترحيب وقد سايره الجالسون جميعاً في هذا التحفّظ ، ومع هذا فقد ظل المكان الضيق خالياً ومعداً لجلوسي .. وفي مواجهة رب المنزل تربع المغني وهو رجل مسن فاقد النظر وقد حياني .. وأنشدنا ثلاث قصائد بمصاحبة دفّ كبير تحيط به الجلاجل ، وكانت الوجوه الجامدة التي لا تحس ولا تتأثر ترقبني خلسة .. وعندما استأذنتهم لم أكد أتبين حركات رؤوسهم الخفيفة التي حيوني بها .. لقد أحسست في تلك اللحظات فعلاً بالشرق المحكم الذي لا يخترق .. ففي سنة ١٩٥٤ يمكن القول ان عهد الف ليلة وليلة ما زال حقيقة واقعة في تلك البقعة من العالم ...

أما الفقراء فلم يكونوا يتوجهون من أجل مرضاهم إلى العامل ، فذلك غير مجد بدون شك ، ولكنهم كانوا يستوقفونني في الطريق . وتزداد طلباتهم عندما يرونني استجيب لهم وأذهب معهم .. وكان عبده مترجمي يسهل ذهابي اليهم بينما يشكو بمرارة إذا ما تأخرنا عن بيت من البيوت الكبيرة . ولم أستطع تلبية كل الطلبات . وكان لا بدّ من تنظيم عيادة عامة ، وقد تم هذا سريعاً ..

طلب مني عبده ان أقوم بزيارة امرأة فقدت عقلها في اليوم الذي غرق فيه ابنها في بئر . وقد قال لي : « اني اعرف يا حكيمة ، انك لا تستطيعين ان تفعلي شيئاً ، ولكن زوجها تعس جداً .. فاذهبي » . وكان البيت متواضعاً ، وقد أدخلوني حجرة طويلة خالية من كل شيء ، وفي احد أركانها تستلقي المجنونة مدثرة بالاغطية .. رفعتُ الغطاء ، فوجدت وجهاً معذباً بالهم والرعب ، ونظرات شاردة استقرت عليّ فيما بعد ، وقد قال عبده : « إنها تنظر اليك يا حكيمة .. إنها لا ترغب في رؤية أحد منذ مدة طويلة .. ولعل مظهري غير العادي ، وبدلتي الكاكي ، وعيني الزرقاوين .. لعل كل هذا قد أثارها في أعماق غيبوبتها ، كما كان الروب الطويل والقبعة الطويلة يفعلان عندما كان أطباؤنا قديماً يستعملونها للتأثير في مرضاهم ..

والمعروف الآن ان هزة معينة قد تساعدني في شفاء بعض الأمراض العقلية .. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلها ؟ لما كنت لا أملك شيئاً فليس أمامي إلاّ ان أمثلُ دور « الفقير » .. أخذتُ رأسها بين ذراعي وتحدّثتُ اليها طويلاً ، وباهتمام ، باللغة الفرنسية . ولما لم يكن احد يفهم ما أقول .. فقد قلت لها كل شيء يفكّر فيه الانسان ولا يقوله .. واجتمعتْ الأسرة ورائي في نهاية الحجرة واستمعتْ إلى كلماتي باهتمام صامت .. وليس غروراً ولا وهماً إذا قلت ان هذا الوجه المعذّب قد أصبح أكثر هدوءاً .. وتركتهم وقد استعادت من

جديد نظرة الانسان الحي ..

وفي اليوم التالي انتظرني عبده وقال لي بسرور عظيم : « ان المجنونة قد تحسنتْ حالتها .. لقد نهضتْ .. وخرجتْ من غرفتها .. وذهبتْ بمفردها إلى دورة المياه .. وكانت قبل هذا لا تستطيع حراكاً . » وقد فرحت الاسرة لهذا ووجدتُ انه لا بدّ من الاستمرار حتى لا تعود المسكينة من جديد تحت الكابوس ، وكان متعذراً عليّ ان أعالج مرضاً عقلياً بالاضافة إلى عملي اليومي ، وكان الحلّ الوحيد هو ان اجمع مرضاي بجوارها ، وقد قبل هذا زوجها راضياً ، وكان رجلاً طاعناً في السن ذا وجه طيب كريم ..

وإذن فقد كان عليّ ان أقوم بعملي كل يوم بجوار هذه المجنونة ، وقد بقيتْ في ركنها المعتاد وأنا إلى جوارها ، والمرضى مزدحمون في نهاية الحجرة يتقدّمون الواحد بعد الآخر ، ويستلقون أمامي ، وقد أردت بصفة خاصة أن أجعلها تتقبل وجود شخص آخر معها ، وان تقبل على حد أدنى من الحياة الاجتماعية ، وكانت تنظر إلى ما أمامها باستغراب .. وتعود اليها أحياناً مخاوفها وفزعها فتخفي نفسها من جديد تحت جلد الخروف .. وكان علينا أن نخرجها من تحته ، وان نتحدث اليها ، وما ان تهدأ حتى أعود إلى فحص مرضاي .. وكانوا رجالاً ونساء وأطفالاً .. عللاً خفيفة ، وأمراضاً مستعصية .. كل هؤلاء يدخلون ويخرجون ويمرون امام هذا المشهد التعس .. ويبدو هذا الجانب المسرحي طبيعياً في هذا البلد .. وفيما عدا المجنونة ، كل ما كنت أفعله كان لا يجدي شيئاً .. فالعلاجات باهظة الثمن بصورة مزعجة .. وقد أخبرني الممرض انه لا يكاد يقدر على شراء العلاج إلاّ خمسة من كل عشرين مريضاً ، وهؤلاء الخمسة لن يستطيعوا شراء العلاج مرة ثانية ، ولم يجدوا من يشرف عليهم . وبالتالي لن يشفى احد منهم بدون شك ..

ماذا يتبقى من جهودي كلها ؟ لقد تقدم مني طفل بعد عملي ذات

يوم وكان يبدو في صحة جيدة .. فسألت دهشة وما حكاية هذا الصغير؟ وبحثت عن أمه بين الحاضرين ، ولكنهم جميعاً ابتسموا ، وقالت لي امرأة بلطف : «انه يريد ان يقبّلكِ يا حكيمة» ان قبلة من طفل تبعد عن الانسان القنوط والكآبة ..

اعجوبة هذا البلد ان السلام يأتي دائماً بعد الحسرة والشدة .. لقد خرجت يوماً من البيت بعد جلسة طويلة ، وكنت متعبة وأشد ارهاقاً من أي يوم مضى ، ورآني رجل عجوز يجلس على الارض امام بيته ، وكانت نظراته براقة وهادية حتى لقد توقفتُ مبهورة امام هذا الشعاع كما يقف الارنب امام ضوء السيارة في الليل ، قال لي هذا العجوز : « تفضلي .. وشاركيني طعامي .. » وقد اجبت عليه بأسف : «لا أستطيع فلا يزال أمامي عدد من البيوت .. ولا بد من زيارتها » فقال : «اذن سيري والله معكِ .. »

لم يكن ما في فمه وصفة عقيمة .. لقد شعرت على الفور اني قد تخلصت من التعب كله .. وقد أمضيت بقية النهار يخالجني الفرح والرضاء ..

وكان يتخلل عملي اليومي مشاهد مسلية تمدني بالراحة الضرورية ، أجملها ما كان يقع في دكان طبيب مدينة ذمار .. كنت اهتم دائماً أن تكون علاقتي طيبة مع زملائي المطببين اليمنيين ، ولم يكن ذلك عسيراً ، فيكفيهم ان أطبق في البيوت الكبيرة التي يترددون عليها القواعد التي ساروا عليها من قبل .. فقد كنت احتفظ بما لا ضرر منه من تصرفاتهم .. واعطيه الاهمية الكبرى .. وبتكتم أضيف اليه العلاج الفعّال ، بل لقد كنت أطلب من زميلي المطبب في ذمار ، حتى أرفع من شأنه في نظر عملائه ، ان يعطي بعض الحقن ، أو ان يشرف على بعض المعالجات ، وإذا تحسنت صحة المريض فان كل واحد منهم سيكون سعيداً ...

وطبيب ذمار كنت أعرفه ، وهو عجوز قصير القامةعطوف بسيط ، وعندما ذهبت لزيارته طلب ان أشرح له عملياً كيف يعاين الطبيب الاوروبي مرضاه .. وقد التف الناس حولنا أمام دكانه ، وتقدم متطوع واستلقى أمامي ، وكشفت عليه من الرأس إلى القدم .. وكنت وأنا أشرح ما أقوم به بصوت عال ، اتجه بذهني إلى أساتذتي الكبار أطلب عفوهم .. وقد لاقى فحص الاعصاب اهتماماً كبيراً عند المتفرجين الذين لم يبد عليهم الضجر وهم يرونني « ادغدغ » جلدالبطن لاجعل السرة ترتفع إلى اليمين أو إلى الشمال .. ولا أدري إذا كان هذا يتفق تماماً مع الافكار المتعارف عليها في كرامة الطب .. ولكن الحاضرين كانوا منتبهين ومهتمين تماماً كتلامذتي في احدى مستشفيات باريس قبل سنوات وأنا أقوم بتمرينهم ..

ولم تكن صورهم على العموم أقل من تلك التي نشهدها عند سكان ريفنا المنعزل .. أما رغبتهم في التعلم فلعلها أعظم ..

الفصل السادس عشر

ضواحي ذمار

هران ، واطلال آخر قرية مسيحية — قرية المواهب — والطبيب لامبارديير — قبور الحميريين في ذمار القرن — الحياة والحكومة — اراء العامل السياسية .

... ولكن الايام تمر والعامل لا يسمح لي بساعات قليلة اتجول فيها . وفي نهاية الاسبوع لم أكن قد رأيت شيئاً من الاعاجيب التي وعدوني بها .. وقد أصموا آذانهم عن كل طلباتي .. وذات مساء أخطرت عبده أنه يتعذر عني رؤية أي مريض قبل أن أزور القرية المسيحية ، ولم أخرج في الصباح من غرفتي .. وكانت ساعات عصيبة بالنسبة لعبده المترجم المسكين الذي كان دوره شبيهاً بدور وكيل أعمال إحدى نجوم السينما المتشددات .. لقد كان ينظر بأسف إلى مقياس ضغط الدم الذي جعل ذمار كلها تأتي إليّ .. فانه لو أضرب عن العمل فان عبده سيحرم من « البقشيش » الكثير .. وكنت استعمل مع المتنقلين جيئة وذهاباً بيني وبين العامل تلك العبارة الشرقية التي لا تغلب « بكره ان شاء الله » . واليمنيون يتقبلون بلطف ان يلجأ الانسان إلى وسائل القهر الضاحكة التي

تعودوها .. وفي نهاية الصباح أخطروني ان الخيل جاهزة .

وتوجهنا في موكب إلى هران .. جبل بركاني صغير أسود يقع على بضعة كيلو مترات من ذمار . وكان معي بعض أعيان المدينة الذين سألتهم عن هذه الاطلال ، وكانوا جميعاً متفقين ان سكان هذه القرية القديمة مسيحيون ، ذلك لأن جنوب الجزيرة قبل انتشار الاسلام كان فيهـا جماعات يهودية أو مسيحية ، واتفق هؤلاء الاعيان على تاريخ الانهيار قبل الف سنة تقريباً .. إلا ان واحداً لم يستطع القول فيما إذا كـان الانهيار بسبب صراع عنيف .. أو أنه انقراض طبيعي ..

وقبل جبل هران مررنا ببناء عجيب يقع إلى اليمين .. سور ضخم من الرمل المقوى الذي يفصل بين مكان شبيه بالساحة ، وبين جانب ناتئ من صقع الجبل .. وهذه الصخرة قوس دائري ، يعلو عمودياً ثلاثين متراً .. ويتصل بنهايتها سور طوله حوالى مائتي متر .. وارتفاعه ثمانية أمتار ، وسمكه اربعة أمتار . وسكان ذمار يعتبرون هذا السور قديماً جداً ومعاصراً لهذه القرية القديمة ، ويمكن الدخول بتسلق عسير لأحدى نهايتيه .. وقد كانت هنا بئر في الماضي ، ولكنها امتلأت الآن الحجارة .. ولا يشك أحد أن هذا المكان المسور ما كان إلا حفرة يوضع بها المسجونون ، والهروب منه عسير ، سواء عن طريق الجبل أو السور . وخاصة والحراس يقظون .. ولكن من هو هذا الذي بنى هذا السجن البربري .. ولمن بناه ؟ البعض يقولون إن المسيحيين هم الذين بنوه ليحتجزوا فيه الرهائن .. والآخرون يقولون إنه بنى من أجل المسيحيين الذين اعتقل فيه آخرهم .. بعد خراب قريتهم .. ولا وجود لأية اشارة أو علامة على الصخور ولعل المخطوطات اليمنية القديمة — إذا درست — تكشف لنا شيئاً عن هذا ..

وعلى مبعدة نجد التربة مشبعة بمعدن الحديد الأحمر القابل للتفتت .. وقد كانت العربية السعيدة معروفة في ذلك الزمان بانتاج الحديد .. إلا

ان هذا المنجم ليس مستثمراً منذ زمان طويل .. وما زالت بعض حفر الاستخراج ظاهرة للعيان .. عشرات الامتار عمقاً .. ونحو ستة أمتار طولاً وثلاثة اتساعاً ، وكانت شقوق موضوعة بعضها فوق بعض تستخدم كسلّم ... وفي القعر فتحات لعدة ممرات .. وقد ردمتها الأيام :

تركنا جيادنا في سفح الجبل ، وتسلقنا ممراً بين كتل الصخور البركانية السوداء ، وتحدث بعض الصخور أصواتاً رنانة كالاجراس ، وهذا يحير العرب كثيراً ، ويظنونها فارغة جوفاء أو مليئة بالمعادن :

وعلى مساحة مسطحة تحت ، القرية القديمة ، وكان فيها قرابة مائتي بيت ، ولم يبق منها إلا ركام من الاحجار الخشنة غير محدد المعالم : ولعل الاحجار الصالحة قد اتخذت لعمارات ذمار .. وبقيت بعض الجدران التي شادوها بالحجارة .. وقد أروني المكان القديم للقرية .. وهو مساحة خالية .. فيها بركة مياه من الاسمنت الخشن الذي لا يزال واضحاً للعيان .. لم يستطع أحد أن يدلني على موقع الكنيسة القديمة : ولا أدري ما سبب هذه الذكرى المخلصة . وتستند القرية على اكمة صخرية فيها فتحة كانت هي المدخل .. وعلى قمة هذه الصخرة الشامخة يقوم بيت عامل القرية أو عمدتها ، ويميل الجانب الآخر للهضبة مباشرة إلى السهل الذي كان البيت موصولاً به بممر تحت الارض .. وتسور الهضبة مرهق وشاق ولكن رؤية وادي ذمار تعوض كل ارهاق ... ويكون الجو في اكتوبر صحواً تنتشر فيه السحب الخفيفة ، وضربات الشمس القوية .. وبيت عمدة القرية أو رئيسها مربّع جدرانه كثيفة وما زال جزء منها قائماً وفي حالة جيدة .. ولعل السبب هو صعوبة نقل احجاره إلى ذمار .. وعلى بعد أمتار من البيت .. يوجد قبر رئيسي مسيحي آخر .. وهو قبر فقير .. فهل شهد الراقد في هذا القبر من قمة هذه الصخرة الشامخة تلاشي جماعته كلهم وانقراضهم ؟ أم أن الحظ اسعفه ومات قبل أن يموت آخرهم ؟ ان احداً لا يعرف شيئاً عن

هذا .. ويبدو أن هذا القبر المعزول الذي يشرف على هذه القرية ويواجه بلداً معادياً .. يبدو أنه يقوم بالحراسة والترقب ، حيث لا يخلفه احد . كانت لديهم فكرة غامضة عن هذا .. أما الرفاق فقد احترموا صمتي ؛ وقال لي أحدهم بكل بساطة : « إن الله يسبغ رحمته على المؤمنين جميعاً » .

لم يبق إلا أن أعود إلى ذمار حيث ينتظر زيارتي خمسة وعشرون شخصاً . وأكثر الناس ثراء وأخفهم مرضاً هم دائماً الذين ينفد صبرهم ..

أما في اليوم التالي فقد أعدّتْ الجياد لزيارة ذمار القرن .. وهي أيضاً إحدى قرى الضواحي ، وتقع في قمة هضبة ، وقد قال لي العامل ان مغارات كثيرة قد حفرت في هذه الهضبة التي كانوا قديماً يخفون فيها الكنوز .. فقد كانوا يدفنون الذهب في شق عميق محفور في أرض المغارة .. وعلى الجوانب فتحات يقف فيها العساكر لحراسة الكنوز .. وليس هذا في الواقع إلا خيالاً محضاً .. فهذه الكهوف لم تكن إلا قبوراً حميرية شبيهة بتلك القبور التي عرفت في اقليم بيحان في الجنوب .. وكان الحميريون موجودين في هذا البلد بين القرن الاول والخامس الميلادي ، بعد السبئيين ، وقبل الغزو الحبشي .. وكان دينهم يقول بتعدد الآلهة وتقديس الموتى .

وكان في ذمار القرن قبران اثنان فقط من هذا النوع ، نحتا في قلب صخرة على حافة الجبل ، وهما ممران ضيقان عمقهما يصل إلى بضعة أمتار ، وفي القعر تبدو فتحة السرداب .. حيث تدفن الجثة ، وعلى طول الجدران انتشرت حفر مربعة أقام العامل فيها عساكره .. يحرسون الكنوز المزعومة ... ولعلهم كانوا يودعون هنا القرابين والتماثيل الصغيرة التي ينذرونها .. ذلك لأن أطرافها الامامية منحوتة في شكل قنوات صغيرة .. وعندما يفتح قبر للمرة الأولى ، يجدون فيه تماثيل

رخامية صغيرة .. تمثل الآلهة أو أصدقاء المتوفى ...

وتحت القرية مباشرة ، وعلى مسافة صغيرة من القبو .. أشار مرافقي إلى موقع كهف مستدير ، ولكن موسم الامطار الذي انتهى كان قد ملأه بالمياه .. ولم نر إلا القبة التي تبدو في اعلاها احجار مخطاة بنقوش وخطوط كثيرة ...

وكانت زيارتنا في اليوم التالي لقرية « المواهب » ، وان أعود ألف سنة في جوف التاريخ كما عدنا في هران . ولا ألفي سنة كما فعلنا في ذمار القرن .. ولكن « المواهب » سترجع بنا مائتين وخمسين سنة . ففي حوالى ١٧٠٠ كانت هذه القرية مدينة حقيقية .. فقد كانت مقراً للامام المهدي محمد .. وقد زاره إلى هذا المكان فرنسي هو المسيو دي مرفي وكان يقود مركباً تابعاً لشركة الهند مكلفاً بحمل شحنة من البن .. ولكن الامور تطورت من سيء إلى أسوأ .. وللمرة الأولى ، اشتبكت اليمن وفرنسا في حرب .. وقد القى المركب الفرنسي القنابل على ميناء « المخا » .. وكان الكابتن أول أوروبي في العصر الحديث يزور داخل البلاد .. وكان كتابه « رحلة في العربية السعيدة » الذي نشره في سنة ٧١٥ هو الذي ألهم نيبور بعد خمس وعشرين سنة .

وقد استقبل مسيو دي مرفي استقبالاً ملكياً في قصر الامام .. ومنذ ذلك الزمان لم يصل إلى هنا أي فرنسي أو أي أوروبي حسب معلوماتي .. وكان معه طبيب المركب وهو نابغة الطب المسيو لا مباردير ، وهو بطل الكثير من الحوادث المزعجة الساخرة الضاحكة وقد دعاه الامام المريض لمعالجته ، وذات ليلة استيقظ قائد السفينة وطبيبها على أصوات خشنة تستدعيهما على الفور إلى قصر الامام .. وقد قطعا الطريق في مرارة وضيق والعساكر يحيطون بهما ، والطبيب المسكين يستعيد في ذاكرته تفاصيل المعالجة ، والنوع الممتاز للعلاجات التي قدمها ، ودقة الجرعات التي وصفها .. وكان يسائل نفسه : ماذا تكون نهايته لو ساءت

صحة الامام ..؟ ولكن الامام وهو في أحسن حال كان يرغب في حديث بسيط معهما ، واليمنيون وهم يسهرون الليل .. لا يقنعون أننا ننام كثيراً في الليل ..

وفي سنة ١٩٥٢ استدعي بروفيسور جراح بمستشفيات باريس لمعاينة الامام أحمد .. وأثناء فترة العلاج أيقظوا الطبيب ذات ليلة بناء على طلب مستعجل من الامام .. وكانت سيارة جيب مليئة بالعساكر تنتظره في باب دار الضيافة .. لتأخذه إلى القصر .

وكان البروفيسور قلقاً وهو يسير في الظلام في واد مشؤوم . تحيط به الغدارات والخناجر ، وكان يتساءل عما طرأ من أمور معقدة خطيرة .. وأدخلوه غرفة الامام الذي قال له :

— « دكتور .. لقد كنا في حاجة اليك .. هل تعلم كم كلف فرنسا خط ماجينو ؟ »

يقول مثل عربي قديم « الحكمة يمانية » .. وائمة اليمن لا زالوا كما كانوا منذ المهدي محمد .. ولكن المجد الغابر لمدينة « المواهب » لم يبق منه شيء .. فلم تعد « المواهب » سوى قرية متواضعة تضم قرابة مائة بيت فوق مسطح يشرف على السهل . وفيها اربعمائة انسان يعيشون على حقولهم وقطعان ماشيتهم ، وتبدو عليهم الصحة الطيبة . وقد أكد لي عمدة القرية ان الامراض نادرة .. وفيها مدرسة بها خمسون طفلاً ولا تعين الحكومة مدرسهم بل يعيش كما يعيش أمثاله في قرى اليمن المختلفة على ما يقدمه سكان القرية .. وكان احد الاطفال يعبر الشارع وحقيبته على ظهره وقد رأيت لوحه الاردوازي وقرآنه ، وهمس عبده ، وهو يهتم دائماً باظهار مزاياي ، قائلاً : « اقرأي يا حكيمة ولو كلمة واحدة .. » ولحسن الحظ تبينت الكلمة الكبيرة « الله .. » وقد أشرق وجه عبده كأم شابة استمعت إلى طفلها يحكي قصته .. وانتهت الزيارة وكان الجميع مسرورين ..

وكانت النساء ينزلن إلى الحقول وعلى رؤوسهن طعام الرجال ، وقد رفعت احداهن .. وكانت جميلة طويلة وكاشفة الوجه .. رفعت غطاء الاناء الفخاري وقدمته لي بسرور .. ولكن البهارات كانت قوية فيه ..

وانتهى الماء في زمزميتنا ، وقلقت خطأ .. فالملح هو الذي يثير العطش ، والعرب يشربون قليلاً لأنهم لا يكادون يضعون الا قليلاً من الملح في طعامهم .. وعلى النقيض من ذلك فالبهارات لا تهيج العطش .. فما ان هدأت حرارتها في فمي حتى أصبح بارداً عذباً .

وبقي علي ان أزور الجامع الذي يضم ضريح المهدي محمد .. ويقال ان هذا المسجد قد بني في مكان كنيسة مسيحية قديمة .. وقد سمحوا لي بالدخول بعد ان خلعت نعلي .. وواضح ان البناء الحالي قد استعملت فيه أنقاض بناء آخر ولكني لم أجد أثراً لأي كتابة أو نقوش ..

ولم يبق أمامي الا زيارة أضرحة الائمة وقد اعتمدت في هذا على طالب من ذمار كان يزورني كثيراً في صنعاء ويسمع الاسطوانات ويتصفح الكتب .. ولكن الطالب كان خائفاً فطلب الاذن بهذا وقد حولوا الطلب الى الامام .. وهذا يعني انهم قد رفضوا .. وذات يوم كنت أتأمل هذا المسجد بأسف من أعلى منزل مجاور ولا يفصلني عنه الا ميدان صغير ، وقد شعرت بالدوار من هذا التعقيد المرهق ، وخرجت من المنزل دون أن أقول شيئاً ، تركت حراسي الخمسة عشر ، وعبرت الميدان بخطوات طويلة وعند الباب خلعت نعلي أمام الجميع ، ودخلت ، وفي دهشة وذهول فهم حراسي وأدركوا ما أريد ..

ساحة واسعة مهجورة .. بركة .. مسجد على الطراز القديم .. ولكن البناء الذي يضم قبور الائمة كان مغلقاً بالمفتاح .. وقد قالوا لي انه كان مفتوحاً لان اليوم كان يوم الجمعة .. وظهر عبده والآخرون وظلوا في مكان بعيد .. وابتسم عبده ابتسامة صفراء وقال : « لا تفعلي هـذا يا حكيمة ، ارجعي .. » قال هذا بنفس اللهجة التي توجه الى حيوان أليف

خرج من قفصه ولا يدري ماذا يفعل .. واستوضحت .. فقالوا انه مفتوح يوم الجمعة للصلاة فقط .. ولم يبق أمامي الا أن ألبس حذائي وأعود .. وهكذا لم تعكر رقدة هؤلاء الائمة نظرة أي أجنبي حتى الآن . .

وبعد هذا الانكسار الاخير بدأت أفكر في الرحيل .. ودعتني يوماً زوجة العامل الكبرى لحضور اجتماع نسائي فيه رقص وغناء .. وقد أقامت هذا الحفل تكريماً لي .. وكنت أحب هذه المناسبات ولهذا فقد كنت أعمل جهدي لأكون حاضرة في الوقت المحدد .. ولكن خطتي تغيرت رأساً على عقب هذه المرة .. ففي بيت من تلك البيوت التي يجد فيها الفلاحون المسافرون حجرة خالية من كل أثاث كان ينتظرني خمسة عشر شخصاً جاؤوا من قرية نائية سيراً على الاقدام ثلاثة أيام يحملون الي مريضة عجوزاً تعاقب الرجال على حملها على النعش وكانت في حالة خطيرة فقد انتفخت وتضخمت بسبب التهاب جلدي وكانت تفرز المصل لقد انتهت حياتها .. ولكن فلأخفف عنها العذاب بضعة أيام ..

وكان من العسير ان أتركها .. فالثقة والأمل والاخلاص الذي تجلى في أبناء بلدتها كل هذا غلني واجبرني على البقاء بجوارها .. فوداعاً يا نشوة القات المخدرة .. وداعاً للأغاني الرتيبة والرقصات الحلوة العذبة .. أما أنا فسأبقى أرقب المثقب والمشرط والمصل الذي ينزف من جسم مريضتي.

ووصلت دار الحكومة وكانت المغنيات قد غادرنها وانتهى الحفل .. الا أن النساء كن جميعاً باقيات .. ومن جديد حاولت دون نجاح أن أوقظ في نساء الحريم الغنيات بعض الاهتمام بالبائسات اللاتي نراهن هنا وهناك .. وفضلاً عن هذا فالقريب الذي يتجرأ ويقص علينا في صالون أنيق ما شاهده في الضواحي الفقيرة أثناء نزهة الصباحية .. فانه يكون عندنا غير مهذب ، ولكنهن على أي حال انتظرنني .. وأخذت زوجة العامل توجه لي أسئلة واضحة محددة ومسلسلة منطقياً :

كم عندك من أطفال يا حكيمة ؟ وكم عمر طفلك الأخير ؟ هل

زوجك في صحة جيدة ؟ وأنت أيضاً ؟ ألا ترغبين في مزيد من الاطفال وكيف تتحاشين ذلك اذن ، فقد كن ينتظرن مني ايضاحاً لكيفية تحديد النسل ، لم أستغرب هذا .. ولكنها كانت المرة الاولى التي تقوم فيها امرأة ذكية بجمع هذا العدد من النساء حولي للدرس .. والدين الاسلامي في هذا الموضوع له موقف أكثر اتساعاً من الكنيسة الكاثوليكية الحالية.. قالوا لي هنا .. ان الله خلق الانسان قادراً على تطعيم الاشجار المثمرة ، وعلى تنقية الجياد الماهرة ، فلماذا يمنعه من استخدام عقله في تكوين أسرة صالحة ؟ ولهذا السؤال في مجتمع تتعدد فيه الزوجات أهمية خاصة ، فالمرأة المثقلة بالاطفال تسرع اليها الشيخوخة .. ويسرع زوجها بالاقتران بامرأة ثانية ، وتحديد النسل هنا كما في أي مكان آخر يزيد من الفرص لحياة عائلية متوازية — ولكن ما هي النصائح التي أقدمها لهن ؟

لا جدوى من ذكر الادوات الانجلوسكسونية لأنها غير موجودة ، وطريقة أوجينو لا يشك أحد أنها ضمنت تعمير فرنسا بالسكان ثانية ، ولما كان بيت الماء يقدم لليمنيات امكانيات المعالجة الكافية بالماء فقد شرحت لهن اذن العملية بالرسم ..

ولكن السيدات مرة أخرى بدت عليهن خيبة الامل ، لأن هذه الممارسة مرهقة . مرهقة جداً بالنسبة للشرقية المتراخية .. ثم شرحن لي ان الرجل وقد اقتضى حاجته مرة .. يتمسك باطالة لذته ونشوته برفق وعلى مهل ولن يسمح بكل تأكيد للسيدة ان تتركه هكذا بسرعة .. لقد كن يردن دواء مكوناً من قطرات .. قطرات تتناول من الفم .. ويفضل ان يتناولها الزوج .. اذ لماذا يكون العلاج للمرأة .. وهناك رجل واحد هو المسؤول .. ؟ والعلم الحديث للاسف لم يقدم لنا حتى الآن شيئاً كهذا .. وبناء عليه فان الوقت السعيد لتحديد النسل لن يكون قريباً في جنوب الجزيرة العربية .

وكثيراً ما يدعوني العامل العجوز لقضاء السهرة بجواره .. وكان

يستدعي المترجم عبده الذي لا غنى عنه عندما يصل الحديث الى المسائل العامة .. وكان المفرج حجرة صغيرة وفوق مصطبتين مفروشتين بالوسائد يجلس بعض الاطفال .. بعضهم نائمون وبعضهم الآخر يلعبون ، أما العامل فلا يترك مجلسه المفضل المنخفض بين النافذتين .. ويضع على وجهه « المزوق » نظارة يثبتها بشريط الى الاذنين .. ويظل يدير جهاز الراديو ساعات طويلة بينما تتولى احدى بناته تدليك قدميه .. ويتحدث عن حياته بطيبة خاطر . وعن آرائه السياسية ولكن المدهش أنه لا يتحدث مطلقاً عن الله ..

لقد عرف أوروبا في أيامها الجميلة ولكن طوكيو مع ذلك ظلت مدينته المفضلة .. ولم يغادر اليمن منذ الحرب العالمية الاولى الا لفترات قصيرة في مصر ، ولكنه يرقب العالم الخارجي من خلال جهاز الراديو ..ويتنقل دون تعب من القاهرة الى برازفيل ، الى لندن ، الى موسكو .. أما الاذاعة السعودية فانه لا يستمع اليها لأنها في نظره كلها صلوات .

واذا كانت روح العامل العجوز هي فعلاً روح القرن العشرين ..فان عواطفه على النقيض من ذلك لا زالت عواطف سيد اقطاعي لا يقبل أي نقاش في سلطته المطلقة ..لقد استدعى أمامه ذات مساء أحد عساكره متهماً بارتكاب خطأ لم أفهمه .، وكان يصرخ عليه بغضب عنيف وبوحشية جعلت العسكري المنحني مغلوباً عاجزاً عن الحركة وفي نفس الامسية أخطرني بلهجة لا تنتظر رداً أن الناس جميعاً في ذمار راضون عني :: وأنه قد قرر الاحتفاظ بي .. وقد أبرق الى الامام يطالب موافقته ..هل كان اخطاره لي بهذا القرار في نفس الليلة التي غضب فيها على الجندي مجرد توافق ؟

ولكن بيتي الهادىء . وجوادي الشجاع ، وصديقتي الاميرة وصديقي المهندس وصنعاء التي أحببتها كثيراً .. لقد كنت مذعورة فكلمة واحدة من الامام تفقدني كل هذا . هذه الاقامة في ذمار كانت شديدة الوطأة

حقيقة .. لقد أصبح الجواد وقد شعر ان اليد التي تمسكه غير ماهرة .. أصبح صعباً شيئاً فشيئاً .. فقد كدت في نفس الصباح ان أقع بصورة مضحكة .. دار السرج .. وللخروج من هذا الوضع العسير كان علي أن أطلب مساعدة عسكري لعين أشار الى الذين حولنا في سخرية قائلاً : « إنه ليس رجلاً .. على كل حال » وكان علي أن أخفي قلقي حتى أستطيع مواجهة الامر .. وقد حاولت اخطار المهندس بأسرع ما يمكن .. فهل أبعث له رسالة بالبريد ؟ لقد بعثت اليه رسالة ولكنها لم تصل اليه الا بعد شهرين .. وأنا على أية حال لا أفكر في هذه الوسيلة .. ولا أستطيع أيضاً الاعتماد على مترجمي عبده فهو يود أن أبقى هنا في ذمار حتى يظل قريباً من أسرته . ولا بد لي ان أجد الطريقة بنفسي .. وكانت نافذة بيت الماء تشرف على ميدان المدينة ومنها رأيت سيارة تقف وينزل منها السائق .. لقد كان صلاح سائق السيارة التي أقلتني من تعز الى صنعاء عند وصولي .. ناديته بفرح عظيم ولعله أدرك ما يجري .. حينما خرجت من دار الحكومة بعد الظهر . كان صلاح ينتظرني في الصف الأول من الناس المتجمعين وقد وضعت الرسالة في يده دون ان يلحظ أحد ذلك وفي نفس المساء كان في صنعاء .

وبعد يومين استدعاني العامل وقال لي ان صديقتي الاميرة قد طلبت حضوري في أسرع وقت ممكن لانها مريضة وان صاحب الجلالة قد كلفني بالعودة الى صنعاء بناء على ذلك .. تلقيت هذا بارتياح مصحوب بالاسف .. ذلك لأن عامل يريم وعامل رداع كانا قد استدعياني حتى لا يكونا وحدهما اللذين لم أزرهما . أما عن أميرتي العزيزة فلم أكن قلقة ولما كانت عودتي الى صنعاء مؤكدة فقد أردت عن طيب خاطر أن أواصل رحلتي بعض الوقت .. وقد تمنيت أن يصرحوا لي بذلك ولكني وجدت نفسي في الفخ الذي نصبته .

وفي هدوء واطمئنان اقتنصت الايام الاخيرة .. فقضيت ساعات طويلة بعد الظهر مع نساء العامل في الحمام وقد ذهبنا معاً وأنا ألبس الملايسة اليمنية فلم يكن من المعقول ان أسير بالبنطلون كما لو كنت حارساً لهؤلاء السيدات المحترمات وهكذا عبرت شوارع ذمار الى حي اليهود القديم ، وكان في هذا الحي قرابة ثلاثة آلاف يهودي ولكن باب الحي الخشبي القوي لم يعد يقفل الآن . بل يتثاءب ويحدق في المدينة المهجورة التي تنهار أنقاضاً وأطلالاً .. وقد ذكرتني هذه الشوارع وأنا أرقبها من خلال الحجاب الاسود بمنظر الجحيم في فيلم « أورفي » لجان كوكتو .

وأخيراً أقمت في اليوم السابق لرحيلي حفلاً وداعياً لاصدقائي ، ولما كانت دار الحكومة غير مناسبة فقد وجد لنا عبده بيتاً رحباً ودعا المغنية الضريرة العجوز واشترى القات ووجه الدعوات .

وقد سمحت لنفسي هذه المرة وأنا المضيفة ان أدير برنامج الاغاني على ذوقي .. فطلبت أغاني القات وهي التي تقوم مقام أغاني الشراب ، عندنا . وتجيد المغنية من هذا اللون أغاني ساحرة تقول احداها : « فليبق القات يمنحنا صفاء القلب ، ويبقينا في بيوتنا هادئين مع أصدقائنا وعائلاتنا » .

واذا تأمل الانسان الميل القديم للارتحال الذي جثم على قلب العربي قديماً فان هذه الاغنية العربية المتمدينة تعطي احساساً أفضل أيضاً ..

وأتحدث عن رحلتنا عائدين الى صنعاء لأكمل الصورة التي رسمتها لزوجة العامل التي عادت معي .. وكانت رحلة زاخرة بالتقلب المعتاد والتغير ، ولم نكن مطمئنين الى السيارة .. فقد كان لا بد من عشرين مزارعاً من احدى القرى المجاورة سخروهم لدفع السيارة حتى تمكنا من الصعود الى ذروة الطريق التي تفصل بين صنعاء وذمار .. أما الجانب الآخر فقد كانت تنزل بدون صعوبة لتقف بنا في قرية صغيرة قررنا ان نقضي فيها الليل .

كان الوقت متأخراً وكان نور مصباح الغاز ضئيلاً في القاعة الكبرى

للاسطبل الذي تبيت فيه القوافل .. وقد بدت في الظل تباعاً الجمال والبغال والاكياس والطرود ووجوه الفلاحين التي تبدو عليها الدهشة .. ورتبنا مخيمنا في أعلى المنزل في حجرتين خاليتين من كل أثاث .. لقد سحرتني هذه الوقفة غير المتوقعة .. ولم أخف حماسي عندما رأيت زملاءنا يحملون مقاعد السيارة لننام عليها . وقد حدث في هذه الاثناء شيء غير عادي.. لقد سمعت يمنية تنفجر ضاحكة .. انها زوجة العامل تسخر مني بكل بساطة .. ومن بين قهقهاتها سمعتها تقول .. «ما دمنا .. هكذا .. في أحسن حال .. فسنبقى هكذا .. » . ان للنساء الحريم ضحكات ساحرة ولكنها مكتومة مخنوقة . انهن يقهقهن كالبنات الصغيرات حين يلعبن « الاستغماية » .. لقد كانت تلك المرأة تضحك من أعماقها ضحكة امرأة حرة .. لقد سرني ان أتركها وهي الجادة الباردة على هذه الذكرى :

واستأنفنا الطريق في اليوم التالي وقد قمنا بكل ما يمكن عمله لاصلاح السيارة ومع ذلك توقفت نهائياً على بعد عشرين كيلومتراً من صنعاء .. قرر زملائي ان ينتظروا في مكانهم .. ولكن الصباح كان جميلاً أغراني أنا وعبده ان نقطع المسافة الباقية سيراً على الاقدام .. لقد أحسسنا في السكون والشمس ورطوبة الصباح بالسعادة .. السعادة البدائية البسيطة .. نفس السعادة التي عرفها بدون شك كثير من قبلنا في هذه البقعة من الطريق وهم يرون صنعاء تبدو شيئاً فشيئاً في اطارها الجميل من الجبال العارية الجرداء . ولكن زمجرة ميكانيكية جاءت من ورائنا فأفسدت كل شيء .. انها سيارة عامل يريم الذي غضب لأني لم أذهب اليه فجاء بنفسه ومعه زوجته المريضة .. وحتى لا أكدره قبلت المقعد الذي قدمه لي .. واليمنيون يتنقلون بدون حقائب في العادة ولكن المرأة اذا سافرت فان معنى هذا هو التعزيل .. انها تأخذ معها كل الوسائد الموجودة بالبيت :

وهكذا كانت عودتي الى صنعاء أقل شاعرية .. ولكنها كانت مع ذلك زاخرة بالصبغة المحلية فقد دخلت صنعاء جاثمة فوق شحنة من الطرود وساقي متدلية خارج السيارة وأنا أحتضن نارجيلة طويلة ..

الفصل السابع عشر

السفر الى مناخة

نصائح صديق – متنه وشاعر الربابة –
بريد من باريس الى سوق الخميس –
مزارع البن .

مناخة مدينة صغيرة بها ثلاثة أو أربعة آلاف نفس وهي تقع في قلب مرتفعات جبل حراز وتسيطر على أعلى نقطة في الطريق المباشر بين صنعاء والحديدة وهي طريق قديمة وعرة وغير معبدة أو صالحة لمرور السيارات وغير مسموح للاجانب باختراقها لانها تمر بأقاليم يقطنها أتباع المذهب الاسماعيلي الذين لا يعترفون بالسلطة الدينية للامام .. واذا كانوا يطيعون الامام فانهم يستطيعون ان يحدثوا له بعض المتاعب بمهاجمة الاجانب المسافرين .

ويمكن تفسير أغلب الاعتداءات التي وقعت على الاوروبيين في اليمن بالخصومات الناشبة بين القبائل ورغبة بعض هذه القبائل في اتهام بعضها الآخر بارتكاب الجريمة . ولهذا السبب لم يسمح الامام لبعثة هج سكوت Hugh Scott العلمية سنة ١٩٣٧ باختراق جبل حراز . أما هانس هلفرتس فلم يذهب في سنة ١٩٣٦ الى مناخة الا تحت حراسة قوية ،

وقد سبب له عدم انقياده ان أمضى وقته في السجن . ومن أيام هـنا المكتشف الالماني لم يسمح لأي أوروبي بالوصول الى مناخة .. أما الطريق الجديد المار بحمام علي فهو حجة طيبة للرفض .. ويتحدث المؤلفون القدماء عن مناخة كقرية لا أهمية لها ولهذا فمن المحتمل ان تكون المدينة قد نمت في عهود حديثة نسبياً . ولكن المؤلفين جميعاً يتفقون في الاعجاب بموقع مناخة الممتاز على فج يشرف من علٍ على واديين . وقد تملكتني رغبة جامحة في ان أعرفها يوماً ..

وفي يناير ١٩٥٢ أبديت هذه الرغبة لصديقي القاضي راغب فقال لي « يا طبيبتي العزيزة ، لا تطلبي تصريحاً .. فمناخة ليست في منطقة صنعاء حتى يكون الامر متوقفاً على سيف الاسلام الحسن .. لا بد من الاتصال بصاحب الجلالة .. ولكني أعلم ان السيد محمد الهجوة عامل مفحق مريض في الوقت الحاضر ، ولو خطر على باله انك تودين القيام بهذه الرحلة لاستدعاك لفحصه بكل تأكيد .. ومفحق لا تبعد عن مناخة الا يوماً واحداً .. ولعل الله يمكنك من اتمام الرحلة .. ولكن العامل ليس غنياً وهو لهذا يتردد في دفع تكاليف الرحلة فطمئنيه .. ولا تكتبي اليه في هذا .. فهذه أمور لا يحسن الكتابة فيها .. ابعثي له رسولاً .. وحرر لي القاضي راغب كلمة صغيرة وتوصية برسولي ..

ولم يمر وقت حتى وجدنا رئيس الورشة الذي كان قد اشتغل في فرنسا قبل ذلك وقد أدرك تماماً ما أريد .. وقد نفحته بمكافأة طيبة .. فذهب الى مفحق وعاد بعد أربعة أيام ليقول لي إن صحة السيد محمد الهجوة قد ساءت وانه قد التمس من نائب الامام للتصريح لي بالسفر في الحال .

وقد رأيت أن أتصل بصديقي أحمد الهجوة المستشار الشاب لنائب الملك فهو أيضاً ابن أخ عامل مفحق .. وهكذا حصلت على اذن بالسفر في أيام قليلة ولكن الى مفحق فقط لا الى مناخة وقد استمعت خلسة الى مدير المستشفى وهو يعطي تعليماته المشددة الى المترجم عبده الا يترك ني

أواصل الى أبعد من مفحق ،ولكن عبده بعدعام من العمل معي كان واثقاً ان حظي حسن ويقوي هذا البقشيش الذي يتناسب مع عدد أيام الرحلة.

والتجربة علمتني في اليمن ان الانسان يستطيع ان يفعل ما يشاء بشرط أن يكون في صحبته جندي مسلح .. وهذا أحسن جواز مرور يمكن ان يخطر على بال انسان ، فيكفي ان يحول الحارس الى حليف . وكان علي اذن ان اصطحب عسكري الخاص وبندقيته .. وكان العسكري المكلف بحراستي اسمه حفظ الله .. كان قبيحاً ذا وجه صغير لطفل نحيف ضحوكاً ساذجاً ، قتل رجلين قبل الآن وخرج من السجن ...؟ أما القتيل الاول فلا أدري عن قصته شيئاً .. وأما الثاني فهذه هي القصة: انحل حمل حمار في أحد الشوارع وتدحرجت الريالات وانتشرت في الطريق ، أراد حفظ الله ان يساعد في جمعها .. فهل سرق منها شيئاً ؟ أتهموه بالسرقة على كل حال ، فغضب وطعن من اتهمه بالخنجر وحكم عليه بالاعدام .. أو يدفع مبلغ الف ومائتي ريال لعائلة الضحية وهذا المبلغ يساوي مرتب هذا العسكري الشهري مائة وخمسين مرة ، كما لو طلبوا من شخص يكسب في فرنسا ثلاثين جنيهاً أن يشتري حياته بأربعة ملايين ونصف من الفرنكات ..

ولم يكن من اليسير الحصول على هذا المبلغ ، ولكن حفظ الله باع مزرعته الصغيرة واكتتب معه زملاؤه وتجردت أسرته عن كل ما تملك وسد الدية بعد سنتين فأطلقوا سراحه .. وعلى الفور جاءوا به بحرسني ..؟ وقد يكون من المدهش الاعتماد على هذا القاتل في عمل كهذا يحتاج الى الثقة ، ولكن الانسان في الجزيرة العربية اذا سدد ما عليه أصبح بريء الذمة خالصاً من كل مسؤولية .. فالعقوبة هنا أكثر عمقاً وكمالاً منها في مجتمعنا ، ومن حيث غلطته فانه لا يسحب وراءه طول حياته نوعاً من الادانة التي لا تنسى ..

لقد كان اذن طليقاً ولكنه بائس لا يضع على شعره المجعد سوى

منديل أزرق قاتم ، وهو حافي القدمين لا يلبس قميصاً بل فوطة صغيرة حول خصره .. وسلاحه على العموم يستحيل أن يتصور الانسان جندياً أكثر بؤساً وحرماناً من حفظ الله .

وبعد التحاقه بحراستي أضاف شيئاً فشيئاً الى أمتعته رداء أبيض يمده على الأرض للصلاة عليه وسكيناً جديداً ، وسترة نسوية من القماش الاسود والابيض وياقتها من القطيفة .. ولهذا كله فقد كان يكن لي كثيراً من التقدير والاعتراف بالجميل وكان يحمل حقيبتي أثناء المشاوير الطويلة وما أن تقع عليه عيني حتى يمسك بهذه الملابس الجديدة ويقول ونظراته الى السماء : « الله .. »

ولكني لم أكن أوحي اليه باحترام عميق ، فلم يكن يدعوني حكيمة بل فايق .. وهذه الكلمة قريبة من اسمي .. وهو مع ذلك اسم لطيف وعلى العكس كنت أسليه كثيراً .. وكان يردد باعجاب كل كلمة أقولها وهو يقهقه .. وهو باختصار شخص نشيط تسيطر عليه عواطفه ولكنه يوحي بالبراءة حتى لقد كنت أشعر بالاطمئنان معه .

وكل ما كان علي هو ان أقدم له أحذية وكان هذا وحده كرماً عظيماً .. فالعساكر قد تعودوا ان يقطعوا المسافات الطويلة حفاة الاقدام. بل لقد استأجرت له بغلاً صغيراً يحمل أيضاً أدوية ومواد غذائية .. واكتمل عدد الحراس عندما انضم الينا محمود خادم عامل منحق الذي يأتي الى صنعاء كل أسبوعين لشراء القات وقضاء بعض الحاجيات .

وقد فضلت ان أمتطي ظهر جوادي الحجاب فهو أفضل الجياد ترويضاً وأكملها عقلاً .. ولما كان الجزء الثاني من الرحلة جبلياً فقد كنت أفضل لو كان معنا مطية أخرى ..

وقد وضعت أمتعتي الشخصية وأدوات نومي في حقيبتين من حقائب الاجهزة اللاسلكية التي يملكها الجيش الامريكي في الميدان .. ولا أدري كيف وقعتا في يد صديقي المهندس .. وقد وضعنا الحقيبتين على جانبي

السرج الذي وضعنا فوقه أيضاً بطانية .. ولكن أحداً لا يدري كيف نضع هذا الحمل على هذا الحيوان النبيل الذي لا نحملهنا في العادة الا الرجال.

ولعلي أبالغ اذا قلت ان موكبي قد وصل الى درجة الاناقة الانجليزية ولكنه على كل حال كان مناسباً للحال .. وقد رفضت بشدة المظلة السوداء التي أراد عبده أن يزودني بها ..

وفي صباح يوم بارد من أيام يناير بدأ سيرنا .. وكانت جريدة صنعاء الاسبوعية قد نشرت الخبر فلم يتأخر الناس عن الوقوف أمام بيتي لرؤية هذا المشهد .. وكان الركب يتقدمه الجواد ويليه البغل ثم الحمار ويأتي في الأخير حفظ الله الذي لا يبدو أنه مرتاح الى حذائه الجديد .. وقد رافقنا عبدالله على ظهر الحصان « ريحان » ونحن خارجون من صنعاء.. وكان من الطبيعي ان يصحبني في الرحلة بدلاً من حفظ اللهلولا أنه تزوج قبل أيام قليلة .. وقد تركنا عبدالله عند سفح الجبل في قرية عصر ..

وبعد ساعة ونصف كنا قد صعدنا الجبل وفي الدورة الاخيرة توقفنا قليلاً نودع صنعاء المنثورة تحتنا في السهل ، وكان الوداع مؤثراً فلم نكن ندري ما تخبئه لنا الأيام في هذه الرحلة . ومن هذه البقعة الشاهقة نهبط الطريق قليلاً قليلاً ، وكنا نسير الى جوار الخط السلكي الذي يربط صنعاء بالحديدة عن طريق مناخه .. وعلى يميننا حوض عميق من الاسمنت يستقبل مياه الامطار التي تسيل من الجبال . وعلى يسارناصخرة كبيرة مدورة قد فتح فيها باب شبيه بما رأينا في قبور الحميريين في ذمار ولم نستطع الوقوف طويلاً .. فالناس في الجزيرة العربية يقطعون مراحل طويلة دون ان ينزلوا من على ظهر الجواد أو المطية ، لأن الوقوف يفقد الحيوانات سرعتها .. ونحن مضطرون ألا نضع أقدامنا الا في متنه التي لا تزال على بعد ثلاثين كيلومتراً .

وهكذا اجتزنا سهولاً كثيرة وطويلة يفصل بينها ارتفاعات صخرية وكان جوادي في الطرق المستوية وعند الصعود يتحكم في الخطوات القصيرة

للركب كله .. ولكنه يفقد مزاياه عند النزول .

وكانت المنحدرات الصخرية في بعض الاماكن مغطاة بقليل من الخضرة تكفي لرعي القطعان وقد رأيت في جانب من الجبل جرفاً بابه من الاسمنت قالوا انه مكان تلجأ اليه قطعان الأغنام أثناء العواصف ، والرعود والامطار .. أما الحقول فلا تزال غير مزروعة .. وعلى بعد جثمت قرى عديدة على الروابي .. وكنا نرى المسافرين من قمم هذه المرتفعات وهم يسيرون في الطرق صغاراً كالنمل .. وكانوا على البغال أو الحمير .. أما الجمال فقليلة لأن الطريق تصبح جبلية بعد مسافة قصيرة.

وكانت جماعتنا الصغيرة مثيرة .. فقد كان من نلتقي بهم يقفون فجأة ويسألون من هذه ؟ والى أين أنتم ذاهبون ؟ وكان حمود يرد عليهم « الى مكة » وقد نجحت هذه العبارة فظل يرددها طوال الطريق .. أما الذين يسيرون في نفس اتجاهنا فقد كنا نقطع الطريق معاً في حديث حتى يفارقونا في احدى الطرق الجانبية .

ووصلنا متنه بعد الظهر ، ومتنه قرية صغيرة ليس بها سوى عشرة بيوت من الحجر .. كان أقلها بؤساً السمسرة المبنية من الطين .. وقد أنزلونا في الغرفة المخصصة للشخصيات الهامة . وكانت حجرة ذات نوافذ خشبية أربع بدون زجاج ويعلو هذه النوافذ عقود نصف دائرية من المرمر الشفاف وفي وسطها حصيرة سوداء وعلى جوانبها انتثرت المساند .. أما الرائحة فخليط من أقوى وأنفذ ما يتصوره انسان .. وقد وضع عبده في حجرتي الحقائب التي يحملها الحصان والبغل وكنت أود أن أتناول طعامي معه كما كنت أفعل في صنعاء ولكنه أفهمني أنه من الافضل في السفر ان يحيطني بنوع من الوقار والأدب .. وقد قام على خدمتي قبل ان يذهب لتناول طعامه .

ومضى وقت قصير في صمت ووحدة ولكني كلما كنت وحيدة جاءت الي النساء الريفيات الفقيرات في خجل ، وقد ارهقن العمل وقضى عليهن

التعب بسرعة وفي سن مبكرة ولكني أمام كل هذا لا أستطيع ان أفعل شيئاً .

وقمت بعد الظهر بنزهة صغيرة الى موقع قديم للحرس التركي يسيطر على القرية وقد خلا من كل شيء .. وفيه منصة للمدفع .. والتقيت عند عودتي بمغن شاب متجول اتفقت معه على ان يأتي في المساء .. وكان هذا « النشاد » أو المغني في سن الخامسة عشرة وهو يتابع تمرينه مع منشد معروف يقيم بالقرية المجاورة .. وقد اتقن أغنيات ثلاثاً ينتقل بها في جولات صغيرة ويتكسب منها عيشه .. وقد جاءنا بعد صلاة العشاء .

وكان الليل قد أرخى سدوله .. ومصباح الغاز الصغير المعلق على الجدار يرسل ضوءاً خافتاً على الجالسين في الغرفة .. وهم زملائي في الرحلة وصاحب البيت وأولاده وخدمه وأصدقاؤه .. وقد تربعوا على جوانب الغرفة .. أما النساء فقد تجمعن على السلم خلف الباب . جلس المغني أمامي وفي يده الدف الكبير .. وشعره المجعد يخفي جزءاً من عينيه الخجولتين .. وعلى صدره العاري قطعة من الفراء .. وفي حزامه خنجر كبير .. كان يغني بسذاجة .. وأصبح صوته شيئاً فشيئاً أكثر حرارة وبساطة وقد بدأ بالأنشودة التي لا غنى عنها .. وكانت عن قدرة الله.. وأتبعها بأغنية لا تقل عن الأولى اصالة وهي أغنية امرأة تتعذب لأن حبيبها بعيد عنها .. أما الانشودة الثالثة فكانت تحكي موت سيف الاسلام محمد الابن الاكبر للامام يحيى الذي غرق في البحر الاحمر قبل عدة سنوات وقد كان كما يبدو أميراً عاقلاً وذكياً .. فقد وقع صديقه الصغير الذي كان يحبه أعظم الحب في الخطر أثناء السباحة ذات يوم .. ولم يتقدم أحد لانقاذه .. ولكن الامير لم يستطع ان يقاوم نداءات صديقه الشاب فألقى بنفسه في الماء .. وكانت المخاطرة جسيمة جداً فلم ينقذ صديقه بل مات معه .. وكان المنشد يغني هذه القصة برقة وعذوبة وحزن وأسى . أما الاغنية الاخيرة فقد كانت عن اغتيال الامام يحيى .

وقد قضيت ليلة ممتعة داخل كيس مقفل من الشاش الخفيف ..وهو واسع الى الحد الذي يستطيع فيه الانسان أن يفتح ذراعيه أو يرفعهما فوق رأسه .. ولا ينسى النائم ان يأخذ معه داخل الكيس الساعة ومصباح اليد الكهربائي و كتاباً للأرق .. والكيس هو الحماية الوحيدة من البق والبراغيث أما الناموسية فلا تكفي للوقاية منهما .

وسافرنا في اليوم التالي في ساعة مبكرة .. ولعل جوادي التعس تنبأ بأن الاخطار التي تعرض لها البارحة ستتجدد .. فكان يتجه بقوة نحو صنعاء بطريقة محزنة .. وبعد جهد استأنف سيره .

وبعد خروجنا من متنه وصلنا الى واد لم يكن جافاً تماماً وعلى جانبيه انتشرت مزارع الحنطة والذرة .. لم تكن هذه المزارع عظيمة الاتساع ولكنها مرتفعة وخضراء .. ورأينا فوق النهر جسراً له عقود ثلاثة بناه الاتراك قبل ستين سنة .. وهو واحد من الاعمال الفنية الفريدة في اليمن وقد حدثوني باعجاب عنه قبل الان .. وقد بقي رغم عدم انتظام الحياة ورغم انعدام الصيانة .. وقد أخبروني أننا قد دخلنا « بني مطر » .. ووصلنا بوعان .. وهي قرية صغيرة لا يسكنها أحد ولكن سوقاً يقام فيها يوم الاثنين من كل أسبوع يلتقي فيه مزارعو القرى المجاورة .. وفي القرية جرن للدواشي وخمسون عشة للبائعين .. وانتهى « الحجاب » من التهام حفنات من السقلة الخضراء ثم سافرنا دون ان نستطيع الانتظار وقتاً أطول .

وأصبح الصعود شاقاً بين بوعان وسوق الخميس فالطريق التي شيدها الاتراك قد انتهت هنا .. وقد أشرف السيف الحسن على توسيع طريق وصفها نيبور قبل مائتي سنة بأنها أكثر الطرق التي مر بها وعورة سواء في اليمن أو في أي مكان آخر .. وقد أشرفنا على واد عميق نشق طريقنا على منحدر صخري .. ومن القمة الى السفح في المنحدر المواجه قرابة ألف متر مدرجات عديدة ضيقة تذكرني بالمناظر التي رأيتها في اليمن عند

وصولي .. كلها مزروعة باتقان وقد برزت الاشجار والمنازل .. لقد أحصيت أمامنا على الجانبين خمس عشرة قرية صغيرة ، متقاربة .

وقد تعبت ماشيتنا وخف سيرنا ؛ ولحق بنا رجل يسير مسرعاً على قدميه ويحمل حقيبة ضخمة .. انه عامل البريد المكلف بدورة طويلة .. فهو ينتظر البريد الاسبوعي في صنعاء ثم يأخذه الى مناخه في أسرع وقت ويعود الى صنعاء يحمل اليها البريد المرسل ليلحق بالبريد المسافر التالي .. كانت ساقاه جميلتين رياضيتين .. وكان يسير كل هذه المسافة حافي القدمين .. تعلق بسرج جوادي وظل متدلياً . وهو يخبرني ان لي في حقيبته رسالة من باريس حولها تلطفاً مكتب البريد في صنعاء .

ووصلنا سوق الخميس في الظهيرة فوجدناها أيضاً قرية موحشة مهجورة . فهي أكواخ صغيرة ومكتب للاسلكي ومكان ينتظر فيه مبعوثو الحكومة الذين جاءوا لمقابلتنا . وجلسنا في قاعة طويلة يحتمل انهم يخزنون فيها العلف عندما لا يستقبلون فيها كبار المسافرين . وفي صدر القاعة أعدوا الفرش والمساند بجوار النافذة وما ان وضعنا عليها غطاء السرج حتى أصبح منظرها مقبولاً . وقد تبادلت التحية مع عمدة القرية وتلقيت الظرف الكبير الذي يضم بريدي .. ولم يحدث ان فتحت رسائلي في جو أكثر بهاء وعجباً .

ودخل الزوار حسب العادة وجلسوا على الارض يتأملون في صمت .. وأخذ عبده وقد انتفخ بالأهمية يشرح ان هذه الرسائل وصلت من فرنسا ويمر بهذه الوريقات على محبي الاستطلاع الذين يفحصونها طويلاً .. وبعد الغداء لم أنعم بالقيلولة بل قمت بالكشف على الكثير من الذين التفوا حولنا وقد تعقد عملي لاني كنت مضطرة أن أسلم العلاج بنفسي فقد أودعوا لدي كمية وحددوا لي ثمنها في صنعاء ولم يسمحوا للممرض بالسفر معي فكان علي أن أمسك الحساب وقد كلفني هذا جهداً وعناء .

وقد أرسل لنا عامل مفحق بغلتين لي وللأمتعة حتى نواصل السفر في

هذا الجزء من الطريق الذي يصعب على الجواد السير فيه .. وقد أمرت حفظ الله ان يمسك بزمام الحجاب الذي لا يحمل شيئاً فقد لا أجد في مفحق ما أواصل به السفر الى مناخة ..

ومفحق تقع في نهاية واد عميق يفصل سوق الخميس عن مناخة ، وكان علينا ان نهبط كل ما كنا قد صعدناه في طريق ضيق وعر ..

وفي اليمن كما في أي بلد آخر يوجد نوعان من البغال بغال نافرة تهرب من اسطبلاتها .. وبغال أليفة تعود من تلقاء نفسها الى اسطبلاتها ، وكانت بغالنا من النوع الثاني .. فقد كانت تسير بنا بلطف وخفةواطمئنان ونحن في هدوء نتمتع بالمناظر الطبيعية وكان سحر الغروب يلطف قسوة الصخور القائمة الفظة .. وقد رأيت أول مزرعة للبن .. وهي شجيرات قصيرة تحميها من أشعة الشمس القوية شجرة كبيرة بأغصانها العالية ..

وفي ساعتين كنا قد هبطنا ألف متر ووصلنا قعر الوادي وبدا الطقس فاتراً جداً ، وأصبحت طريقنا مستوية رملية ، والخضرة أكثر كثافة ، وقد مررنا بقطيع من الابل ترتع مع أطفالها .. وكانت الامهات والاطفال تقفز في مرح ولطف الا ان السعادة العائلية لم تجعلها صديقة ودودة ، فابتعدت عن قافلتنا الصغيرة وهي تزمجر زمجرة مشؤومة .

وقد رأينا مفحق .. قرية واقعة في سفح مرتفع شامخ يعلو قرابة مائتي متر وحيدة في الوادي .. وفي قمة هذه الهضبة تقع الحكومة التي ستنزل فيها .. وكنت قد عرفت السيد محمد الهجوة وهو رجل قوي في نحو الستين من عمره .. ولكن الوقت قد تقدم بنا في الليل فاكتفينا ببعض عبارات الترحيب ووجبة خفيفة وذهبت أتمتع بنوم هنيء وعميق ..وكان اليوم التالي هو « عيد النصر » وهو ايضاً يوم الاربعاء .. يوم السوق الاسبوعي للقرية ولهذا فقد نزل العامل الى القرية .. وأمضيت ساعات مع عائلته ثم تبعته الى القرية .. وقد ذهبت مع ابن العامل الى مزرعة البن التي يملكها أبوه .. وفي نهاية الوادي رأينا نبعاً يتدفق في بركة وسط غابة

صغيرة خضراء .. حيث ترتفع خمسين شجيرة من شجيرات البن تعاوها أشجار تحميها وتظللها .. ولا يتعدى ارتفاع شجرة البن ثلاثة أمتار وتخرج أغصانها من أسفل جذع كثير العقد واذا كان محصولها قليلاً فانها تقطع تماماً وتنبت أغصان جديدة في الجذور ، وتزرع الاشجار في صفوف منتظمة ، ويعنى بالتربة وتحرث وتسقى ، وقنوات الري تتفرع من مستودع رئيسي .. ويحفر تحت كل شجرة حوض صغير .. تملأ من وقت لآخر وتظل الشجيرة خضراء دائماً وتحمل ازهاراً وثماراً في وقت واحد الا أن ثمة موسمين رئيسين لتفتح الازهار ، وقد تكون ثلاثة وتبعاً لذلك يتم جني الثمار مرتين على الاقل .

كانت زيارتنا في آخر يناير ، ولم يكن ثمة أزهار ، ويظهر ان الازهار بيضاء وردية جميلة ، ولكن الاشجار كانت محملة بثمار تتفاوت في نضجها بعضها حمراء نضرة .. وبعضها خضراء .. وهي في حجم حبة الكرز وشكلها .. واذا طال بها الوقت أصبحت سمراء وبداخلها نواة مزدوجة حبتان جنباً الى جنب .

وشجرة البن تثمر بعد أربع سنين وتستمر هكذا ثلاثين عاماً .. وحسب عمر الشجرة يكون التنوع ويكون الموسم مشجعاً أو غير مشجع . ومتوسط انتاج الشجرة في السنة تسعون كيلو من الحبوب الجافة غير المفصولة من قشرتها ، ولا يقشرون البن هنا عادة بل يصدرون الثمار كلها الى الحديدة حيث تغربل وتفرز الحبوب من القشر .

وانتهت زيارتنا والتحقنا بالعامل وقد تشرفت بتناول طعام الغداء معه .. وكان هذا هو الوقت الذي أبحث معه فيه الامور المهمة .. طلبت منه بغالاً تحملنا الى مناخة .. وترددت كثيراً قبل تسليمه رسالة أحمد ابن أخيه .. فقد تساءلت هل كانت هذه الرسالة تحوي تعليمات لمنعي من مواصلة السفر الى مناخة ؟ وكان من السهل أن أقول إني قد فقدتها ولكني لا أستطيع ان أعمل هذا مع أحمد .. وأعطيت الرسالة للعامل ولم

أفهم شيئاً من تعبيرات وجهه ولكنه أخبرني أنه سيرد علي في المساء :
وبعد صلاة العشاء وصل الموسيقيون الذين كنت قد اتفقت معهم ..
وكانت الاوركسترا صفائح بنزين مفرغة ، ويقود الموسيقيين شيخ في سن السبعين .. طويل ونحيف .. ومعه عازف مزمار . وحامل دف ..
وأخذ الجنود يرقصون على أنغام هذه الاوركسترا في ضوء مصباح كبير استعرناه من العامل الذي كان ينظر الينا من شرفات داره .. أما ابنه فقد كان معي في صفوف المتفرجين الاول .. وكان الجنود يرقصون رقصات القرى المختلفة .. ولكني كنت عاجزة عن ادراك الفروق الطفيفة التي يبدو انهم يلمسونها ويرقبونها بابتهاج. وتلبية لرجاء الجمهور رقص قائد الاوركسترا بنفسه ، ورغم انه يابس متوتر فلم يكن مع ذلك مضحكاً بل لقد أظهر ظرفاً ووقاراً ..

وينتهي هذا باشعال النيران في أسطح المنازل فيصبون الكاز على الرمال المنثورة في السطوح ويشعلونها .. وقد ارتفعت أنوار اللهب على الجبل في مواقع لم نر بيوتها في النهار .. ولم أكن أتصور ان الجبل مسكون بهذه الصورة .. وكانوا حولي يشيرون الى القرى المختلفة ويذكرن لي أسماء ولكني كنت لا أرفع نظري عن مناخة !

وعند العشاء أخبرني العامل ان بغلته مريضة ، وانها لن تكون مستعدة للسفر ، وقد توقعت هذا .. الا ان الحجاب قد أظهر كفاءة في صعود الجبال فلماذا لا نواصل السفر بمفردنا ؟

وفي آخر السهرة وصل رسول من مناخة يحمل برقية من صديقي المهندس يخطرني ألا أطول الرحلة حتى لا أفقد زيارة محتملة الى مدينة مأرب .. وكان هذا خبراً ممتازاً .. وقد أظهرت العامل ضرورة الرد على هذه البرقية بأسرع ما يمكن .. ولن يكون هذا الا من مناخة ، وما ان لفظت هذا الاسم حتى وجدت العامل لا يسمع شيئاً ..

وتركت الدار بعد العشاء وكان العسكري حفظ الله متربعاً يقوم بالحراسة

وما ان ابتعدت حتى تبعني باخلاص .. وكنت أفضل ان أتجول وحدي في هذه الليلة الجميلة .. وفي كل مرة نسير الاثنين منفردين اسمع حفظ الله يتنهد تنهدات عميقة ويسبح الله بهمة مضاعفة .. وكنت أتأثر جداً لهذا الورع والتقى ولكني عرفت مؤخراً ان هذا هو الاسلوب الخفي الذي يعبر به الرجل المسلم أحياناً عن اعجابه العظيم بسيدة معينة فقد يقول : « سبحان الله » ويضمر في نفسه « الذي أخرج كائناً جميلاً مثلك .. » وعلى كل حال فان حفظ الله هذا يرتل القرآن بصوت حاد منغم .. ومناجاة العظمة الالهية تكمل تماماً مشهد السماء ..

وتنطفيء الانوار .. ويلتف حولنا العساكر .. وقد يكون هذا المشهد مبهماً أو ذا معان كثيرة في أي مكان .. أما في جبال اليمن فليس له الا معنى واحداً .. انه منظر شاعري رزين .. ليس الا ..

وقد حاولوا ان يعلموني الاسماء العربية لنجوم السماء وهي أسماء جميلة تليق بالنجوم .. وأجمل من الاسماء الكئيبة التي ذكرتها لهم ..

الفصل الثامن عشر

من مفحق الى مناخة

كم كان استيقاظنا مقلقاً في اليوم التالي .. وقد نزل جوادي «الحجاب» بصعوبة وهو يحمل عبئاً ثقيلاً ، ورأينا مفحق تبتعد دون ان نعرف ما هي مرحلتنا القادمة ، فالطريق الرئيسي بين صنعاء ومناخة لا يمر بمفحق بل يبعد عنها كيلومترين تقريباً ، ولعلهم في مفحق قد رتبوا حرساً في الطريق يمنعنا من السير الى مناخة ويرغمنا على العودة الى صنعاء . وقد سألت نفسي وأنا أواجه الاحتمالات المختلفة .. هل استسلم لهم بغباء ؟ هل ألجأ الى المال ؟ هل ألقي بالعسكري المرافق في العراك ، أم أعود للتفاهم مع العامل ؟

ولكنا عند تقاطع الطرق لم نجد أحداً .. وقد تبادلت مع عبده حينئذ نظرة انتصار طويلة وأدركت انه كان يفكر مثلي في نفس المأزق ،وسرنا في اتجاه مناخة ومعنا عامل البريد الذي وصل البارحة وكان مرشدنا .. وسار بنا الطريق في وديان عديدة وكنا ننتقل من واد الى آخر ونتسلق أخاديد صخرية وعرة حفرتها السيول وكان هبوطنا أقل من صعودنا وبهذا كنا نرتفع قليلاً حتى وصلنا الى منحدر طويل شاق هو طريقنا المباشر الى مناخة .. وقد خيبت الخضرة ظني ، فهي ليست استوائية ولا وافرة

النمو كما صورتها الاوصاف ، ولكنا في نهاية فصل الجفاف وسيعقب هطول الامطار الخصوبة وفرط النمو الذي تغنى به المكتشفون الاوائل .. وكانت حولنا أشجار عالية ، بينها أشجار السنط والحوائج والدوم ، ولا وجود للأعشاب ، بل أدغال كثيفة وأنواع غريبة من النباتات الشبيهة بالمتسلقة تغمر كل ما حولنا .

وأوراقها تؤكل أما ثمارها فلا .. ولا تترك العنز والقرود على الجذوع الا الثمار التي تتدلى حبات صغيرة حمراء على الاغصان التي قد جردت من كل شيء ..

وقد التقينا ببعض قطعان القرود التي ترسل صراخاً حاداً وهي تفر هاربة الى الصخور العالية المرتفعة .. ورأينا ببغاء ، كما أكد لي عبده أنه من الممكن ان نلقى النمر ولكنه يطلق هذا على الفهد الصغير وانا أقول هذا على أساس الجلود التي عرضوها علي في صنعاء ، ومررنا بمضيق محصور بين جبلين شاهقين قالوا ان جيشاً تركياً قد أباده اليمنيون هنا ، وهو مكان مفجع يكرهه ساعي البريد فقد سمع فيه عند مروره البارحة زمجرة مرعبة ولم يتحاش الجن والعفاريت الا بترتيلات التعويذات في الوقت المناسب !

وتناولنا طعامنا بالقرب من البئر الوحيدة في الطريق وقد استعرنا دلواً من عشة صغيرة لاحد الرعاة .. ولم يقبل حفظ الله ان يذوق علبة السردين التي فتحتها فالصياد لا يليق به ان يأكل من طعام قانص مثله ..وتأججت رغبته في اصطياد قرد ، ولكن أمله خاب عندما رفضت ان أقدم لـه الريال الذي يشتري به رصاصة يحلها محل رصاصة الحكومة .

وبعد منتصف النهار ، وصلنا الى أسفل المنحدر العظيم لمناخة .. وعلى علو شاهق ، على ارتفاع ثلاثة آلاف ومائتي متر تماماً استطعنا ان نميز البيوت البيضاء المتجمعة في تجويف بين جبلين .. ويحتاج منا قطع هـذه المسافة الباقية ساعتين كاملتين .. وقد رأى جوادي « الحجاب » هـذا

واشمأزت نفسه من القيام بدور البغل الذي عهدنا به اليه وانتهز لحظة عدم انتباه حارسه ويقظته وهرب .. وبحثوا عنه وأنا أتناول قدحاً من القهوة القشر في كوخ الراعي الذي اتخذناه استراحة لنا في المرحلة الاخيرة من الطريق .

وكلما اتضحت المدينة أمام أعيننا ، حل القلق محل الحماس فلا ندري أي استقبال ينتظرنا ، واتسعت الطريق واستوت واستطعت ان امتطي الحجاب وانا داخلة المدينة .. والتقينا بالفلاحين العائدين الى بيوتهم بعد احتفالات عيد النصر .. وكانوا يتوقفون ويتبعون خطانا ، ولا أدري ما الذي أدهشهم .. هل رؤيتهم لحصان في مناخة ، أم رؤيتهم لامرأة فوق جواد .. وقد أرشدونا الى أحسن بيت ينزل فيه المسافرون .. وكانت الغرفة العليا التي نزلت فيها مريحة جداً ..وموثثةبالسجاد الاصيل وبالوسائد النظيفة .. وذهب عبده على الفور الى العامل وعاد يدعوني الى مقابلته ٥

اخترقت المدينة الصغيرة دون ان أرى منها شيئاً .. وكانت العيون الفضولية تحيط بي تماماً كما حدث في صنعاء عند وصولي اليها لأول مرة .. وقد آلمني ان أفقد شعبيتي . وبدت لي الحكومة مشؤومة .. مدخل ضيق ملتو يليه سلم مظلم ، وكان العامل طويلاً طاعناً في السن قاسياً ، قليل الشعر جاحظ العينين ، ومظهره لا يشجع على الاسترسال في الحديث ، لم يرد على تحيتي بل فتح باباً ودفعني ولم أكد التفت حتى رأيته يجر عبده معه الى الحجرة المقابلة ويقفل علي باب الحريم ..

في الحريم ! لقد شعرت وأنا الطبيبة ، بالاهانة البالغة .. ان هذا ممقوت .. غير مقبول أبداً لا بد ان هانس هلفرتس كان قبل خمسة عشر عاماً يقفز في زنزانته في السجن فراراً من أضخم براغيث وجدها في حياته .. ولكنني في الحريم عانيت الف قرصة موجعة لكرامتي .. لقد أسرعت الى جواري سيدة عجوز لطيفة هي ربة الدار ، ولكن لغتي العربية تلاشت .. وقد قصرت جهودها في الحديث على بعض عبارات

الترحيب القصيرة وبعد نصف ساعة فتح الباب وأدخل عبده وكان مرتبكاً ومبتهجاً وقد جرني الى الخارج وأخذ يهديء روعي .

وكان عبده بحذقه المعتاد قد اختار أفضل الحلول وهو ان يلقي بنفسه بين أقدام العامل ويعترف له اننا وصلنا بدون اذن .. وقد قال العامل إنه يفضل الصراحة .. وانه لذلك سيستقبلني بما يليق . وانه يود ان ينزلني في داره لولا أنه يعتقد انني سأكون في الخارج أكثر ارتياحاً لرؤية المرضى .. وقال انه سيدفع تكاليف البيت الذي سأنزل في حجرة من حجراته .. بل وانه سيدعو أعيان المدينة في المساء ويقترح عليهم اكراماً لي ان يحتفلوا مرة ثانية بعيد النصر .

كان هذا جميلاً جداً ، وكان هذا الانتصار يدير الرؤوس ، وقد عدنا الى الفندق هذه المرة ونحن ننظر الى المدينة والى سكانها بثقة ورضا. ومناخة مدينة جديرة بشهرتها فهي مدينة مفتوحة لا أسوار لها ، تجثم على حرف صخري ضيق يصل جبلين ، ويكون ممراً عظيم الارتفاع بين واديين ، وفي وسط المدينة شارع ضيق تحيط به البيوت الصغيرة.وجنوب المدينة يرتكن على جبل وعر ويتجاوز ارتفاعه ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، وتغطي الثلوج قمته في بعض الاعيان ، ومن القمة يستطيع الانسان ان يرى البحر الاحمر . والمدينة تنبسط كثيراً في الجهة الجنوبيةفنرى البيوت الشاهقة ذات الطوابق العديدة المزخرفة الشبيهة ببيوت صنعاءالكبيرة الجميلة وترتفع هذه البيوت على مدرجات عديدة وبينها فواصل منتظمة جداً حتى ليخيل للانسان انه أمام سلالم كبيرة ، ومناخة مدينة غنية في هذا الوقت لأن فيها التجار الذين يجمعون البن من مزارعه في الجبل ويبيعونه في الحديدة . وهذا هو سبب الرخاء الذي يرجع عهده الى القرنين الاخيرين نتيجة لنمو تجارة البن ..

اصبح الجمهور حولنا أكثر وداً وصداقة ولكنه متطفل ، وقد تعب مرافقي من حمايتي من الزحام فأخرج حفظ الله خنجره ولوح به تحت

أنفي وقال : « فايق . هل تريدين ان أحميك ؟ » وهو مسرور حين يمسك بقبض الخنجر ويلمع في عينيه لهب ينبغي ان ينطفيء سريعاً ..وقد تظاهرت بالرعب فأغمد خنجره واستعاد مظهره اللائق برجل كبير أراد ضحكاً ودعابة ان يخوف طفلاً . .

وبمناسبة عيد النصر أرسلت من مناخة عدة برقيات تهنئة الى صاحب الجلالة والى نائب الامام في صنعاء والى وزير الصحة رئيسي والى مدير المستشفى والى القاضي راغب .. هل كان هذا تبجحاً واستخفافاً ؟ كلا انه تدبير حكيم ، فعندما يكون الانسان مذنباً ويتعذر عليه اخفاء هذا الذنب فأفضل الحلول هو ان يتصرف كما لو كان يعتقد نفسه بريئاً وهذا يقلل من الخطأ ويسهل العفو ..

كان استيقاظي في صباح اليوم التالي استيقاظ الظافر المنتصر ، بقدر ما كان بالأمس مثقلاً بالقلق .. ويشرف الفندق الذي نزلت به على الوادي الواقع في الجهة الغربية .. نحو عبال. ومن غرفتي كنت أرى منظراً رائعاً على الجبل ، وتأتي مع شروق الشمس جماعات من الفلاحين يمرون الواحد بعد الآخر ويرقصون تحت نافذتي محاولين ان أظهر .. وكانت الرقصات بسيطة يقوم بها عشرة أو خمسة عشر رجلاً يحملون على أكتافهم العصي أو البنادق أو المظلات الواقية من المطر واستقبلت بعض الزوار ثم توجهت الى مكان الحفل ومعي عبده ..

كان الحفل في الميدان أمام المدرسة . وقد حضر جمهور كبير واتخذ العامل مجلسه في أعلى السلم وسط لفيف من الاعيان وأمامه صفان من العساكر يرقصون في ساحة الحفل .. ولم أكن أتوقع هذه الفخفخة وهذه العظمة .. وقد شعرت ان الحوادث تسبقني ، وأنا في العادة عالية التفكير ولكني في تلك اللحظة تملكتني عاطفة وطنية متأججة .. فأمام هؤلاء الناس الذين لا يعرفون الا الشيء القليل عن أوروبا وعن فرنسا كنت فخورة جداً أن أمثل أجمل ما في بلدي وأفضل ما في حضارتي من جوانب .. ذلك

هو الجانب الذي يقوم بالعمل والمساعدة دون الحصول على أي كسب سوى المكافآت العادلة للجهود المبذولة ..

وفي أعلى السلم استقبلني العامل بحفاوة بالغة وكانت الالوان المتنوعة لحلل الحاشية واورديتهم وعمائمهم لوحة رائعة مع حلة العامل الخضراء . وتبادلنا التحيات وكانت مفاجأة سارة حين عرفت انه قد أقام في باريس بضعة أسابيع قبل ثلاثين سنة .. ولعل هذا هو سر ترحيبه بي . وبينما كان عبده يبدي فصاحته وبلاغته متحدثاً باسمي لاحظت بجانب العامل عدة أشخاص عرفتهم في صنعاء قبل الآن وقد شعرت لهذا بالارتياح ..

وتقدمت الفصول الثلاثة للمدرسة ومع الطلاب أساتذتهم الذين قرأوا علينا ما في أوراقهم من خطب وقد بدأوا بالتحيات بترتيب كهنوتي معتاد .. لله أولاً ، ولصاحب الجلالة ثانياً ، ثم للعامل ، ولكنهم حيوا الحكيمة الفرنسية أخيراً .. وكان أسلوب الخطاب أدبياً الى درجة لم أتمكن معها من الفهم . ثم بدأ الاطفال يرقصون في الميدان نفس الرقصات التي يؤديها الرجال .. وكان بينهم طفل يشبه ابني الى درجة مذهلة ، فلأولادي سمات شرقية ملحوظة جداً ويطلقون عليهم في فصولهم بالمدرسة « صينيين » وكنت قد بعثت اليهم في باريس بملابس يمنية كاملة ، وأحمل معي دائماًصورهم بهذه الملابس..عرضتها على العامل فكان التشابه مذهلاً ويصعب على احد ان يفرق بين صورة ابني وهذا الطفل اليمني لولا ان الصورة أخذت لابنائي على درجات بيت في ضاحية من ضواحي باريس .. لقد كان نجاح هذه الصور مؤثراً وصاعقاً ، ولم يمنع العساكر الناس الذين تجمعوا حولنا .. وقد تناولت الايدي الصورة بين عبارات الدهشة والعاطفة. ابتسامات عند الجميع طيبة بسيطة صريحة وليس هناك ظل للنقد لاني هجرت أبنائي مؤقتاً فقد كانت حياتي هنا حياة رجل ، والعرب يعرفون ان الحب الابوي الخالص يمكن ان يتلاءم مع الفراق القصير ..

ودعاني العامل بعد هذا للغداء ولكن الحاج علي حبيش تمسك بالمشاركة

في شرف استقبالي ، فسحبني الى بيته في زيارة قصيرة .. وعلي حبيش هو أغنى تجار اليمن في مناخة وهو واحد من أغنياء اليمن .. مرح محب للاستطلاع . نشيط وذكي . ويكفي ان تراه لتدرك مدى نجاحه في الاعمال . وكنت أعرفه جيداً . فقد أحضر كثيراً من المرضى الى صنعاء.. وهو يقيم في دار رائعة تقع في الجهة الشرقية للوادي .. وما ان اجتزنا العقد حتى دخلنا في سلالم وردهات وقاعات شبيهة بمثيلاتها في أفخم دور صنعاء . وكان المفرج العلوي كله مؤثثاً بالسجاد القديم ذي الالوان الحلوة اللطيفة وبالوسائد الجميلة . وفي وسط الحجرة صينية نحاسية مغطاة بالطنافس المعتادة ولكن كل شيء مختار أحسن اختيار .

وكانت لؤلؤة الدار هي الصغيرة أنيسة أخت زوجة رب الدار وهي في سن الثانية عشرة .. وهو يدللها أكثر من زوجته .ومن العجيب ان الملابس والمجوهرات التي زينت بها لم تجعلهاتفقد سحر الطفولة وجاذبيتها وبينما كانت تقدم لي المرطبات غاب علي حبيش ليرتدي قميصاً مشجراً بالذهب ، وكم أنا نادمة لفقدان الصورة . وقد أحضر بعد هذا كنزه وهو صغير من الخشب مطعم وملبس بالنحاس ومرصع بالمسامير ، وكان يضم نقوداً نادرة وقديمة وقد قدم لي هدية .. واحدة منها .

وبيت العامل على النقيض من هذا ، يبدو فقيراً وموحشاً انه مقر حكومة في القرون الوسطى ، ليس فيه نوافذ زجاجية كبيرة ، وحجراته مظلمة وخالية من الاثاث تقريباً ، استقبلني العامل على انفراد أولاً . وهو ينتمي الى أسرة قديمة جداً يجد فيها ائمة اليمن أكثر خدمهم اخلاصاً فقد كان أخو العامل وزيراً للامام يحيى واغتيل معه . وأحد أبناء أخيه هو الآن وزير عند الامام أحمد ، وأقاربه كلهم يحتلون مراكز هامة .. ويتباهى آل العمري بالاستقامة المطلقة ، وهذا يفسر البساطة في حياتهم ومن تقاليدهم العائلية أيضاً الزواج من امرأة واحدة مهما كانت الخيرات والنعم التي يعطيها الله للعائلة .. وهذه صفة تستوجب الاحترام لندرتها هنا .

والعامل العمري من المدرسة القديمة ولهذا فما ان انتهى الحديث عن ذكرياته في فرنسا حتى تركني مع النساء للغداء .. وكانت الوجبة متواضعة كما كان الوسط متقشفاً .. وكانت ربة البيت هي التي تقوم بخدمتنا .. وقد اقتنصت زوجة علي حبيش للغنية التي كانت مدعوة أيضاً الفرصة التي أدارت ربة الدار ظهرها . وهمست في أذني قائلة « مسكينة » .. ان الاصدقاء هم الاصدقاء في كل مكان ولكن جلسة القات التي تلت وجبة الغداء أنستنا هذا التقشف وهذه البساطة في الطعام .. لقد كـان القات من الصنف الممتاز .. قطف قبل ساعة لا أكثر : بأوراق طرية وطازجة . وكانت زوجة العامل توزع أغصان القات بكرم وسخاء على من حولها . ومن كل جانب تلقيت باقات صغيرة من الاوراق الممتازة النظيفة .

وفيم يكون الحديث اذا لم يكن عن الاطفال ، وعن تعاسة النساء ؟ وقد أرادت سيدة الدار ان ترى صور أبنائي .. ووجهت لي بحزن هذا السؤال : « وفي فرنسا يا حكيمة ، هل يولد الاطفال ويموتون ..ويولد غيرهم ويموتون أيضاً .. وهكذا دائماً ؟ » .

لقد كان لهذه السيدة سبعة عشر طفلاً — كلهم ماتوا قبل ان يصلوا سن الخامسة ، ودون استدعاء طبيب واحد للعناية بهم .. ومع ذلك فلم يتزوج العامل غيرها . وهذا يفسر هذا المثل الهادىء في حياة هذين الزوجين الوقورين الذي نجم عن المصائب الكبيرة وقد استعنت بالنسبة المئوية عندنا في فرنسا فوجدتها منخفضة جداً جداً عنها في بلاد اليمن التي يرتفع فيها الى ارقام مذهلة مخيفة فتصل وفيات الاطفال الى اربعين في المائة في السنة الاولى والى خمسين في المائة قبل سن العاشرة .. وتتأوه النساء في استسلام ويرددن : « كله من الله » . هل أقول لهن ان هذا يتوقف على النظام الصحي ، على الاطباء وعلى العلاجات ؟ ما فائدة هذا ، ما دامت الادوية معدومة والاطباء لا وجود لهم وليس هناك من يعلمهن

الطرق الصحية ؟ وقد يكون جوابهن على ان هذا كله أيضاً من الله ..
لا بد اذن من شيء آخر للخروج من هذه الحال ..

وتركت دار الحكومة وكانت الشمس قد مالت للغروب ، وأمسكت قبعتي في يدي ، ولكن أحد الجنود وقد فوجيء بهذا المنظر أشار الي آمراً أن أغطي شعري . وفي الفندق ، في الغرفة التي ينزل فيها رفاقي كان الجالسون في غاية الانسجام ، ومن خدودهم المنفوخة ، ومن كثافة الغصون المستعملة الملقاة على الارض وجدت ان القات هناك أيضاً كان موجوداً ، وكان ذلك الافراط راجعاً الى سخاء حارسي حفظ الله فقد نظمت البلدية بمناسبة العيد مسابقة في اطلاق النار بعد الظهر ، ولم يستطع صاحبي حفظ الله ان يقاوم رغبته وهو الماهر الحاذق فباع حذاءه الجديد بريال واشترى رصاصة وربح الجائزة الاولى وهي خمسة ريالات ودعا الصحب جميعاً .. وكان القات خارقاً للعادة .. وقد أخذت بدوري « كيفاً » احتجت بعده الى ربع ساعة من الوحدة والانسجام . والكيف كلمة لا يمكن ترجمتها الى لغاتنا الغربية ، وهي حالة نادرة يكون الانسان فيها متجلياً سعيداً ، في آن واحد .. ربع ساعة لا أكثر فالمرضى ينتظرونني وقد دامت مقابلتي لهم الى الساعة العاشرة مساء ..

والحقيقة تفرض علي ان أقول اني لم أر في مناخة فيما عدا جمال موقعها شيئاً غير عادي فلا أديرة ولا وجود للرجل الكلب ، ولا أي ظل للخصيان ، وأني أترك شرف الحديث عن هذه الاشياء للرحالة الوهمي المتشامخ الذي ذكرته صحيفة فرنسية مسائية في مقال نشرته في يناير سنة ١٩٥١ ، ولعله يتمتع بعيون خارقة فقد رأى أيضاً كما ذكر في مقاله هذا أسوار مأرب العالية التي وصفها أرنود في سنة ١٨٤٠ والتي هي الآن أنقاض وحطام كما تشهد الصور التي التقطتها لها .

لم أر في مناخة الا مرضى .. مرضى فقط كما في كل مكان في اليمن رجالاً ونساء وأطفالاً ، والنساء يرتدين ثياباً كئيبة . ودن ريفيات عاديات

ولم أر بينهن حورية خفيفة ساحرة كتلك التي رأيتها في حمام صنعاء أو كالفتاة الشريفة التي رصعت أنفها بالذهب . أما الرجال فممتازون ، ان وجوههم حلوة كرجال صنعاء ، وقامتهم أطول كثيراً .. متر وخمسة وسبعون سنتمتراً أو ثمانون سنتمتراً ، ويرتدي العساكر والرجال القادمون أحياناً بدلاً من القميص ثوباً صغيراً طويل الاكمام يصل الى فوق الحزام ويقفل حتى الرقبة بأزرار هي في الغالب منزوعة أو مفكوكة والقماش من الساتان الاسود أو المقلم بألوان فاتحة صفراء أو خضراء أو حمراء .

ولهذه الملابس المحكمة الضيقة اللامعة التي تفتح فوق الخنجر على صدور ملساء بارزة العضلات رائحة زكية فواحة .

هذا القوام الممتاز لرجال مناخة يرجع بلا شك الى الحالة الصحية الطيبة التي أكدها لي بأسى وألم الطبيب اليمني في المدينة .. فلا وجود في مناخه للملاريا (حمى المستنقعات) ولا للدسنطاريا ، بل ولا للسل الدرني فمن بين خمسين مريضاً فحصتهم لم أجد أحداً مصاباً بمرض خطير .. ان الامراض العضوية قليلة جداً ، ولكن الامراض المتصلة بأداء الأعضاء لوظائفها كثيرة كما في كل مكان تكون فيه الحياة صحية وبسيطة ولكنها مملة .

وفي اليوم الثاني تلقيت جواب الامراء على برقيات التهنئة بالعيد .. واعتبرت هذا الجواب الشخصي السريع بمثابة العفو ، وقد يفضل الانسان عدم الاهتمام بالاساءة حتى لا يبدو في موقف الشخص الذي أسيء اليه وقد سر عامل مفحق وعامل مناخة بهذه البرقيات فقد كانت تزكية ، وغفراناً لهما أيضاً ولاستقبالهم الودي لي . أما عبده فقد كان أقل اطمئناناً ، ففي اليمن كما في كل مكان لا يجهل من يحملون وزر خطايا غيرهم دورهم الهام في المجتمع .. وكان عبده يهتم كثيراً بالمحافظة على برقيات الامراء ليحتمي بها . وقد أسر الي انه رغم كل شيء يخشى ان يودع في السجن مكبلاً بالحديد . وقد أكدت له انني في هذه الحالة لن أخرج من بيته ،

حتى يُطلق سراحه ..

وقد غادرنا مناخة الى صنعاء على ظهور البغال التي استأجرها لنا الحاج علي حبيش . وانعش عبده عودتنا بالحديث عن مغامراته .. ففي خلال أربعين سنة قضاها في البحرية كان قد ذهب الى كل مكان تقريباً .. وأثناء فترات الاستقرار التي تفصل رحلاته المتقطعة اشتغل عاملاً في الولايات المتحدة وفي مناجم فرنسا ، وتاجراً للخضروات في هاييتي ولكنه دائماً كان يحتفظ باسمه كوقاد ممتاز في قوائم وكالة البواخر حيث كان أبوه مسجلاً بها قبله ، وعندما كان يمل الحياة المستقرة كان يجد سريعاً الفرصة لسفر جديد .

وكان عبده هذا محدثاً لبقاً يتمتع بكل مواهب الراوي العربي وكانت نظرته الى الاشياء عادلة وشاعرية وزاخرة بالفكاهة في وقت واحد .. كالحياة نفسها .. وحينما كان يصف لي شيكاغو كان أمامنا في الطريق راع يعزف على مزماره الانغام التي يتصورها الانسان على شفاه الرعيان في كل زمان .. وقص عليّ غرق سفينة مستشفى ضربت بالقنابل بين كورسيكا وايطاليا ونحن على عتبة باب أحد الفلاحين فرشف أقداحاً من اللبن المراب البارد الذي تفوح منه رائحة البهارات والتوابل الحلوة .. وهكذا يبدو عالمنا المتحضر في عيني بحار عربي عجوز يتمتع بالحيلة والدهاء ، هنا في أغوار القرون الوسطى .. ان هذا لا يحدث كثيراً ..

الفصل التاسع عشر

رحلة الى مأرب

العاصمة الغامضة لملكة سبا – معبد بلقيس او إله القمر – السد القديم – قرية البدو – حكايات الرواد والمكتشفين

قبل مولد المسيح بقرن من الزمان تكلم المؤرخ اليوناني ديودور دي سيسيل Diodore de Sicile لأول مرة عن مملكة سبأ التي كانت تشغل جنوب الجزيرة العربية قبل ممالك الحميريين وكانت تجارة البخور سبباً من أسباب ثرائها الفاحش . وكانت عاصمتها مزدانة بالمعابد ذات الاعمدة المربعة ، وكانت تيجان هذه الاعمدة من الذهب والفضة ، وحكمت سبأ ملكات منهن بلقيس التي جاءت قبل الف سنة من الميلاد لزيارة الملك سليمان . وكانت السدود الضخمة المنظمة للسيول تؤمـــن الخصوبة للبلاد . وقد أصبح كل هذا فيما بعد اطلالاً وانقاضاً . ويظن ان بقايا العاصمة القديمة موجود في مأرب المدينة الصغيرة الواقعة في أطراف الربع الخالي أو الصحراء الكبرى في جنوب جزيرة العرب . وفي مأرب قبائل بدوية مستقلة وشرسة ومصممة على الاستئثار بما في أرضها مـــن كنز ، وعلى ان تمنع وصول أي انسان اليه . ومع ذلك فقد نجح أرنود

الفرنسي في الوصول اليه . وكان اول من وصف معبد بلقيس والسدود القديمة . وعاود بعده الاكتشاف بعض المغامرين الا ان زيارة الاطلال ظلت ممنوعة حتى حصل وندل فيليبس الامريكي في سنة ١٩٥١ على تصريح من الامام أحمد للقيام بعمليات الحفر والتنقيب خلال سنة.

ولم يكن لدى وندل فيليبس رأس المال الكافي للقيام بهذا العمل الهام ولهذا فبعد أن وضع في مأرب الدكتور جام Jamme الاخصائي في كتابات جنوب الجزيرة العربية عاد الى الولايات المتحدة الامريكية ليقوم بسلسلة محاضرات بقصد الحصول على المال اللازم لتمويل البعثة .. وقد عاد الى اليمن في فبراير ١٩٥٢ ولكن الحال لم تعد مشجعة له لأسباب مختلفة فقد رفض الامام ان يجدد معه العقد الذي كان مشرفاً على الانتهاء وتركت البعثة وراءها أدواتها ومهماتها واضطرت للرحيل . وفي مارس ١٩٥٢ استعدت بعثة يمنية حكومية لجرد ما بقي في مأرب . وقد التمست التصريح لي بعضوية هذه البعثة وقد أجاب الامام طلبي قبل قيام الطائرة بساعتين .

ولا توجد طريق صالحة للسيارات بين صنعاء ومأرب . بل تستمر الرحلة على ظهور الجمال أو البغال اسبوعاً . أما بالطائرة فلا تتجاوز ثلاثة أرباع الساعة . ويمتد تحتنا اقليم مقفر يختلف كل الاختلاف عن الجبال الخصبة في الجنوب أو في الغرب . وكلما توغلنا في قلب الجزيرة العربية أصبحت التضاريس منبسطة تشكل سهلاً أثر فيه التآكل والانقراض ، ولكنها تنتعش أحياناً في صورة براكين حديثة وتبدو فوهات البراكين واضحة من الجو .. تاج من الصخور السوداء ؛ وسطها مفروش بالرمل الناصع شبيهة بالبراكين الخامدة في أوروبا .

وفي الدقائق الاخيرة .. كانت الصحراء تمتد الى الافق مساحة واسعة صفراء بعد المنحدرات الصخرية القائمة . ومدينة مأرب تقع بعيداً عن الرمال وترجع أهميتها في الوقت الحاضر الى سوقها الذي يتوافد اليه البدو

والى القوافل التي تتجه منها الى صنعاء حاملة الملح المستخرج من المناجم المجاورة ، وتعود بمختلف الحاجيات الاستهلاكية .

وهبطت بنا الطائرة بمخاطرة في ممر لا تتوفر فيه المقاسات اللازمة ، ونزلنا وسط جلبة قوية ، وكان معي اثنان من الاوروبيين أحدهما الطبيب الايطالي البروفيسور جيرولامي وعالم الآثار الفرنسي المسيو بارثو الذي أعطاني فيما بعد معلومات ثمينة ، ولكن أحداً لم يلتفت الى جماعتنا الصغيرة بجانب شخصية الامير الحسن الذي يرأس لجنة التحقيق . فقد أسرع اليه رؤساء الاقليم يحيونه وكان حرسه يبعد الجمهور من حولنا وكان الرجال يلبسون ثياباً مصبوغة بالنيلة الزرقاء القائمة أو الفاتحة وقد امتصت بشرتهم مع مرور الايام هذه الصبغة واستحقوا ان يُطلق عليهم لقب البدو الزرق وجاءت البغال والخيل والجمال تنقلنا الى المدينة التي تبعد حوالى عشرة كيلومترات .

ولا بد ان أذكر حادثاً عرضياً هنا .. فقد نصحوني في صنعاء مراعاة للامير الحسن المتعصب ألا أرتدي البنطلون المناسب لركوب الخيل ، بل ان ألبس الفستان الذي يتفق مع الحشمة والوقار . وكان فستاني ضيقاً للأسف . فلما حضرت هذه الخيل والبغال وضعتني في مأزق حرج ..فهل تدخل الاوروبية الاولى الى مأرب سيراً على الاقدام وتفقد ماء وجهها ؟ أم تدخل على الجواد ؟ مرت فترة وانا حائرة مترددة وقد أخذ زملائي الذين لا يمتطون الخيل حميراً وبغالاً .. وركب اليمنيون الجمال . ولكن واحداً في الحرس وكان يعرف عادتي في صنعاء .. أحضر لي جواداً أود لو أمتطيه في وقت غير هذا .. ولم أجد بداً من ان أركب وأعدو مسرعة في الطليعة ..

ومأرب تقع على رابية صغيرة وتسيطر تماماً على السهل .. وكان علينا ان ننزل في دار الحكومة .. خارج المدينة قليلاً ، ويرجع تاريخها الى العهد التركي . وأسوارها من الصخور الكبيرة البيضاء المزينة بخطوط

صارمة سوداء ولكنها جميلة .. وفي الزوايا أبراج للحراسة أما البـــاب فتحــيه قلعة تدل على أن أولئك الذين كانوا يمثلون لم يكونوا مطمئنين الى السكان المجاورين .. ووقف صفان من العساكر لاستقبالنا . وعــلى الطريق جماعة من الجنود يلتفون حول مدفع يرسل الطلقات تحية لوصول نائب الملك على ظهر بعير أبيض محاطاً بالعساكر الذين ينشدون الزامل .

وتبعنا الامير الى دار الحكومة ، وفي الساحة بناية يتقدمها سلم خارجي أصغرها وأعلاها وأكثرها هواء ونوراً ..

وجاءنا جندي مثقل بالخناجر يقدم لنا أقداح القهوة في همة ولطف ووقف ثلاثة جنود أمام حجرة الطعام يقوم بدور السفرجية ، حمــل أحدهم الصابون ، وحمل الآخر المنشفة وأخذ الثالث يصب الماء فوق صفيحة من النحاس . وجلست البعثة كلها فوق حصيرة من القش وتناولنا وجبة ممتعة ، وكان البروفيسور جيرولامي وحده هو الذي لم يتعود تناول الطعام بيده .. ولكنه والفرخة في يده أوضح لنا باناقة واتقان أنه من السهل ان يعود الانسان الى حالته الطبيعية .. وتقرر بعد الغداء ان نزور الاماكن التي وضع فيها ونلدل فيليبس نتيجة حفرياته ..

عنبر كئيب يضم عشرة أكياس محزومة بالخيوط ، وأهم القطع تمثال أخضر من البرونز طوله متر لرجل واقف . غطاء الرأس مدور .وعيونه كبيرة مفتوحة ، وأنف ضخم فوق فم صغير ضيق ، ولحية ليست طويلة وجه دقيق الملامح محكم الصنع يعيد للاذهان الفن اليوناني المهجور ، ذراعاه مثنيان ويبدو انه يضغط على شيء في قبضتيه . وعلى ظهره جلد حيوان تقاطعت في الامام يداه وهو يسير مقدماً الساق اليسرى .. الجسم من الرصاص . والقدمان ثابتتان على الارض طبقاً لقواعد النحت القديمة : وعرفنا من النقوش اسمه .. معد يكرب .. وقد قدم المدعو Amdahar هذا التمثال البرونزي الى اله القمر .

وبين القطع الاخرى المختلفة القيم رأس كان يبدو جميلاً جداً وقد

سمحوا لي باخراجه الى النور وتصويره . وكان في غاية الدقة ويفخر به أي متحف كما يفخر بأجمل قطعة من فن الاغريق .

هذه القطع كلها اكتشفت في معبد بلقيس وهي تدعو الى التنبؤ بما يمكن ان تؤدي اليه حفريات أكمل وأتم . انها من البرونز الاخضر الخفيف الدقيق .. داخلها فارغ ومقوى بنوع من الاسمنت ، والمعاينة العميقة هي وحدها التي يمكن ان تلقي ضوءاً ساطعاً على هذه القطع .. اين صنعت ؟ أو من اين جاءت ؟

وامتلأت حجرة أخرى بالقطع المنحوتة من الرخام الشفاف وهي بكل تأكيد مصنوعة هنا .. وبجانب هذه الالواح المغطاة بالكتابات الحميرية توجد أعمدة أو مسلات ذات أطوال مختلفة وقد نحت في أعلاها رأس رجل أو حيوان .. والوجه في الغالب أمرد ولكن بعضها بلحية وواحد منها فقط بشنب .. وأسلوبها شبيه الى درجة كبيرة بما وجد في بلاد ما بين النهرين (العراق) ومن بين هذه الوجوه ذات الجمال الصارم غير المعبر يبرز وجه ناعم أملس الخدين يفتر ثغره عن ابتسامة .. ولم يكن في مأرب أحد من النحاتين يستطيع ان يبرز في عمله الملامح الذاتية للانسان.

ولعل مسلة جنوب الجزيرة العربية هذه المهداة الى آلهة مجهولة تكرم يوماً ما كأقدم ابتسامة في العالم .

وكان الوقت متأخراً والجنود يؤدون صلاتهم .. وجاء الليل وكانت السماء في مكاننا هذا على ارتفاع ألف متر ، أجمل . والنجوم أكثر تألقاً منها في بلادنا .. وقد قررنا مسيو بارتو وأنا ان نقضي ليلتنا على السطح وظل مسيو بارتو وقتاً طويلاً يقص علي كيف أخرج للنور التماثيل الاغريقية البوذية التي هي الآن في متحف جيمي في باريس .

وفي الفجر كان زملاؤنا المسلمون يمرون على السطح ليتوضأوا ويؤدوا صلاتهم الأولى وكان الصباح في هذه الصحراء هادئاً غريباً لا أثر فيه لغناء العصافير .. وكانت أشعة الشمس المشرقة المنحنية تسقط حول دار

الحكومة على قمم الاعمدة .. وخرجنا لزيارة معبد بلقيس .

وقد أصلح الطيارون أثناء الليل احدى السيارات التي تركها وندل فيليبس ، ولكني كنت قد ارتديت البنطلون استعداداً لركوب الخيل ، جلس الامير الحسن ومستشاره بجوار السائق وحشرنا نحن أنفسنا على ظهر السيارة ، وقد وضعوا في احدى زواياها السجاجيد والنارجيلة الكبيرة ، وهذه أشياء لا غنى عنها حتى يحتفظ الانسان بصبره عند تعطل السيارة . وبينما كانت السيارة تتمايل بنا تعلق بها ثلة من الجنود وقفزوا فوق الغطاء المعدني للموتور وهم يرفعون أصواتاً مرعبة تحية لاميرهم وكانت الطريق مرهقة لأن أحداً لا يعنى بها .. وتمايلت السيارة ووقع ما لا يمكن تفاديه .. سقط جندي تحت العجلات ولم تستطع السيارة الوقوف فظل ممدداً على الارض والى جواره بعض رفاقه .. فليحفظه الله !

وتقدمت السيارة ببطء شديد وكثيراً ما كانت تغوص في الرمال ، وحولها فرسان أربعة يتلاعبون فوق جياد صغيرة أصيلة ممتازة .. ويقع المعبد على اثني عشر كيلومتراً من المدينة ولكن الاطلال لا تظهر من بعيد لأن الاعمدة العالية لا تتجاوز الكثبان الرملية التي تغطي البنيان القديم وتطمره الا قليلا . وقد رفعت الرمال عن ثلث قعر التجويف فقط .. وفي المدخل رواق مهيب به ثمانية أعمدة رؤوسها من الذهب والفضة ولكنها قد فقدت بريقها ولمعانها .. الا في خيالاتنا وتصوراتنا .. وقد رسم بالفحم فوق أحدها انسان ساذج ضخم وهذا طبعاً ليس سيئاً ... فهل يكون وندل فيليبس هو الذي انتهك حرمة هذه الآثار ودنس قداستها ؟ كلا بدون شك .

ومن كل جوانب البهو ينزل الانسان الى قاعة طولها ثلاثون متراً وعرضها عشرون متراً ، وأرضها مفروشة بالبلاط وفيها مجموعة من الاحواض والقنوات ، يبدو انها مخصصة للطهارة قبل اداء الطقوس .. وفي الوسط صفان يتألفان من أربعين عموداً يقوم عليها سقف المعبد ولم

يبق منها الا اثني عشر عموداً – وقد تشقق كثير منها عندما رفعت الرمال من حولها لاسيما وان من العسير العثور هنا على الاخشاب التي تصلح ركائز ..

وفي واجهة الرواق باب تتقدمه درجات توصل الى البهو البيضاوي المهيب الذي لا يعرف لمَ كان مخصصاً .. وهذه واحدة من خصائص معابد جنوب الجزيرة العربية وقد أزيلت الرمال من جزء من خارجه ، أما داخله فلا تزال الرمال تملؤه الى القمة ، وقد قدرنا حجمه من الخارج ، وهو تقريباً مائة وعشرون متراً طولاً ، وستون متراً عرضاً وارتفاع الجدار ستة أو خمسة أمتار ، ولا يزال قوياً صامداً وهو مبني من صخور رصت بعضها فوق بعض بمهارة فائقة ، وعلى ثلثي ارتفاعه يلتف حوله افريز من الكتابات الحميرية المحفورة العميقة ، وتعلو على مقربة من البهو أعمدة أربعة على حفرة كانت فارغة عندما فتحوها ، وقد تكون ضريحاً لم يستعمل وقد يكون ما فيها قد نهب ...

وفي هذه البقعة ، خرج ثعبان من بين الصخور واضطربنا جميعاً .. ان الامام يستطيع ان يحول العصا الى ثعبان .. ولكن أخاه الحسن لا لا يستطيع تحويل هذا الثعبان الى عصا للأسف ، لقد أمسك الحسن بهذه الافعى السامة بحركة سريعة وقطع احد الجنود قطعة من ردائه وصنع منها كيساً حمل فيه الافعى حية الى صنعاء .

وعلى بعد يسير تقف أعمدة بلقيس المربعة الخمسة التي لم ترفع الرمال بعد عن قواعدها ، وللوصول اليها لا بد من تسور كثبان رملية عالية ، ولكني لم أجد أثراً لتلك الجبال من العظام التي أشار اليها المكتشفون الاول على انها بقايا محتملة للقرابين التي كانت تقدم الى آلهة السبئيين .

ويجب الخضوع للشواهد – فرغم ان أقوال البدو المتداولة قد ملأت هذا المعبد بالاساطير فان اسم بلقيس لم يوجد في أي مكان فيه .. ان هذا المعبد مقدم الى اله القمر « المقاه » الذي هو هنا مذكر

وخير . أما الشمس فمؤنثة وذات تأثير سيء .. وهذه هي النظرة في كل البلدان التي تسير فيها القوافل ليلاً لا تحت وهج الشمس .. فهل يخطر على البال ان عاصمة مملكة سبأ في مكان آخر في اليمن .. في حضرموت أو مسقط ؟ لا يمكن الرد على هذا السؤال الا بعد تقدم الحفريات في مأرب ... فالنقوش التي تزين الرواق البيضاوي تدل على ان رؤساء الاقاليم شيدوه في سنة ٨٠٠ قبل الميلاد . أي بعد ملكة سبأ بمائتي سنة . ولكنهم شيدوه ليكون سوراً وسياجاً حول معبد أوغل في القدم .. ولكن الرمال لم ترفع بعد عنه .. فهل يكتشف هذا السر هناك أو في اية بقعة أخرى ولا بد اذن من العثور أمام البهو على الممر المعبد بالبلاط والمؤدي الى المعبد . ولا بد من البحث في جانبي الطريق عن بنايات المدينة الرئيسية الغارقة تحت أمتار ثلاثة من الرمال .. ولكن من يقوم بهذا العمل .. ومتى ؟

ويبدو ان الاقاليم لم يخضع بعد تماماً لسلطة الحكومة اليمنية .. فقد كان السيف الحسن مرة يسير بعيداً عن جماعتنا وكنت أسير خلفه ، ومعه حراسه الستة الذين لا يفارقونه أبداً . وسمعنا فجأة ضجة شديدة ، واذا بجماعة من البدو يسيرون الينا مسرعين .. وفي الحال أحاط الحراس بالامير وأنزلوا بنادقهم من أكتافهم ، وأمسكوا بها استعداداً للدفاع .. وكانت نظرات الامير قلقة فاحصة .. حتى وصلوا وقبلوا يديه وقدموا له مراجعة أو التماساً ..

ولا يخلو هذا الفزع من سبب معقول ..

وتركنا معبد القمر عندما تقدم بنا النهار وتوجهنا لزيارة السدود القديمة الضخمة التي كانت تخزن مياه بحيرتين اصطناعيتين وتكون سبباً لخصوبة سهل واسع . وقد تصدع السد مرتين . الاولى في سنة ١٢٠ وأصلح ، ثم في سنة ٥٠٠ ميلادية .. وكان التصدع حدثاً تاريخياً هاماً فقد أعقبه الخراب والهجرة .. ولكن هل كان التصدع سبباً أم نتيجة في هذه الدائرة

الملعونة من الجفاف الى اقفار البلد من سكانه ؟ لعل كارثة طبيعية كهزة أرضية أو طوفان هي التي دمرت هذا العمل الضخم . ولعل اقفار البلد من السكان راجع الى حرب أو وباء حرم السد بعدها من الصيانة فانهار أخيراً .. مهما كان الامر فبينما كنا نتأمل ونفكر في قوانين التاريخ كانت الحرارة في جوف السيارة شديدة لا تحتمل وقد ازدحمنا داخلها وتهالكنها بعضنا فوق بعض وفوق رؤوسنا يتأرجح الكيس الصغير الذي ترقد فيه الافعى . ويمتد احد السدين اللذين زرناهما على مساحة قدرهـا كيلومتر مربع ونصف ، بين رابيتين صخريتين يكونان ضفتي الوادي الجاف . كان السد ركاماً من الصخور والطين المرصوص يصل الى ارتفاع ثلاثين متراً .. ولكن السيول قد أخذت كل شيء .. ولم تبق غير بناءين ضخمين قويين يستندان الى الجبل كل واحد في طرف من طرفي السد وكانا يستعملان لحجز المياه وتصريفها حتى ينتظم الري ..

كان البناء القائم على الضفة اليسرى كما رسمه ارنود تماماً قبل مائة سنة تحت تهديد بنادق البدو . وينحدر منه رصيف لكسر الامواج يصل الى البركة القديمة ، وتسير المياه في قناة الى فتحتين يفصل بينهما عمود... هاتان الفتحتان تقفلان بألواح خشبية سميكة مركبة بعضها فوق بعض تبعاً لمستوى المياه .. وتثبت هذه الالواح في ثقوب مستطيلة مزدوجة منحوتة في البناء ولا تزال ظاهرة للعيان .

أما الضفة اليمنى فليس بها سوى مصب للماء على نفس الطراز لا ان فيه نقوشاً جميلة تزين البناء وتحدد تاريخه وهو تاريخ معبد بلقيس . ولا تزال الكتل الصخرية الضخمة التي أحسنوا تقطيعها مركبة بعضها فوق بعض باتقان ومهارة الى يومنا هذا . كما لا يزال الاسمنت الذي يغطي نقوش أرصفة كسر الامواج سليماً . ولا يملك الانسان الا الاعجاب بهذا العمل الذي يرجع تاريخه الى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة . والذي لا يزال مميزاً للهندسة الحديثة .

وعلى جوانب السد ابنية صخرية عجيبة ارتفاعها خمسة أمتار تقريباً وليس لها فتحات ، ويذكر الناس هنا انها خاصة بتوزيع المياه في قنوات السهل ، ولكن احداً لا يدري كيف يتم هذا .

بعد الظهر استدعتني أسرة قاضي مأرب الى بيتها المجاور لدار الحكومة وكان بيتاً عالياً مبنياً بالطوب ومزيناً بنقوش بيضاء ، وكان سلمه مظلماً جداً .. وقد انتظرتني النساء على السطح ، وكانت الشابات منهن ذوات جمال رائع ، وفساتينهن من القماش الاحمر او الاصفر أو الاخضر وتبدو الاذرع من أكمامهن القصيرة الواسعة وهذا دلال لا تسمح بمثله نساء صنعاء ؛ ولكن بنية صغيرة هي وحدها اسوء الحظ التي رضيت ان التقط صورتها . وكانت هديتي منهن أحجاراً ملونة مدورة مثقوبة لعلها كانت عقداً في عنق سبئية حسناء ..

وتركت عائلة القاضي والتقيت بالبروفيسور جيرولامي وذهبنا معاً الى مأرب .. وكانت المدينة السبئية القديمة أكثر اتساعاً وامتداداً وتحيط بها أسوار ظلت سليمة حتى رحلة أرنود ثم انهارت وتهدمت . أما المدينـــة الحالية فلا تحتل منها الا جزءاً مرتفعاً هو بلا شك الحصن أو القلعة القديمة وتبرز في كل جانب صخور حسنة التقطيع تغطيها النقوش المحفورة . فالمدينة اذن قد شيدت فوق الاطـــلال والخرائب ، وهي مؤلفة من حوالى مائة بيت وتظهر في سطوحها العليا رسوم بيضاء ..

وفي سفح المدينة يقع وادي دانا .. وهو البحيرة الصغيرة الوحيدة في هذا الفصل الجاف ، وكانت نزهتنا الاخيرة على شواطئها حيث بحثنا عن مواقع الماء التي تنقل البلهارسيا وكان معنا بعض الاطفال ذوي الوجوه المشرقة الذين القوا بأنفسهم في الماء تسلية لنا ولكنهم لا يعرفون السباحة .. وعلى ضفاف البحيرة كانوا يقطفون أوراق الاعشاب الصغيرة ويمضغونها

مسرورين . انهم محرومون من الفيتامينات فيما عدا ما يحصلون عليه من اللبن ومن الزبيب الذي يأتيهم من صنعاء . فحاجتهم اذن ماسة الى خضراوات ولتهافتهم عليها ما يبرره .

وحان وقت السفر ، وانتظرت مع البروفيسور جيرولامي وقتاً طويلاً بجوار الطائرة .. وصول مسيو بارتو والامير الحسن الذي أخرته بعض الوفود وفي هذا السهل الملتهب لم نجد الظل الا تحت أجنحة الطائرة ، وعلى بعد مائتي متر ينعكس ستار من الاشجار الخضراء في ماء البركة الهادىء .. ولكن ذلك لم يكن الا سراباً .. وكان حولنا خمسون من البدو الزرق قد جلسوا يتفرسون فينا بشراهة وجرت بيننامناقشات حادة واستطاع البروفيسور ان يفحص أسنانهم جميعاً بدون صعوبة . وأكد من جديد انعدام تسوس الاسنان في بعض الاجناس . ومرت ساعتان وثلاث ونحن لا نزال في انتظارهم ، ولم أعد استطيع الوقوف فتمددت على الارض أما زميلي فقد تجلد وظل واقفاً يضحك وأخذ البدو من حولنا يوجهون الى البروفيسور اشارات معبرة .. معبرة جداً .. معناها في اللغة المشتركة بين الامم : « انها مستعدة .. تقدم ! » فليسامحني أولئك الذين يظنون ان بدو الصحراء الغامضين الزرق اطهاراً .. وقد أتاح لي أحدهم ان أستعيد مكانتي كطبيبة عندما قال لي انه يشعر بألم في رأسه ..

هؤلاء الناس الطيبون الذين عشنا معهم أياماً عديدة ..هل هم مسؤولون عن وقوع البعثة الامريكية في الخطر ؟

من الواضح انهم قد عرفونا مقدماً كأطباء .. ولكن بما ان الامر يتعلق بالدفاع عن موقف اليمن فاني أذكر هنا بعض ما يقال في عدن وهو ان وندل فيليبس عاد بعد غياب عشرة أشهر ، وأبرق الى الامام من نيويورك « سأصل ومعي هدايا » .. وأبرق أيضاً من القاهرة « سأصل ومعي هدايا .. » ومرة ثالثة أبرق من عدن الى الامام قائلاً : « سأصل بالهدايا .. »

وقد رفض الامام هدايا وندل فيليبس ، ورفض ان يجدد معه العقد وصحيح أيضاً ان الامام كان محاطاً ببعض علماء الآثار المصريين ..

وقد قال القاضي العمري وزير الامام على مائدة فرنسية ايطالية ذات يوم : « ان العرب يستطيعون دائماً التفاهم مع شعوب البحر الابيض المتوسط ونحن نعلم انكم تستطيعون ان تسعدوا في بلادنا كما نسعد نحن في بلادكم .. أما هؤلاء الانجلوسكسونيون فان هنالك شيئاً ما يفرق بيننا وبينهم .. » وهذه أمثلة معروفة تؤكد كلها هذه القاعدة النفسية ..

فعلى وندل فيليبس الذي لم يعد شخصاً مرغوباً فيه لدى الامام ألا ينتظر من البدو أي مراعاة أو مجاملة . ولكن هل خاطرت بعثته حقيقة مخاطرة كبيرة ؟ حقاً ان انزال خمسة عشر عالماً وعشرة أنابيب كوكاكولا تحت الضغط وخمس عربات نقل وثلاث ثلاجات ضخمة من أجل أسبوع واحد أمر مزعج !

وقد جعل وندل فيليبس عنوان مغامرته **Parfums de romance et épices du danger** وتأتي هذه العبارة في الوقت المناسب لتضع باحترام خاتمة ونهاية لكل شيء ..

وأثناء انتظارنا للامير ، كنت أعاني احساساً شديد الوطأة .. فقد كنت عاهدت نفسي اني اذا وصلت يوماً مأرب فاني سأتخلف عن العودة بالطائرة ، وأرجع الى صنعاء براً ، وكان معي ما يكفيني لاستئجار مرشد وبعير . واذا كنت بعد صراع داخلي مرير قد عدلت عن هذه المحاولة المغرية فما ذلك الا احتراماً واعترافاً بجميل امام اليمن ، هذا الرجل الذي يفهم الاخلاق والدين فهماً بعيداً جداً عن فهمنا لها .. كان فطناً وعادلاً عندما قبل ان تسافر امرأة مع لفيف كله من الرجال .. ولهذا كله فلن أسمح لنفسي بممارسة أي مظهر من مظاهر الاستقلال .. وفضلاً عن ذلك فاني سأتمتع برؤية الاقاليم من الجو .. ولا وجود للرمل حول المدينة .. والتربة مكونة من الرواسب الرملية الجافة القاسية التي تجرفها

المياه ، وظهرت خطوط منتظمة لا يمكن ان تكون من عمل الطبيعة ولا يمكن تمييزها على الارض ، ويجد الانسان هذه الظاهرة في سهول الفرات أيضاً .. وتتوارى المدينة شيئاً فشيئاً وتطغى الرمال على أعمدة المعبد شيئاً فشيئاً وتنتظر ان يأتي رجال مدفوعون بحب الاستطلاع يزيلون من جديد هذه الكثبان الرملية تنقيباً عن الارض القديمة . وقد فكرت في ارنود ، وحيداً متنكراً جريحاً وأعمى وقد اضطر الى الفرار سريعاً يلاقي ما يلاقيه من مشقة وهو في طريق عودته الى الحديدة .

ولكن ارنود لم يكن الاول .. فقد دهش عند وصوله الى مأرب حينما علم ان أوروبياً آخر قد سبقه الى هنا .. فقبل ارنود باثني عشر عاماً أي في سنة ١٨٣٠ أقام « رجل شاحب طويل وأشقر » في المدينة عدة أسابيع .. كان يتكلم العربية بطلاقة ويعرف القرآن معرفة جيدة . وقد عرف كيف يكسب الاحترام ، وطاف بالاقليم يصور الخرائط وينقل النقوش .. وقبل سفره أخبر رئيس الاقليم بمكان حفروه فوجدوا قطعاً ذهبية باعوها بثمن مرتفع . وكانت نهاية هذا الرجل الذي منح القوة الخارقة لاستخراج الكنوز محزنة مؤلمة ، فقد قتل وسرق ما معه وفقدت حقائبه .. ولكن وجوده ليس أسطورة أو خرافة فقد عثر على اثره مرات عديدة في اليمن وفي حضرموت .. ولكن الشرق في القرن التاسع عشر لم يكن يتطلب من المسافر هذه البطاقة التي لا ترحم والتي لا غنى عنها في الجمارك ومكاتب الصرف والتفتيش الطبي . ولم يبق لنا من هذا الرجل الا سطور قليلة كتبها عنه ارنود في تقريره في « الجريدة الآسيوية » ولم يعرف اسمه ولا بلده .

ووصلت صنعاء وأسرعت الى لقاء الاميرة أقص عليها رحلتي .. كانت تنتظرني وكانت سعيدة لحماسي وقد ناولتني رسالة تبينت فيها ختم الامام الاحمر .. لقد كانت طلبت من الامام زوجها ان يمد خدمتي في اليمن

سنة أخرى وقد أجاب رغبتها ..

ويسعدني ان يجتمع معبد القمر المؤثر وصورة صديقتي اللطيفة في ذكرى واحدة ».

خاتمة

والآن ، هذه هي النهاية ، كنت آمل ان أصل الى تعز على ظهر بغلة مخترقة جبل سمارة . وكنت قد حصلت على التصريحات اللازمة ، ولكن اجازتي قد انتهت منذ مدة ، وعائلتي تستدعيني ، وقد وصل طبيب ايطالي يحل محلي ، وبعث الامام بالطائرة تنقلني الى تعز ..

لقائي لاسرتي شيء ، ومغادرتي لليمن شيء آخر .. ومغادرة اليمن مر موئلم .. وفي حالات كهذه وبناء على قاعدة دقيقة منذ زمان طويل أتظلم الدنيا في عيني ، ولكن ذكريات معينة تأبى مع ذلك الا ان تشق طريقها وتظهر :

لقد قدمت لي الاميرة وأنا أودعها في صنعاء عقداً من الورد ، وأعود في المساء الى بيتي وأنا أحمل هذا العقد كهم ثقيل ، انه دائماً هنا في درجي ، وكلما جف ، فاحت رائحته شذى وطيباً مثل كل ذكرى جميلة .. وعندما أكتب الى سيدي محمد بدر الدين أضع وريقة هشة مصغرة في الظرف .. ويتلاشى العقد شيئاً فشيئاً ، وعندما ينتهي أرجو الله ان

يمكنني من الذهاب الى اليمن أبحث عن عقد وردي آخر .

كنت أرجو ان أسافر الى عدن براً ، ولكن سلطنة لحج في اضطراب ولهذا فلن أرى الجبال اليمنية الجميلة مرة أخرى .. فقد رأى الامام ان يقدم لنا طائرته « بلقيس » ، وكان ضباب المحيط الهندي يصعد كما في كل صباح الى القمم النائية العالية فوقنا ، وتختفي اليمن عما قليل تحت السحب البيضاء الكثيفة ويسير خلفنا صليب ذهبي صغير هو ظل بلقيس ويحاول ان يتخطى السحب ولكن دون جدوى .

يطمع الانسان في كل قصة ان يبدي بعض الملاحظات المألوفة التي هي حقيقة ومتناقضة في آن واحد ، ولما كانت روايتي هذه واحدة من تلك الاقاصيص فاني أخضع راضية للقاعدة العامة .

لقد فكرت وانا أكتب هذا في أبنائي ، وفي أولئك الذين هم في سن تسمح لهم باختيار الطريق التي ينتهجونها في حياتهم .. انني لا أعلق أهمية كبرى على النصائح . فالانسان لا يستطيع ان يقدر أهمية ميل أو حب الا بالنسبة لنفسه هو ، وهو وحده الذي يقرر . وليعلموا مع ذلك ان التأني في الاختيار وفي تقرير أمر كهذا ، هو أسوأ الاحتمالات اذا كان الباعث الخفي لهذا التأني هو انعدام الثقة بالنفس ..

ولكن أياً كانت الطريق التي يسلكها المرء فالوقت دائماً ليس متأخراً ويندر الا تمر الفرصة نفسها أو الحظ ذاته مرات عديدة في حياة المرء ، وبقاء الانسان قادراً على التعرف على الحظ وعلى اقتناص الفرصة لا يتوقف الا عليه . واذا جاءت الفرصة فيجب اقتناصها والامساك بها بشرط ان تسمح بذلك التعهدات والارتباطات السابقة ، وما يجنيه الانسان في هذا الحال لا يمكن معرفته الا فيما بعد . لقد آمنت في اليمن في وقت من الاوقات باحتمال وجود الله ، وقد احببت بلداً اقطاعياً يعيش في القرون

الوسطى وانا ملحدة وماركسية دائماً وبكل تأكيد .. ولعل ذلك كان أفضل ..

وبعد هذا كله ؟ عدت أمسك البطاقات الطبية .. وأصنف ألوان الطعام اليومي . وأركب الاوتوبيس كل صباح .. نعم .. نعم.. ولم لا ؟

ولكن الانسان اذا عاد من الشرق بعد ان أقام به ، وأقصد أقام به فعلاً واختلط بسكانه فانه ليس هو الانسان الاول أبداً . ان الشرقيين يعرفون الانتظار ، انهم يعرفون أحسن منا كيف يقبلون ان يمر الوقت دون ان يأتي معه بما ينقصهم وما هم بحاجة اليه ، ذلك لأن لهم من عزة النفس احساساً وادراكاً أصلب من احساسنا وادراكنا ، ان الذي يضطرب عبثاً وبدون جدوى أضحوكة في نظرهم . وما يميزنا عنهم هو تقديرنا لفرص النجاح الضرورية للعمل . فاذا كانت فرص النجاح ضعيفة فانهم يعولون ويتخاذلون وتبدو حكمتهم لنا خمولاً وكسلاً ، أما نحن فنحاول مع ذلك . وتبدو لهم همتنا معيبة . ولا شك ان هذا هو السبب في ان اليمني لا يقدم على الانتحار . أما الغربي الذي تنعدم أمامه فرص النجاح فان الموت الاختياري هو الوسيلة الوحيدة للرد على القدر المعاكس» أما اليمنيون فانهم وهم أحياء يستطيعون ان يحتفظوا بهدوئهم وان يجعلوا الموت موتاً داخلياً .

قال لي عامل ذمار : «ان اليمن مثل البطيخة القشرة الخارجية صلبة ولكن الداخل طيب حسن .. » وليعرف الانسان قيمة اليمن ينبغي الا يطوف بها مسافراً شرهاً للصور النادرة الثمينة فقط ، يطلب كل شيء ولا يقدم شيئاً ، ان هذا لا يحبه اليمنيون ، ففيهم انفة وإباء . يجب ان تذهب اليهم ببساطة . بمهنة طيبة في يديك ، ورغبة صادقة في ان تنفعهم وهنا لن تجد قشرة صلبة تقاوم وستأتي الثقة وبعد الثقة يأتي كل شيء..

وحينئذ فقد تعرفهم وتتعلق بهم وتتساءل عما يكسبه بلدهم الذي ظل بعيداً عن الحضارة الحديثة وما يفقده اذا دخل حلبةالرقص بدوره مع الداخلين؟ وهذه أسئلة يرد عليها كل شخص بمقتضى مزاجه الشخصي .. وعلى كل حال فالتقدم لا مفر منه ، وحتى علماء أصول السلالات البشرية الذين يجدون في اليمن ميداناً صالحاً لمعرفة ما طمسه التقدم .. يجب ايضاً ان يتمنوا ذلك .

ولكن أي تقدم ومن أي طريق ؟ هذه هي المشكلة الوحيدة . كان مغني الامام ذلك الشاب الذي وهب صوتاً رائعاً ، يردد أغنية حلوة جميلة أخذت تسجيلها معي ، وهي قصيدة يمنية قديمة لحنهاموسيقي معاصر وهذا موضوعها : « شاب يعدد طيبات الحياة : الزهور الجبال السماء المرصعة بالنجوم .. ويقول انه قد أوقف نفسه ونذرها لهذه الطيبات الجميلة ويتوسل الا يأتي شيء يعكر عليه هذه الوقفة الطبيعية . »

وعندما كنت أستمع الى هذه الاغنية كان يبدو لي اني أستمع الى الامنية العميقة لشعب اليمن العريق في القدم ، المبكر في الحداثة ، ميناء حديث ، أعمال ري عظيمة ، طرق معبدة في كل بقعة ، ، مناجم تستغل .. هذا كله طيب وجميل .. بشرط ان يكون شعب اليمن هو نفسه الذي يجني ثمار عمله الجديد .. فليحافظ الامراء في اليمن على الحياة الهادئة البسيطة وليمسكوا عن الذهاب الى الخارج وعن التمتع والتلذذ كما يفعل الامراء عادة .. ولتبق ثروات اليمن الدفينة في جوف الارض لا يغتني بها اقطاعيون ، يمنيين كانوا أو غير يمنيين .. ولا شك في ضرورة المعونة الخارجية لتطور أي بلد ناشيء ، ولكن هذه المعونة ينبغي ان تستهدف المصلحة العليا للبلدين ، والتاريخ الحديث يظهر هذا .. ان عالمنا

الحديث يقدم للبلدان الجديدة طرقاً مختلفة للنهضة والتقدم .. منها ماسارت عليها الجمهوريات الجديدة في آسيا ، وما سارت عليها البلدان التي ضلت طريقهـا فـوقعت فـريسة للجشعين والطـامعين والرأسماليين الاستعماريين .

فاذا كانت الطريق الصحيحة السليمة ليست اليوم مفتوحة أمام اليمن فلتبق كما هي انتظاراً لظروف تاريخية أحسن ، وهذا أفضل الف مرة . لتبق كما هي لا تعرف من حضارتنا ومن خبرائنا الفنيين الا المزايا والفوائد وحتّى تظل مستودعاً للرجال الذين لم يتلوثوا ، الذين يفيضون ايماناً وذكاء وهذه ثروة نادرة وأندر من المناجم البكر التي لم يستغلها أحد بعد.وسيأتي اليوم الذي تستطيع اليمن ان تسير فيه وان تنطلق بحرية .

وقد يقول قائل .. وفي فترة الانتظار هذه .. حالات الولادة ،حالات الدرن الرئوي كل هؤلاء المرضى الذين لا علاج لهم .. ان هذا كلـه شنيع ، والاستعمار الاجنبي يمكن ان يقدم الحل لكل هذا .. نعم .. انه واضح ان هذا شنيع .. ولكن هذا ليس هو المهم .. انني لا أعتقد ان صيدلية حسنة التنظيم يمكن ان تكون مبرراً كافياً لاي لون مـن ألوان العبودية ، كما لا أعتقد ان المحافظة على السوائم مسوغ كاف لاستعبادها ، ان الموت لا مفر منه ، والتوجع قليلاً أو كثيراً قبل الموت لا مفر منه أيضاً ، وانما المهم هو ان يقضي الانسان حياته هذه كريماً عزيزاً ، والصحة ليست الا عاملاً واحداً من عوامل الحياة الفياضة المدركة الطيبة حقيقة .

واني ، وأنا أودع أصدقائي اليمنيين ، لا أفكر في أوجاعهم وآلامهم ولكني أفكر في صفاتهم ، في قلوبهم واذهانهم ، في رغبتهم الصادقـة

الشفوية في الاصلاح ، تلك الرغبة التي ظلت قوية فيهم لأنهم أحرار ، لا يعلقون التقدم الحديث على وجود اجنبي يتحكم في بلادهم .

اني أفكر في أطفال مدارس صنعاء وهم ينشدون لي شاكرين « لأني علمتهم شيئاً جديداً » أفكر في شريفة التي أرادت ان تتعلم القراءة ، أفكر في ذلك الرجل العجوز الذي استند الى شجرة تحت نافذتي وظل يسمع السيمفونية حتى نهايتها . أفكر في عبد الله سائق عربتي الذي لم يكن قد رأى في حياته عملاً فنياً واحداً ، والذي أخذ يرسم بحماس رسماً كروكياً زاخراً بالحياة والفكاهة . أفكر في ذلك الكهربائي الذي طلب من المهندس ان يصلح له جهاز راديو وكاد يبكي قهراً وهو يقول : « هل نحن حيوانات ، اني احاول اصلاح هذا الراديو منذ يومين .. وها أنتذا قد أصلحته في دقائق . أفكر في بنائي المفوضية المصرية في صنعاء وهم يعتذرون رسمياً لأنهم لم يكونوا يصدقون ان الماء الساخن يصعد .. أفكر أخيراً في الممرضين الذين تملؤهم الرغبة في المعرفة وفي توفير الراحة للآخرين .. وأصل من هذا الى القصة التي احتفظت بها للنهاية ..

كان ذلك في المستشفى ذات صباح ، وكنت أفحص امرأة جاءت من قرية بعيدة . وقد خرجت من ولادة عسيرة ببتر خطير لا يشفيه الا سلسلة من العمليات . فهي اذن معرضة للموت في الشهور التالية .. واتباعاً لقاعدة دقيقة سألتها عن عمرها ، رغم اني كنت أعلم مقدماً ان الرد هو مجرد اشارة بأنها تجهل ذلك .. ولكن حدث في ذلك اليوم شيء غير عادي .. جلست المرأة ونظرت الي بخجل وحزن وغضب وقالت : « لا أعرف كم عمري .. اننا نعيش في القرية كما تعيش البقر .. اننا لا نعرف حتى أعمارنا . » خجل وحزن وغضب .. كل هذا كان يبدو في نظراتها .. وقد جعلتها السليقة العميقة تقول نحن ولم تقل أنا .. وما دام

في هذه الدنيا نظرة كنظرتها ، ولاسباب كهذه الاسباب فيمكن أن يأمل الانسان كل شيء : ان معرفة الانسان لسنه هي معرفة أولية :: ولكنها في الحقيقة الاشارة الاولى لحياة أكثر انسانية ::

إن هذا النور الداخلي لـ « اعرف نفسك » أذهلني لحظة :: ثم كان علي أن أواصل عملي :: ولم تعد المرأة المضطجعة أمامي سوى كتلة معذبة من اللحم :: ::

لم يكن في وسعي ان أعمل من أجلها شيئاً :: لا شيء على الاطلاق:: سوى ان أستبقي لها يوماً مكان الشرف في كتابي هذا :



فهرست

●

صفحة

صفحة

المؤلفة والكتاب

على قلة الكتب التي صدرت عن اليمن يعد هذا الكتاب محاولة ناجحة للتعريف بهذا البلد العربي الشبه المجهول.

طبيبة فرنسية ثارت فيها روح المغامرة فقصدت اليمن ميدانا لبحثها وتجاربها ثم سطرت كل انطباعاتها في هذا الكتاب المثير: الحياة في قصر الامام، كيف تساس المملكة، الحياة العائلية، الجيش، سيوف الاسلام والدولة، القات عند الحريم زواج الصغيرات، وكثير من امثال هذه المواضيع الحساسة..

ولعل مما يشكر للمؤلفة تلك الصراحة البعيدة عن الغرض وذلك النقد النزيه لاوضاع تلك البلاد.

انه كتاب جدير بالمطالعة، ففيه عبرة، وفيه ثورة على وضع هذا الشعب العربي المسكين... في اليمن.

منشورات دار الطليعة
بيروت

تطلب كتب دار الطليعة في العراق من مكتبة المثنى

السعر
٣٥٠ د.ل